

الروح، إبراهيم القاسم

في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل
من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء

[قل الروح من أمر ربي ، وما
أوتيتم من العلم إلا قليلا]
(قرآن كريم)

تأليف

الامام شمس الدين أبي عبد الله بن قيم الجوزية

المتوفى في سنة إحدى وخمسين وسبعائه

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م
بيروت - لبنان

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المتصف بصفات الكمال (١) المتعوت بنعوت الجلال . الذى علم ما كان وما يكون وما هو كائن فى الحال والمآل . وحكم بالموت على كل ذى روح من مخلوقاته . وسأوى فيه بين الملك والمملوك والغنى والفقير والشريف والضعيف والمعاصى والمطيع من سكان أرضه وسماواته . فهو الذى عدل فى الآخرة بين برياته ، قبض روح هذا بعد ما عمر الدنيا وزخرف البناء وتوطنها وليست لحنى وطننا ، وقبض روح الآخر الذى اجتهد فى إصلاح آخرته وجعل الدنيا لجة واتخذ صالح الاعمال فيها سفنا . فشتان ما بين خروج الروحين من الجسد ، هذه لها السعادة والهناء . وتلك لها الحيبة والشقاوة والعناء . هذه ترتع فى رياض الجنة وتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش فى لذة ونعيم . وتلك محبوسة تعذب فى نار الجحيم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله تحجب إلى عبادته بنعمه وآلائه وابتدأهم سبحانه وتعالى بأحسانه العميم وعظائه فعياداً بمرزته جل جلاله أن يختم بالاساءة وقد بدأنا بالإحسان فله سبحانه الحمد والشكر والنعمة والفضل والخلق والأمر والثناء الحسن الجميل والامتنان . وأشهد أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه عبده ورسوله الطيب الروح والجسد سيد ولد آدم وأفضل من قام وركع وسجد الذى أنزل عليه فى كتابه العزيز ، ومن أصدق من الله قبلاً (ويستلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) وعلى الله وصحبه خير القرون الذين اهتموا وما بدلوا تبديلاً صلاة دائمة بدوام السموات والأرض إلى أن يرث الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها للحساب والعرض وسلم تسليماً كثيراً .

(١) ستعلم فى أثناء هذه الخطبة أنها ليست بقلم ابن القيم ولعلنا بقلم البقاعى فإن فى كشف الظنون بعد ذكر كتاب الروح لابن القيم ما لفظه « اختصره برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعى وسماه سر الروح وتوفى سنة ٨٨٥ — الحمد لله المتصف بصفات الكمال — الخ ، وكأنه شبه على صاحب كشف الظنون فزعم أن البقاعى اختصر كتاب ابن القيم والظاهر أن البقاعى إنما صدر كتاب ابن القيم بهذه الخطبة وكأنه سماه من عنده سر الروح لأن ابن القيم لم يسم كتابه وإنما اشتهر بكتاب الروح لأنه كتاب فى مضمون الروح ثم صار ذلك علماً بالغلبة والله أعلم .

(وبعد) فهذا كتاب عظيم النفع جليل القدر كثير الفائدة ما صنف مثله في معناه فلا تكاد تجد ما تضمنته من بدائع الفوائد وفوائد القلائد في كتاب سواه . ويشتمل على جملة من المسائل تتضمن الكلام على أرواح الاموات والاحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار ، وأقوال العلماء الاخبار ، لأدرى أسئل مصنفه قدس الله روحه عنها فأجاب . أم سئل عن البض ولكن هو أطال الخطاب . فإني رأيته مجرداً عن خطبة وسؤال أصلامبتدنا فيه بقوله (أما المسألة الأولى وهي هل تعرف الاموات زيارة الاحياء وسلامهم أم لا) فأجبت بعد استخارة الله سبحانه وتعالى أن أفتحه بهذه الخطبة المباركة العظيمة . لكونه كتاباً في ضمن مسائله التي تتأملها وتشاهدها كل درة يتيمة لينشرح صدر الناظر فيه . ولتقوى همته على النظر في بدائع فوائده ودقائق معانيه . والله سبحانه وتعالى المستول المرجو الاجابة أن يعصنا من الزيغ والزال . وأن يوفقنا لصالح النية والقول والعمل . وأن يرفع درجات مؤلفه في جنات النعيم . وأوف ينفع به الناظر فيه إنه سميع عليم . إنه على كل شيء قدير . وبالإجابة جدير . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(قال) الشيخ الإمام العالم العامل ترجمان القرآن ، ذو الفنون الحسان ، شيخ الإسلام ، قدوة الأنام ، أوجد الحفاظ ، فارس المعاني والالفاظ ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، عمدة المفسرين بغية المجتهدين شمس الدين أبو عبد الله ابن الشيخ الإمام العالم العامل شرف الدين أبي بكر ابن الشيخ الكبير أبوب بن سعد الشهير بابن قيم الجوزية الحنبلي الدمشقي قدس الله تعالى روحه ونور ضريحه وجعل أبواب الجنان بين يديه مفتوحة ، ولسائر علماء الإسلام الجهابذة النقاد الاعلام آمين وصلى الله على سيدنا محمد سيد الاولين والآخرين وآله وصحبه أجمعين ؟

المسألة الأولى

وهي هل تعرف الاموات زيارة الاحياء وسلامهم أم لا ؟

قال ابن عبد البر ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام . فهذا نص في أنه يعرفه بعينه ويرد عليه السلام .

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه متعددة أنه أمر بقتلي بدن فألقوا في قليب ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم يافلان ابن فلان ويافلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإني وجدت ما وعدني ربي حقا فقال له عمر يا رسول الله ما تخاطب من أقوام قد جيفوا فقال والذي بعثني بالحق ما أتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جوابا .

وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه .

وقد شرع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأمته إذا سلوا على أهل القبور أن يسلبوا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول السلام عليكم دار قوم مؤمنين وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل — ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد .

والسلف يجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له ويستبشر به .

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا في كتاب القبور باب معرفة الموتى بزيارة الاحياء .

(حدثنا) محمد بن عون حدثنا يحيى بن يمان عن عبد الله بن سمان عن زيد بن أسلم عن عائشة رضی الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم .

(حدثنا) محمد بن قدامة الجوهري حدثنا معن بن عيسى القزاز أخبرنا هشام بن سعد حدثنا زيد بن أسلم عن أبي هريرة رضی الله تعالى عنه قال : إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام .

(حدثنا) محمد بن الحسين حدثني يحيى بن بسطام الاصفهاني مسمع حدثني رجل من آل عاصم الجحدري قال : رأيت عاصم الجحدري في منامى بعد موته بستين فقلت أليس

قدمت؟ قال بلى قلت فأين أنت؟ قال أنا واقفة في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني فنتلقى أخباركم قال قلت أجسادكم أم أرواحكم قال هيات بليت الاجسام وإنما تتلاقى الارواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال نعم نعم نعلم بها عشية الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قال قلت فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال لفضل يوم الجمعة وعظمته .

(حدثنا) محمد بن الحسين حدثني بكر بن محمد حدثنا حسن القصاب قال كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى نأتى الجبان فنقف على القبور فنسلم عليهم وندعو لهم ثم ننصرف فقلت ذات يوم لوصيرت هذا اليوم يوم الاثنين قال بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبلها ويوما بعدها .

(حدثني) محمد حدثنا عبد العزيز بن ابان قال حدثنا سفيان الثوري قال بلغنى عن الضحاك أنه قال من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته فقيل له وكيف ذلك؟ قال لمكان يوم الجمعة .

(حدثنا) خالد بن خدّاش حدثنا جعفر بن سليمان عن أبي التياح قال كان مطرف يندو فإذا كان يوم الجمعة أدبج (قال وسمعت أبا التياح) يقول بلغنا انه كان ينور له في سوطه فأقبل ليلة حتى إذا كان عند مقابر القوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره فقالوا هذا مطرف يأتي الجمعة قلت وتعلمون عندكم يوم الجمعة؟ قالوا نعم ونعلم ما يقول فيه الطير قلت وما يقولون؟ قالوا يقولون سلام سلام .

(حدثني) محمد بن الحسين حدثني يحيى بن أبي بكير حدثني الفضل بن موفق ابن خال سفيان بن عيينة قال لما مات أبي جزعت عليه جزعاً شديداً فكنت آتى قبره في كل يوم ثم قصرت عن ذلك ماشاء الله ثم أتى أتيته يوماً فينا أنا جالس عند القبر غلبتني عيناي فممت فراءيت كأن قبر ابى قد انفرج وكانه قاعد في قبره متوشحاً أكفانه عليه سحنة الموتى (١) قال فكأنى بكيت لما رأيته قال يا بنى ما أبطأ بك عنى قلت وإنك لتعلم بمجيئى؟ قال ماجئت مرة إلا علمتها وقد كنت تأتيني فأنس بك وأسر بك ويسر من حولى بدعائك قال فكنت آتية بعد ذلك كثيراً .

(حدثني) محمد حدثني يحيى بن بسطام حدثني عثمان بن سوادة الطفاوى قال وكانت أمه من العابدات وكان يقال لها راهبة قال لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت يا ذخرى

وذكرتني ومن عليه اعتمادي في حياتي وبعد موتي لاتخذاني عند الموت ولا توحشني في قبري قال فماتت فكنت آتيا في كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولاهل القبور فرأيتها ذات يوم في منامى فقلت لها يا أمه كيف أنت ؟ قالت أي بني ان للموت لكربة شديدة وإن بحمد الله لفي برزخ محمود نفترش فيه الريحان وتتوسد فيه السندس والاستبرق إلى يوم النشور فقلت لها ألك حاجة ؟ قالت نعم قلت وما هي ؟ قالت لاتدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك . يقال لي ياراهبة هذا ابنك قد أقبل فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات .

(حدثني) محمد بن عبد العزيز بن سليمان حدثنا بشر بن منصور قال لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال أنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن مسيئكم وقبل حسناتكم لا يزيد على هؤلاء الكلمات قال فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلي ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو قال فيينا أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءوني فقلت ما أتمم وما حاجتكم ؟ قالوا نحن أهل المقابر قلت ما حاجتكم ؟ قالوا إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك فقلت وما هي ؟ قالوا الدعوات التي كنت تدعو بها قال قلت فإني أعود لذلك قال فما تركتها بعد .

(حدثني) محمد بن أحمد بن سهل حدثني رشد بن سعد عن رجل عن يزيد بن أبي حبيب ان سليم بن عمير مر على مقبرة وهو حاقن قد غلبه البول فقال له بعض أصحابه لو نزلت إلى هذه المقابر فبليت في بعض حفرها فبكي ثم قال سبحان الله والله إنى لأستحي من الأموات كما أستحي من الأحياء ولولا أن الميت يشعر بذلك لما استحيا منه .

(وأبلغ) من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه . قال عبد الله بن المبارك حدثني ثور بن يزيد عن ابراهيم عن أبي أيوب قال تعرض أعمال الأحياء على الموتى فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا اللهم راجع به . وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الحواري قال حدثني محمد أخى قال دخل عباد بن عباد على ابراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال عظمي قال بم أعظك أصلحك الله بلغني ان أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى فانظر ما يعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عملك فبكي ابراهيم حتى اخضلت لحيته .

(قال) ابن أبي الدنيا وحدثني محمد بن الحسين حدثني خالد بن عمرو الاموى حدثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال كانت لي شرة سمجة فماتت أنى فأبليت وندمت على ما فرطت قال ثم زلت أيماناً فرأيت أبى في المنام فقال أى بنى ما كان أشد فرحى بك أعمالك تعرض علينا فذنبها

بأعمال الصالحين فلما كانت هذه المرأة استحييت لذلك حياءً شديداً فلا تخزني فيمن حولي من الاموات . قال فكنت أسمعه بعد ذلك يقول في دعائه في السحر وكان جاراً لي بالكوفة أسألك إنابة لارجعة فيها ولا حور . يامصلح الصالحين ويا هادي المضلين ويا أرحم الراحمين .

وهذا باب في آثار كثيرة عن الصحابة وكان بعض الانصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : اللهم إني أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة . كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله .

ويكنى في هذا تسمية المسلم عليهم زائراً ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائراً فإن للزور إن لم يعلم بزيارة من زاره لم يصح أن يقال زاره ، هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الامم ، وكذلك السلام عليهم أيضاً فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم محال وقد علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنال إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية .

وهذا السلام والحطاب والتداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلم الرد وإذا صلى الرجل قريباً منهم شاهدوه وعلوا صلاته وغطوه على ذلك .

(قال) يزيد بن هارون أخبرنا سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي ^(١) أن ابن ساس خرج في جنازة في يوم وعليه ثياب خفاف فأنهى إلى قبر قال فصلت ركعتين ثم اتكأت عليه فو الله إن قلبي ليقظان إذ سمعت صوتاً من القبر ، إليك عنى لا تؤذنى فإنكم قوم تعملون ولا تعلمون ونحن قوم نعلم ولا نعمل ولأن يكون لي مثل ركعتيك أحب إلى من كذا وكذا ، فهذا قد علم باتكاء الرجل على القبر وبصلاته .

(وقال) ابن أبي الدنيا حدثني الحسين بن علي العجلي حدثنا محمد بن الصلت حدثنا اسماعيل ابن عياش عن ثابت بن سليم حدثنا أبو قلابة قال أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت منزلاً فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ثم انقبت فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول قد أذيتني منذ الليلة ثم قال إنكم تعملون ولا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله أهل الدنيا خيراً أقرتهم منا السلام فإنه يدخل طينا من دعائهم نور أمثال الجمال .

(١) هو عبد الرحمن بن مل - تقريب .

و (حدثني) الحسين العجلي حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا مالك بن مغول عن منصور بن زيد بن وهب قال خرجت إلى الجبانة فجلست فيها فإذا رجل قد جاء إلى قبر فسواه ثم تحول إلى مجلس قال فقلت لمن هذا القبر؟ قال أخ لي فقلت أخ لك؟ فقال أخ لي في الله رأيته فيما يرى النائم فقلت فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال قد قلتها لأن أقدر على أن أقولها أحب إلى من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونني فإن فلانا قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلى من الدنيا وما فيها .

(حدثني) أبو بكر التيمي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث بن سعد حدثني حميد الطويل عن مطرف بن عبد الله الحرشي قال خرجنا إلى الربيع في زمانه فقلنا ندخل يوم الجمعة لشهودها وطريقنا على المقبرة قال فدخلنا فرأيت جنازة في المقبرة فقلت لو اغتتمت شهود هذه الجنازة فشهدتها قال فاعتزلت ناحية قريباً من قبر فركعت ركعتين خففتها لم أرض اتقائهما ونعمت فرأيت صاحب القبر يكلمني وقال ركعت ركعتين لم ترض اتقائهما؟ قلت قد كان ذلك، قال تعملون ولا تعلمون ولا نستطيع أن نعمل لأن أكون ركعت مثل ركعتيك أحب إلى من الدنيا محذافيرها فقلت من هاهنا؟ فقال كلهم مسلم وكلهم قد أصاب خيراً فقلت من هاهنا أفضل؟ فأشار إلى قبر فقلت في نفسي اللهم ربنا اخرجنا إلى فأكله قال فخرج من قبره فقي شاب فقلت أنت أفضل من هاهنا؟ قال قد قالوا ذلك قلت فبأى شيء نلت ذلك فوالله ما أرى لك ذلك السن فأقول نلت ذلك بطول الحج والعمرة والجهاد في سبيل الله والعمل قال قد ابتليت بالمصائب فرزقت الصبر عليها فبذلك فضلتهم .

وهذه المراتي وإن لم تصح بمجرد لائبات مثل ذلك فهي على كثرتها وأنها لا يخصصها إلا الله قد تواطأت على هذا المعنى وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرى رؤياكم قد تواطأت على أنها في العشر الاواخر يعني ليلة القدر فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شيء كان كتواطؤ روايتهم له وكتواطؤ رأيهم على استحسانه واستقباحه ومارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ومارأوه قبيحاً فهو عند الله قبيح على أنا لم نثبت هذا بمجرد الرؤيا بل بما ذكرناه من الحجج وغيرها .

وقد ثبت في الصحيح أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه (فروي) مسلم في صحيحه من حديث عبد الرحمن بن شماسة المهري قال حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت فبكي طويلاً وحول وجهه إلى الجدار فجعل ابته يقول ما يبكيك يا ابتاه أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكذا؟ فأقبل بوجهه فقال إن أفضل مانع شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإني كنت على أطباق ثلاث لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم منى ولا أحب إلى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار فلما جعل الله الإسلام في قلبي لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت ابسط يدك فلا يابعك فبسط يمينه قال قبضت يدي قال فقال مالك يا عمرو؟ قال قلت أردت أن اشترط قال تسترط ماذا؟ قلت أن يغفر لي قال أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ وما كان أحد أحب إلى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أجل في عيني منه وما كنت أطيق أن أملاً عيني منه لإجلاله ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملاً عيني منه ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالى فيها فإذا أنامت فلا تصحبنى نائحة ولا نار فإذا دفنتموني فسئرا على التراب سنا ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنجر جزور ويقسم لها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى فدل على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم .

وقد ذكر عن جماعة من السلف أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن قال عبد الحق يروى أن عبد الله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة . ومن رأى ذلك للمعلى بن عبد الرحمن وكان الامام أحمد ينكر ذلك أولاً حيث لم يبلغه فيه أثر ثم رجح عن ذلك .

(وقال الخلال) في الجامع ، كتاب القراءة عند القبور (اخبرنا) العباس بن محمد الدوري حدثنا يحيى بن معين حدثنا مبشر الحلبي حدثني عبد الرحمن بن العلاء بن الجلاج عن أبيه قال قال أبى إذا أنامت فضعنى فى اللحد وقل بسم الله وعلى سنة رسول الله وسن على التراب سنا واقرا عند رأسى بفاتحة البقرة فانى سمعت عبد الله بن عمر يقول ذلك (قال) عباس الدوري سألت أحمد بن حنبل قلت تحفظ فى القراءة على القبر شيئاً ؟ فقال لا وسألت يحيى ابن معين لحدثنى بهذا الحديث .

(قال الخلال) وأخبرنى الحسن بن أحمد الوراق حدثنى على بن موسى الحداد وكان صدوقاً قال كنت مع أحمد بن حنبل ومحمد بن قدامة الجوهري فى جنازة فلما دفن الميت جلس رجل ضريب يقرأ عند القبر فقال له أحمد يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لاحمد بن حنبل يا أبا عبد الله ما تقول فى مبشر الحلبي ؟ قال ثقة قال كتبت عنه شيئاً ، قال نعم فأخبرنى مبشر عن عبد الرحمن بن العلاء بن الجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك فقال له أحمد فأرجع وقل للرجل يقرأ .

(وقال) الحسن بن الصباح الزعفراني سألت الشافعي عن القراءة عند القبر فقال لا بأس بها .

(وذكر الحلال) عن الشعبي قال كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرءون عنده القرآن . قال وأخبرني أبو يحيى الناقد قال سمعت الحسن بن الجروي يقول مررت على قبر أخت لي فقرأت عندها تبارك لما يذكر فيها فجاءني رجل فقال إني رأيت أختك في المنام تقول جزى الله أبا علي خيراً فقد انتفعت بما قرأ (أخبرني) الحسن بن الهيثم قال سمعت أبا بكر بن الاطروش ابن بنت أبي نصر بن التمار يقول كان رجل يجيء إلى قبر أمه يوم الجمعة فيقرأ سورة يس فجاء في بعض أيامه فقرأ سورة يس ثم قال اللهم إن كنت قسمت لهذه السورة ثواباً فاجعله في أهل هذه المقابر فلما كان يوم الجمعة التي تليها جاءت امرأة فقالت أنت فلان ابن فلانة ؟ قال نعم قالت إن بنتالي ماتت فرأيتها في النوم جالسة على شفير قبرها فقلت ما أجلسك هاهنا ؟ فقالت إن فلان ابن فلانة جاء إلى قبر أمه فقرأ سورة يس وجعل ثوابها لأهل المقابر فأصابنا من روح ذلك أو غفر لنا أو نحو ذلك .

(وفي النسائي) وغيره من حديث معقل بن يسار المزني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال اقرأوا ديس ، عند موتاكم . وهذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته مثل قوله : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله . ويحتمل أن يراد به القراءة عند القبر ، والأول أظهر لوجوه .

(الأول) أنه نظير قوله : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله .

(الثاني) انتفاع المحتضر بهذه السورة لما فيها من التوحيد والمعاد والبشرى بالجنة لأهل التوحيد وغبطة من مات عليه بقوله (يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المسكرمين) فتستبشر الروح بذلك فتحب لقاء الله فيحب الله لقاءها فإن هذه السورة قلب القرآن ولها خاصة عجيبة في قراءتها عند المحتضر .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي قال كنا عند شيخنا أبي الوقت عبد الأول وهو في السياق وكان آخر عهدنا به أنه نظر إلى السماء وضحك وقال (يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المسكرمين) وقضى .

(الثالث) ان هذا عمل الناس وعاداتهم قديماً وحديثاً يقرأون ديس ، عند المحتضر .

(الرابع) ان الصحابة لو فهموا من قوله صلى الله عليه وآله وسلم اقرأوا ديس ، عند موتاكم ، قراءتها عند القبر ؛ لما أدخلوا به وكان ذلك أمراً معتاداً مشهوراً بينهم .

(الخامس) ان انتفاعه باستماعها وحضور قلبه وذهنه عند قراءتها في آخر عهده بالدنيا هو المقصود وأما قراءتها عند قبره فانه لا يثاب على ذلك لأن الثواب إما بالقراءة أو بالاستماع وهو عمل وقد انتقطع من الميت .

وقد ترجم الحافظ أبو محمد عبد الحق الأشيبلي على هذا فقال ذكر ماجاء ان الموق يسألون عن الاحياء ويعرفون أقوالهم وأعمالهم ثم قال (ذكر) أبو عمر بن عبد البر من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما من رجل يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام . ويروى هذا من حديث أبي هريرة مرفوعا قال فإن لم يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام .

(قال) ويروى من حديث عائشة رضی الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما من رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم .

واحتج الحافظ أبو محمد في هذا الباب بما رواه أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من أحد يسلم على إلأرد الله على روحى حتى أورد عليه السلام . قال وقال سليمان بن نعيم رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النوم فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقهم منهم ؟ قال نعم وأرد عليهم ، قال وكان صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم أن يقولوا إذا دخلوا المقابر السلام عليكم أهل الديار الحديث . قال وهذا يدل على أن الميت يعرف سلام من يسلم عليه ودعاء من يدعو له .

(قال أبو محمد) ويذكر عن الفضل بن الموفق قال كنت آتى قبر أبي المرة بعد المرة فأكثر من ذلك فشهدت يوماً جنازة في المقبرة التي دفن فيها فتمجلت لحاجتى ولم آتته فلما كان من الليل رأيت في المنام فقال لى يابنى لم لا تأتيني ؟ قلت له يا أبت وإنك لتعلم بى إذا أتيتك ؟ قال أى والله يابنى لأزال أطلع عليك حين تطلع من القنطرة حتى تصل إلى وتقعده عندى ثم تقوم فلا أزال أنظر إليك حتى تجوز القنطرة .

قال ابن أبي الدنيا : حدثنى إبراهيم بن بشار الكوفي قال حدثنى الفضل بن الموفق فذكر القصة .

وصح عن عمرو بن دينار أنه قال ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وأنهم ليغسلونه ويكفنونونه وأنه لينظر إليهم .

وصح عن مجاهد أنه قال إن الرجل ليبيشر في قبره بصلاح ولده من بعده .

فصل

وبدل على هذا أيضاً ما جرى عليه عمل الناس قديماً وإلى الآن من تلقين الميت في قبره ولولا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة وكان عبثاً وقد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه واحتج عليه بالعمل .

ويروى فيه حديث ضعيف ذكره الطبراني في معجمه من حديث أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعداً ثم ليقل يا فلان ابن فلانة يقول أرشدنا رحمة الله ولكم لا تسمعون ، فيقول أذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنتك رضيت بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إماماً ، فان منكرأ ونكيرأ يتأخر كل واحد منهما ويقول انطلق بنا ما يقعدنا عندهذا وقد لقن حجته ويكون الله ورسوله حجيجيه دونهما فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف أمه ؟ قال ينسبه إلى أمه حواء .

فهذا الحديث وإن لم يثبت فاتصال العمل به في سائر الأعمار والأعصار من غير انكار كاف في العمل به وما أجرى الله سبحانه العادة قط بأن أمة طبقت مشارق الأرض ومغاربها وهي أكل الأم عقولا وأوفرها معارف تطبق على مخاطبة من لا يسمع ولا يعقل وتستحسن ذلك لا ينكره منها منكر بل سنة الأول للآخر ويقتدى فيه الآخر بالأول فلولا ان المخاطب يسمع لمكان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والحشب والحجر والمعدوم وهذا وان استحسنه واحد فالعلماء قاطبة على استبقاحه واستهجانه .

وقد روى أبو داود في سننه بإسناد لا بأس به أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حضر جنازة رجل فلما دفن قال سلوا لأخيكم التثبيت فإنه الآن يسأل . فأخبر أنه يسأل حينئذ وإذا كان يسأل فإنه يسمع التلقين .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا ولوا منصرفين . وذكر عبد الحق عن بعض الصالحين قال مات أخ لي فرأيت في النوم فقلت يا أخي ما كان حالك حين وضعت في قبرك ؟ قال أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعا لي هلكت .

وقال شبيب بن شيبه أوصتني أمي عند موتها فقالت يا بني إذا دفنتي فقم عند قبري وقل يا أم شبيب قولي لا إله إلا الله فلما دفنتها قت عند قبرها فقلت يا أم شبيب قولي لا إله إلا

الله ثم انصرفت فلما كان من الليل رأيتها في النوم فقالت يا بني كدت أهلك لولا أن تداركني
لإله إلا الله فقد حفظت وصيتي يا بني .

وذكر ابن أبي الدنيا عن تماضر بنت سهل امرأة أيوب بن عيينة قالت رأيت سفيان بن عيينة
في النوم فقال جزى الله أخى أيوب عنى خيراً فإنه يزورنى كثيراً وقد كان عندى اليوم فقال
أيوب نعم حضرت الجبان اليوم فذهبت إلى قبره .

وصح عن حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب أن الصعب بن جثامة وعوف
ابن مالك كانا متآخيين قال صعّب لعوف أى أخى أينا مات قبل صاحبه فليترامأ له قال أو يكون
ذلك ؟ قال نعم فأت صعّب فرآه عوف فيما يرى النائم كأنه قد أتاه قال قلت أى أخى قال
نعم قلت ما فعل بكم ؟ قال غفر لنا بعد المصائب قال ورأيت لمعة سوداء في عنقه قلت أى
أخى ما هذا ؟ قال عشرة دنائير استسلفتها من فلان اليهودى فهن في قرني فأعطوه إياها ، واعلم
أى أخى أنه لم يحدث في أهلى حدث بعد موتى إلا قد لحق بي خبره حتى هرة لنا ماتت منذ
أيام ، واعلم أن بنتى تموت إلى ستة أيام فاستوصوا بها معروفاً فلما أصبحت قلت إن في هذا لمعلماً
فأتيت أهله فقالوا مرحباً بعوف أهكذا تصنعون بركة إخوانكم لم تقربنا منذ مات صعّب قال
فاعتلت بما يعتل به الناس فنظرت إلى القرن فأنزلته فانتثلت ما فيه فوجدت الصرة التى فيها
الدنائير فبعثت بها إلى اليهودى فقلت هل كان لك على صعّب شيء ؟ قال رحم الله صعّباً كان
من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هى له قلت لتخبرنى قال نعم أسلفته
عشرة دنائير فبذتها إليه قال هى والله بأعيانها قال قلت هذه واحدة .

قال فقلت هل حدث فيكم حدث بعد موت صعّب قالوا نعم حدث فينا كذا حدث
قال قلت اذكروا قالوا نعم هرة ماتت منذ أيام فقلت هاتان اثنتان .

قلت أين أبنه أخى ؟ قالوا تلعب فأتيت بها فمسستها فإذا هى محمومة فقلت استوصوا بها معروفاً
فأتت فى ستة أيام .

وهذا من فقه عوف رحمه الله وكان من الصحابة حيث نفذ وصية الصعب بن جثامة بعد
موته وعلم صحة قوله بالقرائن التى أخبره بها من أن الدنائير عشرة وهى فى القرن ثم سأل
اليهودى فطابق قوله لما فى الرؤيا فجزم عوف بصحة الامر فأعطى اليهودى الدنائير وهذا فقه
إنما يليق بأفقه الناس وأعلمهم وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولعل أكثر
التأخرين ينكر ذلك ويقول كيف جاز لعوف أن ينقل الدنائير من تركه صعّب وهى لا يتامه
وورثته إلى يهودى بمنام .

ونظير هذا من الفقه الذي خصهم الله به دون الناس قصة ثابت بن قيس بن شماس وقد ذكرها أبو عمر بن عبد البر وغيره (قال) أبو عمر أخبرنا عبد الوارث بن سفيان حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا أبو الزباع روح بن الفرغ حدثنا سعيد بن عفير وعبد العزيز بن يحيى المدني حدثنا مالك بن أنس عن ابن شهاب عن إسماعيل بن محمد بن ثابت الأنصاري عن ثابت ابن قيس بن شماس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؟ قال مالك فقتل ثابت بن قيس يوم البمامة شهيداً .

(قال) أبو عمرو روى هشام بن عمار عن صدقة بن خالد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال حدثني عطاء الخراساني قال حدثتني ابنة ثابت بن قيس بن شماس قالت لما نزلت (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) دخل أبو هابية وأغلق عليه بابه ففقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأرسل إليه يسأله ما خبره ؟ قال أنا رجل شديد الصوت أخاف أن يكون قد حبط عملي قال لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير قال ثم أنزل الله (إن الله لا يحب كل مختال فخور) فأغلق عليه بابه وطفق يبكي ففقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليه فأخبره فقال يا رسول الله إنني أحب الجمال وأحب أن أسود قومي فقال لست منهم بل تعيش حميدا وتقتل شهيداً وتدخل الجنة . قالت فلما كان يوم البمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلة فلما التقوا وانكشفوا قال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم حفر كل واحد له حفرة فثبنا وقاتلنا حتى قتلا وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة فر به رجل من المسلمين فأخذها فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت في منامه فقال له أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه إنني لما قتلت أمس مرني رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزله في أقصى الناس وعند خباته فرس يستن في طول له وقد كفا على الدرع برمة وفوق البرمة رجل فأت خالداً فره أن يبعث إلى درعي فياخذها وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعني أبا بكر الصديق فقل له أن على من الدين كذا وكذا وفلان من رقيق عتيق وفلان فأتى الرجل خالداً فأخبره فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدث أبا بكر بروياه فأجاز وصيته ، قال ولا نعلم أحداً أجزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رحمه الله ، انتهى ما ذكره أبو عمرو .

فقد اتفق خالد وأبو بكر الصديق والصحابة معه على العمل بهذه الرقيا وتنفيذ الوصية بها وانتزاع الدرع من هي في يده وهذا محض الفقه .

وإذا كان أبو حذيفة وأحمد ومالك يقبلون قول المدعي من الزوجين ما يصلح له دون الآخر بقرينة صدقة فهذا أولى .

وكذلك أبو حنيفة يقبل قول المدعى للمحاطب بوجود الآجر إلى جانبه وبمعاقد القمط .
وقد شرع الله حد المرأة بأيمان الزوج وقرينة تكون لها فإن ذلك من أظهر الأدلة على
صدق الزوج .

وأبلغ من ذلك قتل المقسم عليه في القسامة بأيمان المدعين مع القرينة الظاهرة من اللوث .
وقد شرع الله سبحانه قبول قول المدعين لتركة ميتهم إذا مات في السفر وأوصى إلى
رجلين من غير المسلمين فاطلع الورثة على خيانة الوصيين بأنهما يحلفان بالله ويستحقانه وتكون
أيمانها أولى من أيمان الوصيين وهذا أنزله الله سبحانه في آخر الأمر في سورة المائدة وهي
من آخر القرآن نزولاً ولم ينسخها شيء وعمل بها الصحابة بعده .

وهذا دليل على أنه يقضى في الأموال باللوث وإذا كان الدم يباح باللوث في القسامة فلأن
يقضى باللوث وهو القرائن الظاهرة في الأموال أولى وأحرى .

وعلى هذا عمل ولاية العدل في استخراج السرقات من السراق حتى أن كثيراً ممن ينكر ذلك
عليهم يستعين بهم إذا سرق ماله .

وقد حكى الله سبحانه عن الشاهد الذي شهد بين يوسف الصديق وامرأة العزيز أنه حكم
بالقرينة على صدق يوسف وكذب المرأة ولم ينكر الله سبحانه عليه ذلك بل حكاه
عنه تقريراً له .

وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن نبي الله سليمان بن داود أنه حكم بين المرأتين اللتين
ادعتا الولد للصغرى بالقرينة التي ظهرت له لما قال اتوني بالسكين أشق الولد بينكما فقالت
الكبرى نعم رضيت بذلك للتسلي بفقد ابن صاحبها وقالت الأخرى لا تفعل هو ابنها فقضى به
لها للشفقة والرحمة التي قامت بقلبها حتى سمحت به للأخرى ويبقى حياً وتظن إليه .

وهذا من أحسن الأحكام وأعدلها وشريعة الإسلام تقرر مثل هذا وتشهد بصحته وهل
الحكم بالبقايفة والحاق النسب بها للاعتماد على قرائن الشبه مع اشتباها وخضائها غالباً .

المقصود أن القرائن التي قامت في رؤيا عوف بن مالك وقصة ثابت بن قيس لا تنصرف عن
كثير من هذه القرائن بل هي أقوى من مجرد وجود الآجر ومعاقد القمط وصلاحيه المتاع
للمدعى دون الآخر في مسألة الزوجين والصانعين وهذا ظاهر لاخفاء به وفطر الناس وعقولهم
تشهد بصحته وبالله التوفيق .

والمقصود جواب السائل وأن الميث إذا عرف مثل هذه الجزئيات وتفصيلها فمرفته
بزيارة الحى له وسلامه عليه ودعائه له أولى وأحرى .

المسألة الثانية

وهي أن أرواح الموتى هل تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا ؟

وهي أيضاً مسألة شريفة كبيرة القدر وجوابها أن الأرواح قسمان : أرواح معذبة وأرواح منعمة . فالمعذبة في شغل بما هي فيه من العذاب عن التزاور والتلاقي . والأرواح المنعمة المرسله غير المحبوسة تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا فتكون كل روح مع رفيقها الذي هو على مثل عملها وروح نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الرفيق الأعلى قال الله تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) وهذه المعية ثابتة في الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار الجزاء والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاثة .

(روى) جرير عن منصور عن أبي الضحى عن مسروق قال : قال أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا فإذا مت رفعت فوقنا فلم نترك فأنزله الله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

(وقال الشعبي) جاء رجل من الانصار وهو يبكي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال ما يبكيك يا فلان ؟ فقال يا نبي الله والله الذي لا إله إلا هو لأنت أحب إلى من أهلي ومالي والله الذي لا إله إلا هو لأنت أحب إلى من نفسي ، وأنا أذكرك أنا وأهلي فأخذني كذا حتى أراك فذكرت موتك وموتى فعرفت أني لن أجامعك إلا في الدنيا وإنك ترفع بين النبيين وعرفت أني إن دخلت الجنة كنت في منزل أدنى من منزلك ، فلم يرد النبي صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً فأنزله الله تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) إلى قوله (وكفى بالله علماً) وقال تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) أي ادخلي جنتهم وكوفي معهم وهذا يقال للروح عند الموت .

(وفي قصة الاسراء) من حديث عبد الله بن مسعود قال لما أسرى النبي صلى الله عليه وسلم لقي إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فتذاكروا الساعة فبدأوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم ثم بموسى فلم يكن عنده منها علم حتى أجمعوا الحديث إلى عيسى فقال عيسى عهد الله الي فيما دون وجبتها فذكر خروج الدجال قال فأهبط

فأقبله ويرجع الناس^(١١) إلى بلادهم فتستقبلهم بأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فلا يبرون بماء إلا شربوه ولا يعمرون بشيء إلا أفسدوه فيجأرون إلى فادعو^(١٢) الله فيميتهم فتجأر الأرض إلى الله من ريمهم ويجأرون إلى فادعو ويرسل الله السماء بماء فيحمل أجسامهم فيقذفها في البحر ثم يفسف الجبال ويمد الأرض مد الأديم فعهد الله إلى إذا كان كذلك فإن الساعة من الناس كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجؤم بولادتها ليلاً أو نهاراً ذكره الحاكم والبيهقي وغيرهما .

وهذا نص في تذاكر الأرواح العلم .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وأنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل وهذا يدل على تلاميهم من ثلاثة أوجه (أحدها) أنهم عند ربهم يرزقون وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون (الثاني) أنهم إنما استبشروا بأخوانهم لقدومهم عليهم ولقاتهم لهم (الثالث) ان لفظ يستبشرون يفيد في اللغة أنهم يبشر بعضهم بعضاً مثل يتباشرون .

وقد تواترت المرأى بذلك (فنها) ما ذكره صالح بن بشير^(١٣) قال رأيت عطاء السلمي في النوم بعد موته فقلت له يرحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا فقال أما والله لقد أعقبني ذلك فرحاً طويلاً وسروراً دائماً فقلت في أي الدرجات أنت ؟ قال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

(وقال) عبد الله بن المبارك رأيت صفيان الثوري في النوم فقلت له ما فعل الله بك قال لقيت محمداً وحزبه .

(وقال) صخر بن راشد رأيت عبد الله بن المبارك في النوم بعد موته فقلت أليس قد مت ؟ قال بلى قلت فما صنع الله بك ؟ قال غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثوري ؟ قال بئح بئح ذلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

(وذكر) ابن أبي الدنيا^(١٤) من حديث حماد بن زيد عن هشام بن حسان عن يقظة بنت

(١١) من المستدرك .

(١٢) هكذا في المستدرك ووقع في الأصل إلى الله فيدعو .

(١٣) هو أبو بشر المري البصري مات سنة (١٧٦) .

(١٤) هو عبد الله بن محمد مات سنة (٢٨١) .

راشد قالت كان مروان المحلبي لى جاراً وكان قاضياً مجتهداً قالت فات فوجدت عليه وجداً شديداً قالت فرأيته فيما يرى النائم قلت أبا عبدالله ما صنع بك ربك ؟ قال أدخلني الجنة قلت ثم ماذا ؟ قال ثم رفعت إلى أصحاب البين قلت ثم ماذا ؟ قال ثم رفعت إلى المقربين قلت فمن رأيت من إخوانك ؟ قال رأيت الحسن وابن سيرين وميمون بن سياه . قال حماد قال هشام بن حسان لحدثني أم عبدالله وكانت من خيار نساء أهل البصرة قالت رأيت فيما يرى النائم كأنى دخلت داراً حسنة ثم دخلت بستاناً فذكرت من حسنه ماشاء الله فإذا أنا فيه برجل متكئ على سرير من ذهب وحوله الوصفاء بأيديهم إلا كواكب قالت فإني لمتعجبة من حسن ما أرى إذ قيل هذا مروان المحلبي أقبل فوثب فاستوى جالساً على سريره قالت واستيقظت من منامى فإذا جنازة مروان قد مر بها على بابي تلك الساعة .

وقد جاءت سنة صريحة بتلاقي الأرواح وتعارفها (قال) ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن عبدالله بن بزيع أخبرني فضيل بن سليمان النيرى حدثني يحيى بن عبدالرحمن بن أبي لبيبة عن جده قال لما مات بشر بن البراء بن معرور وجدت عليه أم بشر وجداً شديداً فقالت يا رسول الله إنه لا يزال الهالك يهلك من بنى سلة فهل تتعارف الموتى فأرسل إلى بشر بالسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نعم والذي نفسى بيده يا أم بشر انهم ليتعارفون كما تتعارف الطير في رموس الشجر وكان لاهلك هالك من بنى سلة للإجاهته أم بشر فقالت يا فلان عليك السلام فيقول وعليك فتقول اقرأ على بشر السلام .

(وذكر) ابن أبي الدنيا من حديث سفیان عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير قال أهل القبور يتكفون الأخبار فإذا أتاهم الميت قالوا ما فعل فلان ؟ فيقول صالح . ما فعل فلان ؟ يقول صالح . ما فعل فلان ؟ فيقول ألم يأتكم أو ما قدم عليكم ؟ فيقولون لا فيقول إن الله وأنا إليه راجعون سلك به غير سبيلنا .

(وقال) صالح المري بلغني أن الأرواح تتلاقي عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم كيف كان مأواك وفي أى الجسد كنت فى طيب أم خبيث ؟ ثم بكى حتى غلبه البكاء .

(وقال) عبيد بن عمير إذا مات الميت تلقته الأرواح يستخبرونه كما يستخبر الركب ما فعل فلان ؟ ما فعل فلان ؟ فإذا قال توفى ولم يأتهم قالوا ذهب به إلى أمه الهاوية (وقال) سعيد بن المسيب إذا مات الرجل استقله والده كما يستقبل الغائب .

(وقال) عبيد بن عمير أيضاً لو أنى آيس من لقاء من مات من أهلى لألفانى قد مت كذا .

(وذكر) معاوية بن يحيى عن عبد الله بن سلة أن أبا رهم المسمى حدثه أن أبا أيوب الأنصارى حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا فيقولون انظروا أحاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان ؟ وماذا فعلت فلانة ؟ وهل تزوجت فلانة ؟ فإذا سألوه عن رجل مات قبله قال إنه قد مات فبلى قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الام وبئست المريبة .

وقد تقدم حديث يحيى بن بسطام حدثني مسمع بن عاصم قال رأيت عاصبا الجحدري في منامي بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مات ؟ قال بلى قلت وأين أنت ؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني فنتلقى أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيئات بليت الأجسام وإنما تتلقى الأرواح .

المسألة الثالثة

وهي هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا ؟

شواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصها إلا الله تعالى والحس والواقع من أعدل الشهود بها فلتلقى أرواح الأحياء والأموات كما تلتقى أرواح الأحياء وقد قال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

(قال) أبو عبد الله بن منده حدثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن حسين الحراني حدثنا جدي أحمد بن شعيب حدثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقى في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها .

(وقال) ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا عند الله بن سليمان حدثنا الحسين حدثنا عامر حدثنا أسباط عن السدي وفي قوله تعالى (والتي لم تمت في منامها) قال يتوفاها في منامها فيلتقى روح الحى وروح الميت فيبتدأ كراخا ويتعارفان قال فترجع روح الحى إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس .

وهذا أحد القولين في الآية وهو أن المسككة من توفيت وفاة الموت أولا والمرسلة من

توفيت وفاة النوم والمعنى على هذا القول أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى .

والقول الثاني في الآية أن المسككة والمرسلة في الآية كلاهما توفى وفاة النوم فن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله واختار شيخ الإسلام هذا القول وقال عليه يدل القرآن والسنة قال فانه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الانفس التي توفاهها وفاة النوم وأما التي توفاهها حين موتها فتلك لم يصفها بامساك ولا بإرسال بل هي قسم ثالث .

والذي يترجح هو القول الأول لانه سبحانه أخبر بوفاتين وفاة كبرى وهي وفاة الموت ووفاة صغرى وهي وفاة النوم وقسم الأرواح قسمين قسم قضى عليها بالموت فأمسكها عنده وهي التي توفاهها وفاة الموت وقسمها لهابقية أجل فردها إلى جسدها إلى استكمال أجلها وجعل سبحانه الامساك والارسال حكيمين للوفاتين المذكورتين أولا فهذه ممسكة وهذه مرسلة وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاهها في منامها فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين وفاة موت ووفاة نوم لم يقل (والتي لم تمت في منامها) فإنها من حين قبضت ماتت وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك (فيمسك التي قضى عليها الموت) .

ولمن نصر هذا القول أن يقول قوله تعالى (فيمسك التي قضى عليها الموت) بعد أن توفاهها وفاة النوم فهو سبحانه توفاهها أولا وفاة نوم ثم قضى عليها الموت بعد ذلك والتحقيق أن الآيه تتناول النوعين فإنه سبحانه ذكر وفاتين وفاة نوم ووفاة موت وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات في النوم أو في اليقظة ويرسل نفس من لم يموت فقله : (يتوفى الانفس حين موتها) يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام .

وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والاموات أن الحى يرى الميت في منامه فيستخبره ويخبره الميت بما لا يعلم الحى فيصادف خبره كما أخبر في الماضي والمستقبل وربما أخبره بما لم يدره الميت في مكان لم يعلم به سواه وربما أخبره بدين عليه وذكر له شواهد وأدلته .

وأبلغ من هذا أنه يخبر بما عمله من عمل لم يطلع عليه أحد من العالمين وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تأتينا إلى وقت كذا وكذا فيكون كما أخبر وربما أخبره عن أمور يقطع الحى أنه لم يكن يعرفها غيره ، وقد ذكرنا قصة الصعب بن جثامة وقوله لعوف بن مالك ما قال له ، وذكرونا قصة ثابت بن قيس بن شماس وأخباره لمن رآه بدرعه وما عليه من الدين .

وقصة صدقة بن سليمان الجعفرى وأخبار ابنه له بما عمل من بعده ، وقصة شبيب بن شيبة
وقول أمه له بعد الموت جزاك الله خيراً حيث لقنها لا إله إلا الله ، وقصة الفضل بن الموفق
مع ابنه وإخباره إياه بعلمه بزيارته .

وقال سعيد بن المسيب التقى عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي فقال أحدهما للآخر إن
مت قبلى فالقنى فأخبرنى ما لقيت من ربك وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك فقال الآخر
وهل تلتقى الأموات والأحياء ؟ قال نعم أرواحهم فى الجنة تذهب حيث تشاء قال فأت
فلان فلقية فى المنام فقال توكل وأبشر فلم أر مثل التوكل قط وقال العباس بن عبد المطلب
كنت أشتهى أن أرى عمر فى المنام فما رأيته إلا عند قرب الحول فرأيتهم يمسح العرق عن
جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى إن كاد عرشى ليهد لولا أن لقيت ربه وفارحياً .

ولما حضرت شريح بن عابد الثمالى الوفاة دخل عليه غضيف بن الحارث وهو يجود بنفسه
فقال يا أبا الحجاج إن قدرت على أن تأتينا بعد الموت فتخبرنا بما ترى فافعل قال وكانت
كلمة مقبولة فى أهل الفقه قال فكنت زماناً لا يراه ثم رآه فى منامه فقال له أليس قد مت ؟
قال بلى قال فكيف حالك ؟ قال تجاوز ربنا عنا الذنوب فلم يهلك منا إلا الاحراض قلت
وما الاحراض ؟ قال الذين يشار إليهم بالأصابع فى الشيء .

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز رأيت أنى فى النوم بعد موته كأنه فى حديقة فدفع
إلى تفاحات فأولتهن الولد فقلت أى الأعمال وجدت أفضل ؟ فقال الاستغفار أى بنى .

ورأى مسلمة بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز بعد موته فقال يا أمير المؤمنين ليت
شعرى إلى أى الحالات صرت بعد الموت ؟ قال يا مسلمة هذا أوان فراغى والله ما استرحت
إلا الآن قال قلت فأين أنت يا أمير المؤمنين قال مع أئمة الهدى فى جنة عدن .

(قال) صالح البراد رأيت زرارَةَ بن أوفى بعد موته فقلت رحمك الله ماذا قيل لك
وماذا قلت ؟ فأعرض عني قلت فما صنع الله بك ؟ قال تفضل على مجوده وكرمه قلت
فأبو العلاء بن يزيد أخو مطرف ؟ قال ذاك فى الدرجات العلى قلت فأى الأعمال أبلغ فيها دننكم ؟
قال التوكل وقصر الأمل .

(وقال) مالك بن دينار رأيت مسلم بن يسار بعد موته فسلمت عليه فلم يرد على السلام
فقلت ما يمنعك أن ترد السلام ؟ قال أنا ميت فكيف أرد عليك السلام فقلت له ماذا لقيت
بعد الموت ؟ قال لقيت والله أهرالا وزلازل عظيماً شديداً قال قلت له فما كان بعد ذلك ؟
قال وماتراه يكون من الكريم . قبل منا الحسنات ، وعفا لنا عن السيئات . وضمن عنا
التبعات . قال ثم شبق مالك شبقاً خيراً مغشياً عليه ، قال فلبت بعد ذلك أياماً مريضاً ،
ثم انصدع قلبه فأت .

(وقال) سهيل أخو حزم رأيت مالك بن دينار بعد موته فقلت يا أبا يحيى ليت شعري ماذا قدمت به على الله قال قدمت بذنوب كثيرة محابها عنى حسن الظن بالله عز وجل .
(ولما مات) رجاء بن حيوة رأته امرأة عابدة فقالت يا أبا المقدم إلام صرتم؟ قال لى خير ولكن فرعنا بعدكم فرعة ظننا أن القيامة قد قامت قالت قلت ومم ذلك؟ قال دخل الجراح وأصحابه الجنة بأفئالهم حتى ازدحموا على بابها .

(وقال) جميل بن مرة كان مورق العجلى لى أخوا وصديقا فقلت له ذات يوم أينما مات قبل صاحبه فليأت صاحبه فليخبره بالذى صار إليه قال فمات مورق فرأت أهلى فى منامها كأنه أنا أنا كما كان يأتى ففرع الباب كما كان يفرع قالت فقامت وفتحت له كما كنت أفتح وقلت أدخل يا أبا المعتمر لى باب أخيك فقال كيف أدخل وقد ذقت الموت؛ إنما جئت لأعلم جميلا بما صنع الله بى أعلمه أنه قد جعلنى فى المقربين .

(ولما مات) محمد بن سيرين حزن عليه بعض أصحابه حزناً شديداً فرآه فى المنام فى حال حسنة فقال يا أخى قد أراك فى حال يسرنى فما صنع الحسن؟ قال رفع فوقى بسبعين درجة ، قلت ولم ذاك وقد كنا نرى أنك أفضل منه؟ قال ذاك بطول حزنه .

(وقال) ابن عيينة رأيت سفيان الثورى فى النوم فقلت أوصنى قال أقل من معرفة الناس .

(وقال) عمار بن سيف رأيت الحسن بن صالح فى منامى فقلت قد كنت متمنياً للقائك فماذا عندك فتخبرنا به فقال أبشر فإنى لم أر مثل حسن الظن بالله شيئاً .

(ولما مات) ضيغم العابد رآه بعض أصحابه فى المنام فقال أما صليت على؟ قال فذكرت علة كانت فقال أما لو كنت على نجت رأسك .

(ولما مات) رابعة رأتها امرأة من أصحابها وعليها حلة استبرق وخمار من سندس وكانت كفتت فى جبة وخمار من صوف فقالت لها ما فعلت الجبة التى كفتت فيها وخمار الصوف؟ قالت والله أنه نزع عنى وأبدلت به هذا الذى ترين على وطويت أكفانى وختم عليها ورفعت فى عليين ليسكل لى ثوابها يوم القيامة ، قالت فقلت لها لهذا كنت تعملين أيام الدنيا؟ فقالت وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله لأولياته ففعلت لها فما فعلت عبدة بنفسي أبى كلاب؟ فقالت هيات هيات سبقتنا والله إلى الدرجات العلى ، قالت قلت وبم وقد كنت عند الناس أعيد منها؟ فقالت أنها لم تكن تبلى على أى حال أصبحت من الدنيا أو أمنت فقلت فما فعل أبو مالك تعنى ضيغما فقالت يزور الله تبارك وتعالى متى شاء ، قالت :

قلت فما فعل بشر بن منصور؟ قالت يخ بخ أعطى والله فوق ما كان يأمل . قالت قلت مريني بأمر أتقرب به إلى الله تعالى قالت عليك بكثرة ذكر الله فيوشك أن تغتبطى بذلك في قبرك .
(ولما مات) عبد العزيز بن سليمان العابد رآه بعض أصحابه وعليه ثياب خضر وعلى رأسه أكليل من لؤلؤ فقال كيف كنت بعدنا وكيف وجدت طعم الموت وكيف رأيت الأمر هناك؟ قال أما الموت فلا تسأل عن شدة كربه وغمه إلا أن رحمة الله وارت عنا كل عيب وما تلقانا إلا بفضله .

(وقال) صالح بن بشر لما مات عطاء السلمي رأيت في منامى فقلت يا أبا محمد ألسنت في زمرة الموتى؟ قال بلى . قلت فإذا صرت إليه بعد الموت؟ قال صرت والله إلى خير كثير ورب غفور شكور . قال قلت أما والله لقد كنت طويل الحزن في دار الدنيا ، فتبسّم وقال والله لقد أعقبتني ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً ، قلت ففي أي الدرجات أنت؟ قال مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقا .

(ولما مات) عاصم الجحدري رآه بعض أهله في المنام فقال أليس قد مت؟ قال بلى قال فأين أنت؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصيحتها إلى بكر بن عبد الله المازني فتتلقى أخباركم ، قال قلت أجسادكم أم أرواحكم؟ قال هيئات بليت الأجساد وإنما تتلاقى الأرواح .

(وروى) الفضيل بن عياض بعد موته فقال لم أر للعبد خيراً من ربه .
(وكان مرة الهمداني) قد سجد حتى أكل التراب جبهته فلما مات رآه رجل من أهله في منامه وكان موضع سجوده كهية الكوكب النري فقال ما هذا الأثر الذي أرى بوجهك؟ قال كسى موضع السجود بأكل التراب له نوراً ، قال قلت فما منزلتك في الآخرة؟ قال خير منزل ، دار لا ينتقل عنها أهلها ولا يموتون .

(وقال) أبو يعقوب القاري رأيت في منامى رجلاً آدمياً طويلاً والناس يتبعونه قلت من هذا؟ قالوا أويس القرني فاتبعته فقلت أوصني يرحمك الله فكلح في وجهي فقلت مسترشد فأرشدني رحمك الله فأقبل على فقال ابتغ رحمة الله عند محبته ، واحذر نعمته عند معصيته ، ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ، ثم ولى وتركتني .

(وقال) ابن السماك رأيت مسعراً في النوم فقلت أي الأعمال وجدت أفضل؟ قال مجالس الذكر (وقال الأجلح) رأيت سلبه بن كهيل في النوم فقلت أي الأعمال وجدت أفضل؟ قال قيام الليل (وقال) أبو بكر بن أبي مريم رأيت وفاء بن بشر بعد موته فقلت ما فعلت

يا واه ؟ قال نجوت بعد كل جهد قلت فأى الأعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله عز وجل .

(وقال) الليث بن سعد عن موسى بن وردان أنه رأى عبد الله بن أبي حبيبة بعد موته فقال عرضت على حسناق وسيثاق فرأيت في حسناق حبات رمان التقططن فأكلهن ، ورأيت في سيثاق خيطى حرير كانا في قلنسوتي .

(وقال) سنيد بن داود حدثني ابن أخى جوريرة بن أسماء قال كنا بعبادان فقمنا علينا شاب من أهل الكوفة متعب فأت بها في يوم شديد الحر فقلت تبرد ثم تأخذ في جهازه فنمت فرأيت كأنى في المقابر فإذا بقبة جوهر تتلأأ حسناً وأنا أنظر إليها إذ انفلقت فأشرفت منها جارية ما رأيت مثل حسنها فأقبلت على فقالت بالله لا تحبسه عنا إلى الظهر قال فانتبهت فرعنا وأخذت في جهازه وحفرت له قبراً في الموضع الذى رأيت فيه القبة فدفنته فيه .

(وقال) عبد الملك بن عتاب الليثى رأيت عامر بن عبد قيس فى النوم فقلت أى الأعمال وجدت أفضل ؟ قال ما أريد به وجه الله عز وجل .

(وقال) يزيد بن هارون رأيت أبا العلاء أيوب بن مسكين فى المنام فقلت ما فعل بك ربك ؟ قال غفر لى قلت بماذا ؟ قال بالصبر والصلاة ، قلت رأيت منصور بن زاذان ؟ قال هيات ذاك نرى قصره من بعيد .

(وقال) يزيد بن نعام هلكت جارية فى طاعون الجارف فلقبها أبوها بعد موته فقال لها يا بنية أخبرينى عن الآخرة ، قالت يا أبت قدمنا على أمر عظيم نعم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون والله لتسيحبة أو تسيحبتان أو ركعة أو ركعتان فى صحيفة عملى أحب لى من الدنيا وما فيها وقال كثير بن مرة رأيت فى منامى كأنى دخلت درجة علياء فى الجنة فجعلت أطوف بها وأتعجب منها فإذا أنا بنساء من نساء المسجد فى ناحية منها فذهبت حتى سلبت عليهن ثم قلت بما بلغت هذه الدرجة ؟ قلن بسجادات وتمكيرات وقال مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز عن فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز قالت اتبه عمر بن عبد العزيز ليلة فقال لقد رأيت رؤيا معجبة قالت فقلت جعلت فداك فأخبرنى بها فقال ما كنت لأخبرك بها حتى أصبح فلما طلع الفجر خرج فصلى ثم عاد إلى مجلسه ، قالت فأغتمت خلوته فقلت أخبرنى بالرؤيا التى رأيت ، قال رأيت كأنى رفعت لى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر وإذا فيها قصر أبيض كأنه الفضة وإذا خارج قد خرج من ذلك القصر فهتف بأعلى صوته يقول ابن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى دخل ذلك القصر قال ثم إن آخر خرج من ذلك القصر فنادى

أين أبو بكر الصديق أين ابن أبي قحافة، إذ أقبل أبو بكر حتى دخل ذلك القصر ثم خرج آخر فنادى أين عمر بن الخطاب، فأقبل عمر حتى دخل ذلك القصر ثم خرج آخر فنادى أين عثمان ابن عفان، فأقبل حتى دخل ذلك القصر ثم خرج آخر فنادى أين علي بن أبي طالب، فأقبل حتى دخل ذلك القصر ثم ان آخر خرج فنادى أين عمر بن عبد العزيز. قال عمر فقامت حتى دخلت ذلك القصر قال فدفعت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقوم حوله فقلت بيني وبين نفسي أين أجلس، جلست إلى جنب أبي عمر بن الخطاب فظفرت فإذا أبو بكر عن يمين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإذا عمر عن يساره فتأملت فإذا بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أبي بكر رجل فقلت من هذا الرجل الذي بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أبي بكر؟ فقال هذا عيسى بن مريم فسمعت هاتفاً يهتف وبينه وبينه ستر نور يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه وانبت على ما أنت عليه ثم كأنه أذن لي في الخروج فخرجت من ذلك القصر فالتفت خلفي فإذا أنا بعثمان بن عفان وهو خارج من ذلك القصر يقول الحمد لله الذي نصرني وإذا علي بن أبي طالب في أثره خارج من ذلك القصر وهو يقول الحمد لله الذي غفر لي .

(وقال) سميد بن أبي عروبة عن عمر بن عبد العزيز رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر جالسان عنده فسلمت وجلست فينا أنا جالس إذ أتى بعلي ومعاوية فأدخلا بيتنا وأجيف عليها الباب وأنا أنظر فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول قضى لي ورب الكعبة وما كان بأسرع من أن خرج معاوية علي أثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة .

(وقال) حماد بن أبي هاشم جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله وأقبل رجلان يختصمان وأنت بين يديه جالس فقال لك يا عمر إذا عملت فاعمل بعمل هذين لأبي بكر وعمر فاستحلفه عمر بالله أ رأيت هذه الرقبا ؟ فقلت فبكي عمر .

(وقال) عبد الرحمن بن غنم رأيت معاذ بن جبل بعد وفاته بثلاث على فرس أبلق وخلفه رجال بيض عليهم ثياب خضر على خيل بلق وهو قدامهم وهو يقول (يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) ثم التفت عن يمينه وشماله يقول يا ابن راحة يا ابن مظلون (الحمد لله الذي صدقتنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعمر أجر العاملين) ثم صالحني وسلم علي .

(وقال) قبيصة بن عقبة رأيت سفیان الثوري في المنام بعد موته فقلت ما فعل الله بك؟ فقال:

نظرت إلى ربي عيانا فقال لي هنيئاً رضايا عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواماً إذا الليل قد دجا بعبرة محزون وقلب عميد
فدونك فاخترأى قصر تريده وزرني فأني منك غير بعيد

(وقال) سفیان بن عيينة: رأيت سفیان الثوري بعد موته يطير في الجنة من نخلة إلى شجرة ومن شجرة إلى نخلة وهو يقول (لمثل هذا فليعمل العاملون) فقيل له بما أدخلت الجنة؟ قال بالورع بالورع، قيل له فما فعل علي بن عاصم؟ قال ما نراه إلا مثل الكوكب.

(وكان) شعبة بن الحجاج ومسر بن كدام حافظين وكانا جليبين قال أبو أحمد البريدي فرأيتهما بعد موتهما فقلت أبا بسطام ما فعل الله بك؟ فقال وفقك الله لحفظ ما أقول:

حباني إلهي في الجنان بقيّة لها ألف باب من لجين وجوها
وقال لي الرحمن يا شعبة الذي تبهر في جمع العلوم فأكثر
تعم بقرني لأنني عنك ذورضا وعن عبدى القوام في الليل مسعرا
كفا مسعرا عزا بأن سيزورني واكشف عن وجهي الكريم لينظرا
وهذا فعالي بالذين تنسكوا ولم يألقوا في سالف الدهر منكرا

قال أحمد بن محمد اللبدي رأيت أحمد بن حنبل في النوم فقلت يا أبا عبد الله ما فعل الله بك؟ قال غفر لي ثم قال يا أحمد ضربت في ستين سوطاً، قلت نعم يارب قال هذا وجهي قد أبحتك فانظر إليه.

وقال أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج حدثني رجل من أهل طوسوس قال دعوت الله عز وجل أن يريني أهل القبور حتى أسألهم عن أحمد بن حنبل ما فعل الله به؟ فرأيت بعد عشر سنين في المنام كأن أهل القبور قد قاموا على قبورهم فبادروني بالكلام فقالوا يا هذا كم تدعو الله عز وجل أن يريك إيانا تسألنا عن رجل لم يزل منذ فارقتكم تحليه الملائكة تحت شجرة طوبى قال أبو محمد عبد الحق وهذا الكلام من أهل القبور إنما هو اخبار عن علو درجة أحمد بن حنبل وارتفاع مكانه وعظم منزلته فلم يقدرُوا أن يعبروا عن صفة حاله وعن ماهو فيه إلا بهذا وما هو في معناه.

(وقال) أبو جعفر السقاء صاحب بشر بن الحارث رأيت بشرا الحافي ومعروف الكرخي وهما جاثيان فقلت من أين ؟ فقالا من جنة الفردوس زرنا كليم الله موسى .

(وقال) عاصم الجزري رأيت في النوم كأنى لقيت بشر بن الحارث فقلت من أين يا أبا نصر ؟ قال من عليين ، قلت فما فعل أحمد بن حنبل ؟ قال تركته الساعة مع عبد الوهاب الوراق بن يدي الله عز وجل يا كلان ويشربان ، فقلت له فأنت قال علم فلة رغبتى في الطعام فأباحنى للنظر إليه .

(وقال) أبو جعفر السقاء رأيت بشر بن الحارث في النوم بعد موته فقلت أبا نصر ما فعل الله بك ؟ قال الطغنى ورحمى وقال لي يا بشر لو سجدت لي في الدنيا على الحجر ما أدبت شكر ما حشوت قلوب عبادى منك وأباح لي نصف الجنة فأسرح فيها حيث شئت ووعدتى أن يغفر لمن تبع جنازتى فقلت ما فعل أبو نصر التمار ؟ فقال ذاك فوق الناس بصيره على بلائه وفقره .

قال عبد الحق لعله أراد بقوله نصف الجنة نصف نعيمها لأن نعيمها نصفان نصف روحانى ونصف جسمانى فينتعمون أولا بالروحانى فإذا ردت الأرواح إلى الأجساد أضيف لهم النعيم الجسمانى إلى الروحانى ، وقال غيره نعيم الجنة مرتب على العلم والعمل وحظ بشر من العمل كان أوفى من حظه في العلم . والله أعلم .

(وقال) بعض الصالحين رأيت أبا بكر الشبلى في المنام وكأنه قاعد في مجلس الرصافة بالموضع الذى كان يقعد فيه وإذا به قد أقبل وعليه ثياب حسان فقلت إليه وسلمت عليه وجلست بين يديه فقلت له من أقرب أصحابك إليك ؟ قال ألهجهم بذكر الله وأقومهم بحق الله وأسرعهم مبادرة في مرضاة الله .

(وقال) أبو عبد الرحمن الساحلى رأيت ميسرة بن سليم في المنام بعد موته فقلت له طالت غيبتك فقال السفر طويل ، فقلت له فما الذى قدمت عليه ؟ فقال رخص لي لأننا كنا نفتى بالرخص ، فقلت فما تأمرنى به ؟ قال اتباع الآثار وصحبة الاخيار ينجان من النار ويقربان من الجبار .

(وقال) أبو جعفر الضريبر رأيت عيسى بن زاذان بعد موته فقلت ما فعل الله بك فأنشأ يقول :

لو رأيت الحسان في الخلد حولي وأكاوب معها للشراب
يترنم بالكتاب جميعا يتمشين مسبلات الثياب

(وقال) بعض أصحاب ابن جريج رأيت كأنى جئت إلى هذه المقبرة التي بمكة فرأيت على ماتها سرادقاً ورأيت منها قبراً عليه سرادق وقسطاط وسدرة تجثت حتى دخلت فسلمت عليه فإذا مسلم بن خالد الزنجي فسلمت عليه وقلت يا أبا خالد ما بال هذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وقسطاط وفيه سدرة فقال انى كنت كثير الصيام فقلت فأين قبر ابن جريج وأين محله ، فقد كنت أجالسه وأنا أحب أن أسلم عليه فقال هكذا بيده هيئات وأدار أصبعه السبابة وأين ابن جريج رفعت صحيفته في عليين .

ورأى حماد بن سلمة في النوم بعض الاصحاح فقال له ما فعل الله بك ؟ فقال قال لى طال ما كددت نفسك في الدنيا فاليوم أطيل راحتك وراحة المتعبين .

وهذا باب طويل جداً فإن لم تسمح نفسك بتصديقه وقلت هذه منامات وهي غير معصومة فتأمل من رأى صاحباً له أو قريباً أو غيره فأخبره بأمر لا يعلمه إلا صاحب الرؤيا أو أخبره بمال دفنه أو حذره من أمر يقع أو بشره بأمر يوجد فوقع كما قال أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله إلى كذا وكذا فيقع كما أخبر ، أو أخبره بنحسب أو جذب أو عدو أو نازلة أو مرض أو بغرض له فوقع كما أخبره ، والواقع من ذلك لا يحصيه إلا الله والناس مشتركون فيه وقد رأينا نحن وغيرنا من ذلك عجائب .

وأبطل من قال أن هذه كلها علوم وعقائد في النفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم وهذا عين الباطل والمحال فإن النفس لم يكن فيها قط معرفة هذه الأمور التي يخبر بها الميت ولا خطرت ببالها ولا عندها علامة عليها ولا أمارة بوجه ما ونحن لا نسكر أن الأمر قد يقع كذلك .

وإن من الرؤيا ما يكون من حديث النفس وصورة الاعتقاد بل كثير من مراني الناس إنما هي من مجرد صور اعتقادهم المطابق وغير المطابق .

فان الرؤيا على ثلاثة أنواع : رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا من حديث النفس . والرؤيا الصحيحة أقسام . منها : إلهام يلقيه الله سبحانه في قلب العبد وهو كلام يكلم به الرب عبده في المنام كما قال عبادة بن الصامت وغيره .

ومنها : مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها .

ومنها : التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم كما ذكرنا .

ومنها : عروج روحه إلى الله سبحانه وخطابها له .

ومنها : دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها وغير ذلك فالتقاء أرواح الأحياء والموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحة التي هي عند الناس من جنس المحسوسات .

وهذا موضع اضطرب فيه الناس (فن قائل) إن العلوم كلها كامنة في النفس وإنما اشتغالها يعالِم الحس يحجب عنها مطالعتها فإذا تجردت بانوم رأت منها بحسب استعدادها ولما كان تجردها بالموت أكمل كانت علومها ومعارفها هناك أكمل وهذا فيه حق وباطل فلا يرد كله ولا يقبل كله فإن تجرد النفس يطلعها على علوم ومعارف لا تحصل بدون التجرد لكن لو تجردت كل التجرد لم تطلع على علم الله الذي بعث به رسوله وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية والامم الخالية وتفاصيل المعاد وأشراط الساعة وتفاصيل الأمر والنهي والاسماء والصفات والأفعال وغير ذلك مما لا يعلم إلا بالوحي ولكن تجرد النفس عون لها على معرفة ذلك وتلقيه من معدنه أسهل وأقرب وأكثر مما يحصل للنفس المنغمسة في الشواغل البدنية .

(ومن قائل) إن هذه المراني علوم علقها الله في النفس ابتداء بلا سبب وهذا قول منكري الأسباب والحكم القوي وهو قول مخالف للشرع والعقل والقطرة .

(ومن قائل) أن الرؤيا أمثال مضروبة يضربها الله للعبد بحسب استعداده الفه على يد ملك الرؤيا فمرة يكون مثلاً مضروباً ومرة يكون نفس ما رآه الرائي فيطابق الواقع مطابقة العلم لمعلومه .

وهذا أقرب من القولين قبله ولكن الرؤيا ليست مقصورة عليه بل لها أسباب أخر كما تقدم من ملاقات الأرواح وأخبار بعضها بعضها ومن إلقاء الملك الذي في القلب والروح ومن رؤية الروح للأشياء مكافئة بلا واسطة .

(وقد ذكر) أبو عبد الله بن منده الحافظ في (كتاب النفس والروح) من حديث محمد بن حميد حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدومسي حدثنا الأزهر بن عبد الله الأزدي عن محمد بن عجلان عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال لقي عمر بن الخطاب على بن أبي طالب فقال له يا أبا الحسن ربما شهدت وغبتنا وشهدنا وغبت ، ثلاث أسألك عنهن عندك منهن علم؟ فقال على ابن أبي طالب وماهن؟ فقال الرجل يجب الرجل ولم ير منه خيراً ، والرجل بغض الرجل ولم ير منه شراً ، فقال على نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ، إن الأرواح جنود مجندة تلتقي في الهراء فتشأم فا تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، فقال عمر واحدة . قال عمر ، والرجل يحدث الحديث إذ نسيه فينا هو وما نسيه إذ ذكره فقال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ، ما في القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر بينا القمر مضيء إذا تجلته سحابة للظلم إذا تجلعت فأضاء وبيننا القلب يتحدث إذ تجلته سحابة ففسى إذ تجلعت منه فيذكر قال حمر اثنتان قال والرجل يرى الرؤيا فيها ما يصدق ومنها ما يكذب ،

فقال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من عبد ينام يتملىء نوما إلا عرج بروحه إلى العرش فالذى لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تصدق والذي يستيقظ دون العرش فهي التي تكذب فقال عمر ثلاث كنت في طلبين فالحمد لله الذي أصبتهن قبل الموت .

(وقال) بغية بن الوليد حدثنا صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر الحضرمي قال : قال عمر بن الخطاب عجبتم لرؤيا الرجل يرى الشيء لم يخطر له على بال فيكون كما أخذ بيد ويرى الشيء فلا يكون شيئاً فقال علي بن أبي طالب يا أمير المؤمنين يقول الله عز وجل (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى إلى أجل مسمى) قال والارواح يعرج بها في منامها فما رأيت وهي في السماء فهو الحق فإذا ردت الى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها فما رأيت من ذلك فهو الباطل . قال لجعل عمر يتمجب من قول علي قال ابن منده هذا خبر مشهور عن صفوان بن عمرو وغيره وروى عن أبي الدرداء .

(وذكر) الطبراني من حديث علي بن أبي طلحة أن عبد الله بن عباس قال لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين أشياء أسألك عنها قال سل عما شئت قال يا أمير المؤمنين مم يذكر الرجل ومم ينسى ومم تصدق الرؤيا ومم تكذب ؟ فقال له عمر إن على القلب طخاوة كطخاوة القمر فإذا تغشت القلب نسي ابن آدم فإذا انجلت ذكر ما كان نسي وأما مم تصدق الرؤيا ومم تكذب فإن الله عز وجل يقول : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) فمن دخل منها في ملكوت السماء فهي التي تصدق وما كان منها دون ملكوت السماء فهي التي تكذب .

(وروى) ابن لهيعة عن عثمان بن نعيم الرعيني عن أبي عثمان الاصمعي عن أبي الدرداء قال إذا نام الإنسان عرج بروحه حتى يوثق بها العرش فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود وإن كان جنباً لم يؤذن لها بالسجود .

(وروى) جعفر بن عون عن إبراهيم الهجري عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود انه قال إن الأزواج جنود مجنونة تتلاقى فتشأم كما تشأم الخيل فا تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

ولم يزل الناس قديماً وحديثاً تعرف هذا وتشاهده قال جميل بن معمر العذري :
أظل نهارى مستهماً وتلقى مع الليل روحى في المنام وروحها
فإن قيل : فالنائم يرى غيره من الأحياء بعد موته ويحاطبه وربما كان بينهم مسافة بعيدة ويكون

المرى يقظان روحه لم تقارق جسده فكيف التقت روحاهما؟ قيل هذا إما أن يكون مثلاً
مضروباً ضربه ملك الرؤيا للنائم أو يكون حديث نفس من الرائي تجرد له في منامه كما قاله
حبيب بن أوس :

سقى لطيفك من زور أنك به حديث نفسك عنه وهو مشغول

وقد تتناسب الروحان وتشتد علاقة احدهما بالآخرى فيشعر كل منهما ببعض ما يحدث
لصاحبه وإن لم يشعر بما يحدث لغيره لشدة الملاقة بينهما وقد شاهد الناس من ذلك عجائب .
والمقصود أن ارواح الاحياء تتلاقى في النوم كما تتلاقى ارواح الاحياء والاموات قال
بعض السلف ان الارواح تتلاقى في الهواء فتتعارف أو تتذكر فيأتيها ملك الرؤيا بما هو
لاقيها من خير أو شر قال وقد وكل الله بالرؤيا الصادقة ملكاً عليه وألممه بمعرفة كل نفس
بميينها واسمها ومتقلها في دينها ودنياها وطبعها ومعارفها لا يشتهه عليه منها شيء ولا يغلط
فيها فتأتيه نسخة من علم غيب الله من أم الكتاب بما هو نصيب لهذا الإنسان من خير
وشر في دينه ودنياه ويضرب له فيها الأمثال والأشكال على قدر عادته فتارة يبشره بخير
قدمه أو يقدمه وينذره من معصية ارتكبها أو هم بها ويحذره من مكروه انعمت أسبابه ليعارض
تلك الأسباب بأسباب تدفعها وتغير ذلك من الحكم والمصالح التي جعلها الله في الرؤيا نعمة
منه ورحمة وإحساناً وتذكيراً وتعريفاً وجعل أحد طرق ذلك تلاقى الارواح وتذاكرها
وتعارفها وكمن كانت توبته وصلاحه وزهده واقباله على الآخرة عن منام رآه أو رثى له ،
وكمن استغنى وأصاب كنزاً دفيناً عن منام .

وفي (كتاب المجالسة) لأبي بكر أحمد بن مروان المالكي عن ابن قتيبة عن أبي حاتم عن
الأصمعي عن المعتمر بن سليمان عن حدثه قال خرجنا مرة في سفر وكنا ثلاثة نفر فنام
أحدنا فرأينا مثل المصباح خرج من أنفه فدخل غاراً قريباً منه ثم رجع فدخل أنفه فاستيقظ
يمسح وجهه وقال رأيت عجايباً رأيت في هذا الغار كذا وكذا فدخلناه فوجدنا فيه بقية
من كنز كان .

وهذا عبد المطلب دل في النوم على زمزم وأصاب الكنز الذي كان هناك .

وهذا عمير بن وهب أتى في منامه فقيل له قم إلى موضع كذا وكذا من البيت فاحفره تجد
مال أهلك وكان أبوه قد دفن مالا ومات ولم يوص به فقام عمير من نومه فاحفر حيث
أمره فأصاب عشرة آلاف درهم وتبراً كثيراً ففضى دينه وحنن حاله وحال أهل بيته وكان
ذلك عقب إسلامه فقالت له الصغرى من بناته يا أبت ربنا هذا الذي حياتنا بدينه خير من
هبل والعزى ولولا انه كذلك ما ورثك هذا المال وإنما عبدهت إماماً قلائل .

(قال) علي بن أبي طالب القميرواني العابر وما حديث عمير هذا واستخرجه المال بالتمام بأعجب مما كان عندنا وشاهدناه في عصرنا بمدينتنا من أبي محمد عبد الله البغاشي (١) وكان رجلا صالحا مشهورا بروية الاموات وسؤالهم عن الغائبات ونقله ذلك إلى أهلهم وقراباتهم حتى اشتهر بذلك وكثر منه فكان المرء يأتيه فيشكو إليه أن حميمه قد مات من غير وصية وله مال لا يهتدى إلى مكانه فيعده خيرا ويدعو الله تعالى في ليلته فيترا آله الميت الموصوف فيسأله عن الامر فيخبره به .

(فن نواهره) ان امرأة عجززا من الصالحات توفيت ولامرأة عندها سبعة دنائير وديعة فجاءت إليه صاحبة الوديعة وشكت إليه ما نزل بها وأخبرته باسمها واسم الميتة صاحبها ثم عادت إليه من الغد فقالت لها تقول لك فلانة عدى من سقف بيتي سبع خشبات تجدى الدنائير في السابعة في خرقه صوف ففعلت ذلك فوجدتها كما وصف لها .

(قال) وأخبرني رجل لا أظن به كدبا استأجرتني امرأة من أهل الدنيا على هدم دار لها وبنائها بمال معلوم فلما أخذت في الهدم لزمت الفعلة هي ومن معها فقلت مالك ؟ قالت والله مالي إلى هدم هذه الدار من حاجة لكن أبي مات وكان ذا يسار كثير فلم نجد له كثير شيء نخلت أن ماله مدفون فعمدت إلى هدم الدار لعلى أجد شيئا ، فقال لها بعض من حضر لقد فاتك ما هو أهون عليك من هذا قالت وما هو ؟ قال فلان تمضين إليه وتسألينه أن يبيت قصتك الليلة فله يرى أباك فيدلك على مكان ماله بلا تعب ولا كلفة فذهبت إليه ثم عادت إلينا فرعمت أنه كتب اسمها واسم أبيها عنده فلما كان من الغد بكرت إلى العمل وجاءت المرأة من عند الرجل فقالت ان الرجل قال لي رأيت أباك وهو يقول المال في الخنية قال لجعلنا نحفر تحت الخنية وفي جوانبها حتى لاح لي شق وإذا المال فيه قال فاخذنا في التعجب والمرأة تستخف بما وجدت وتقول مال أبي كان أكثر من هذا ولكني أعود إليه فضت فأعلته ثم سأله المعاودة فلما كان من الغد أتت وقالت انه قال لها أن أباك يقول لك احفري تحت الجايبة المربعة التي في مخزن الزيت قال ففتحت المخزن فإذا بجايبة مربعة في الركن فأزلناها وحفرنا تحتها فوجدنا كوزا كبيرا فأخذته ثم دام بها الطمع في المعاودة ففعلت فرجمت من عنده وعليها الكتابة فقالت زعم انه رآه وهو يقول له قد أخذت ما قدر لها وأما ما بقي فقد جلس عليه عفريت من الجن محرسه إلى من قدر له والحكايات في هذا الباب كثيرة جدا .

(١) النعاشي .

وأما من حصل له الشفاء باستعمال دواء رأى من وصفه له في منامه فكثير جدا (وقد حدثني) غير واحد ممن كان غير مائل إلى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه رآه بعد موته وسأله عن شيء كان يشكك عليه من مسائل الفرائض وغيرها فأجابته بالصواب .
وبالجملة فهذا أمر لا يشكره إلا من هو أجهل الناس بالارواح وأحكامها وشأنها وبالله التوفيق .

المسألة الرابعة

وهي أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده ؟

اختلف الناس في هذا فقالت طائفة تموت الروح وتذوق الموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت .

قالوا وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده قال تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) وقال تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) قالوا وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت قالوا وقد قال تعالى عن أهل النار أنهم قالوا (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبدن والأخرى للروح .

وقال آخرون لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان قالوا وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب وقد قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في حيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) . هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاق الموت .

والصواب أن يقال موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخرجها منها فان أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدا محضا فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب كما سيأتي إن شاء الله تعالى بعد هذا وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله في جسدها وقد نظم أحمد بن الحسين
لكندى هذا الاختلاف في قوله :

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شيب والخلف في الشجب
فتيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

فإن قيل فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح حية كما هي أو تموت ثم تحيا؟ قيل قد قال تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق .

فقيل هم الشهداء هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير .

وقيل هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وهذا قول مقاتل وغيره .

وقيل هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها

قاله أبو إسحق بن شاقلا من أصحابنا .

وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة (لا يدوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان وأما قول أهل النار (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فتفسير هذه الآية التي بالبقرة وهي قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) فكانوا أمواتا وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياء بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور وليس في ذلك أماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موات وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها ففي الحديث الصحيح ان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقه يوم الطور .

فهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وأشرفت الأرض بنوره فيئذ تصعق الخلائق بهم قال تعالى (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون) ولو كان هذا الصعق موتا لكانت موتة أخرى وقد تذب لهذا جماعة من الفضلاء فقال أبو عبد الله القرطبي ظاهر هذا الحديث ان هذه صعقة غشى تكون يوم القيامة لاصعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور قال وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو ظاهر حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث ونص القرآن يقتضى أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق ولما كان هذا فال بعض العلماء يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأبناء وهذا باطل وقال القاضي عياض يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السموات والأرض قال فتستقل الأحاديث والآثار ورد عليه أبو العباس القرطبي فقال يرد هذا قوله في الحديث الصحيح أنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذاً بقائمة العرش قال وهذا إنما عند نفخة الفرع .

قال أبو عبد الله وقال شيخنا أحمد بن عمرو الذي يزيح هذا الاشكال إن شاء الله تعالى ان الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين وهذه صفة الأحياء في الدنيا وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأنه صلى الله عليه وآله وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء وخصوصاً بموسى وقد أخبر بأنه مامن مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام . إلى غير ذلك مما يحصل من جملة القطع بأن أموت لأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندرهم وإن كانوا موجودين حياء وذلك كالحال في الملائكة فانهم أحياء موجودون ولا ترام وإذا تقرر انهم أحياء فإذا نفيح في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فأما صعق غير الأنبياء فوت وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فن مات حي ومن غشى عليه أفاق ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتفق على صحته ، فأكون أول من يفيق ، فديننا أول من يخرج من قبره فسل جميع الناس إلا موسى . فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً لأنه حوسب بصعقة يوم الطور وهذه فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقاً لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمراً كلياً ، انتهى .

قال أبو عبد الله القرطبي ان حمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوامله فالمعنى إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور .

قلت وحمل الحديث على هذا لا يصح لأنه صلى الله عليه وآله وسلم تردد هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزى بصعقة الطور فالمعنى لأدري أصعق أم لم يصعق ، وقد قال في الحديث فأكون أول من يفيق وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم يصعق فيمن يصعق وإن التردد حصل في موسى هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لسكان صلى الله عليه وآله وسلم قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يموت وهذا باطل لوجوه كثيرة فعلم أنها صعقة فزع لاصعقة موت وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى نعم تدل على أن موت الخلق عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ . وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت مودة ثانية والله أعلم .

(فإن قيل) فكيف تصنعون بقوله في الحديث إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عليه الأرض فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش أقبل لا رب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الاشكال ولكنه دخل فيه على الراوى حديث في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا . والحديثان هكذا :

(أحدهما) ان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق .

(والثاني) هكذا : أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، ففي الترمذى وغيره من حديث أبي سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولاخبر ويبدى لواء الحمد ولاخبر وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولاخبر قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .
فدخل على الراوى هذا الحديث في الحديث الآخر وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ^{هـ} يقول ذلك .

(فإن قيل) فما تصنعون بقوله : فلا أدرى أفاق قبلى أم كان بمن استثنى الله عز وجل والذين استثناهم الله إنهم مستثنون من صعقة النفخة لا من صعقة يوم القيامة كما قال الله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة قيل هذا والله أعلم غير محفوظ وهو وهم من بعض الرواة والمحموظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور فظن بعض الرواة ان هذه الصعقة هى صعقة النفخة وأن موسى داخل فيمن استثنى منها وهذا لا يلتزم على مساق الحديث قطعاً فإن الإفاقة حينئذ هى إفاقة البحث فكيف يقول لأدري أبعت قبلى أم جوزى بصعقة الطور فتأمل ، وهذا بخلاف الصعقة التى يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتجلي لهم فانهم يصعقون جميعاً . وأما موسى صلى الله عليه وسلم فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكا فجعلت صعقة هذا التجلى عوضاً من صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة . فتأمل هذا المعنى العظيم . ولو لم يكن فى الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه لكان حقيقاً ان يعرض عليه بالواجب والله الحمد والمنة وبه التوفيق .

المسألة الخامسة

وهي أن الأرواح بعد مفارقة الأبدان إذا تجردت بأى شيء يتميز بعضها من بعض حتى تتعارف وتتلاقى وهل تشكل إذا تجردت بشكل بدنها الذى كانت فيه وتلبس صورته أم كيف يكون حالها .

هذه مسألة لا تكاد تجد من تكلم فيها ولا يظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل ولا سيما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلاقتها وليست بداخل العالم ولا خارجه ولا لها شكل ولا قدر ولا شخص فهذا السؤال على أصولهم بما لا جواب لهم عنه وكذلك من يقول هي عرض من أعراض البدن فتميزها عن غيرها مشروط بقيامها ببدنها فلا تميز لها بعد الموت بل لوجود لها على أصولهم بل تقدم وتبطل باضحلال البدن كما تبطل سائر صفات الحى ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة التى تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل والقول أنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها فى كتابنا الكبير فى معرفة الروح والنفس وبيننا بطلان ما خالف هذا القول من وجوه كثيرة وإن من قال غيره لم يعرف نفسه .

وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالدخول والخروج والقبض والثرى والرجوع وصعودها إلى السماء وفتح أبوابها لها وغلقها عنها فقال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا أنفسكم) وقال تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد وقال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) فأخبر أنه سوى النفس كما أخبر أنه سوى البدن فى قوله (الذى خلقك فسواك فعدلك) فهو سبحانه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه بل سوى بدنه كالتقالب لنفسه فتسوية البدن تابع لتسوية النفس والبدن موضوع لها كالتقالب لما هو موضوع له .

ومن هاهنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها فانها تتأثر وتنقل عن البدن كما يتأثر البدن وينقل عنها فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبثها وتكتسب النفس الطيب والخبث من طيب البدن وخبثه فأشداً لأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلاً وتأثراً من أحدهما بالآخر الروح والبدن ولهذا يقال لها عند المفارقة اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب النفس واخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث .

وقال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فوصفها بالتوفى والامسك والارسال كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت . وأخبر أن الملك يقبضها فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض أو كأنن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض .

والاعراض لاربح لها ولا تمسك ولا تؤخذ من يد إلى يد .

وأخبر أنها تصعد إلى السماء ويصلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض وأنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل فتوقف بين يديه ويأمر بكتابة اسمه في ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سجين ثم ترد إلى الأرض وإن روح الكافر تطرح طرحا وأنها تدخل مع البدن في قبرها للسؤال .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن نسمة المؤمن وهي روحه طائر يعلق في شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها .

وأخبر أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وأخبر أن الروح تعم وتعذب في البرزخ إلى يوم القيامة .

وقد أخبر سبحانه عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدراً وعشياً قبل يوم القيامة وقد أخبر سبحانه عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون وهذه حياة أرواحهم ورزقها دار وإلا فالأبدان قد تمزقت وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الحياة بأن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا أى شئ تشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا فعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى .

(وصح) عنه صلى الله عليه وآله وسلم أن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة وتعلق بضم اللام أى تأكل العلقة .

(وقال) ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلمهم وحسن مقيلهم قالوا

بالبت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لتلايهم في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) الآيات رواه الإمام أحمد وهذا صريح في أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها وسيأتي مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله تعالى .

وإذا كان هذا شأن الأرواح فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان فان الأبدان تشبه كثيراً وأما الأرواح فقل ما تشبه .

يوضح هذا أننا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة وهم متميزون في علنا أظهر تميز وليس ذلك التميز راجعاً إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم ما يختص به أحدهم من الآخر بل التميز الذي عندنا بما علناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها ، وتميز الروح عن الروح بصفات أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته ، ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشبهان كثيراً وبين روحيهما أعظم التباين والتمييز ، وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين في الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين ، فإذا تجردت هاتان الروحان كان تميزهما في غاية الظهور .

وأخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عياناً قل أن ترى بدناً قبيحاً وشكلاً شنيعاً إلا وجدته مركباً على نفس تشاكله وتناسبه وقل أن ترى آفة في بدن إلا وفي روح صاحبه آفة تناسبها ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فقل أن تخطيء ذلك .

(ويحكى) عن الشافعي رحمه الله في ذلك صواب .

وقل أن ترى شكلاً حسناً وصورة جميلة وتركيباً لطيفاً إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له هذا ما يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد .

وإذا كانت الأرواح العلوية وهم الملائكة متميزاً بعضهم عن بعض من غير أجسام محملهم وكذلك الجن فتميز الأرواح البشرية أولى .

المسألة السادسة

وهي أن الروح هل تعاد إلى الميت في قبره وقت السؤال أم لا ؟

فقد كفانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس حيث صرح باعادة الروح إليه فقال البراء بن عازب كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقعده وقعدنا حوله كأن على رءوسنا الطير وهو يلحد له فقال أعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات ثم قال ان العبد إذا كان في اقبال من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فيجلسون منه مد البصر ثم يحيى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفه عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الخنوط ويخرج منها كأطيب نفضة مسك وجدت على وجه الأرض قال فيصعدون بها فلا يرون بها يعني على ملائكة الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيمه من كل سماء مقربوا إلى السماء التي تلها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول ربني الله فيقولان له ما دينك؟ فيقول ديني الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك بهذا؟ فيقول قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقته، فينادى من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابا من الجنة قال فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ، قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعده ، فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يحيى بالخير فيقول أنا عمك الصالح ، فيقول رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يحيى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة أخرجي الى سخط من الله وغضب قال فتفرق في جسده فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفه عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأن تنريح جيفة

وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يبرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا ما هذا الريح الخبيث ؟ فيقولون فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى يذتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سبعين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيقولان له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدري ، فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدري فينادى مناد من السماء ان كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب متن الريح فيقول أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يحيى بالشر فيقول أنا عمك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة . رواه الإمام أحمد وأبو داود وروى النسائي وابن ماجه أوله ورواه أبو عوانة الاسفرائيني في صحيحه .

وذهب إلى القول بموجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث من سائر الطوائف . وقال أبو محمد بن حزم في كتاب الملل والنحل له وأما من ظن أن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة خطأ ان الآيات التي ذكرناها تمنع من ذلك يعني قوله تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) وقوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) قال ولو كان الميت يحيا في قبره لسكان تعالى قدامنا ثلاثا وأحيانا ثلاثا وهذا باطل وخلاف القرآن إلا من أحياه الله تعالى آية نبي من الانبياء ، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ، ثم أحياهم ، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، ومن خصه نص ، وكذلك قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى إلى أجل مسمى) فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى جسده إلا إلى الاجل المسمى وهو يوم القيامة وكذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى الأرواح ليلة أسرى به عند سماء الدنيا من عن يمين آدم أرواح أهل السعادة وعن شماله أرواح أهل الشقاوة ، وأخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى أنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور ولم ينكر على الصحابة قولهم قد جيفوا ، واعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك ، فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلا شك ، وأما الجسد فلا حس له وقد قال تعالى (وما أنت بمسمع من في القبور)

فنفى السمع عن في القبور وهي الاجساد بلاشك ولايشك مسلم أن الذي نفى الله عز وجل عنه السمع هو غير الذي أثبت له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السمع . قال ولم يأت قط عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خبر صحيح أن أرواح الموتي ترد إلى أجسادهم عند المساءة ولو صح ذلك عنه لقلنا به قال وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح في القبور إلى الاجساد المنهال بن عمرو وحده وليس بالقوى تركه شعبة وغيره وقال فيه المغيرة بن مقسم الضبي وهو أحد الأئمة ماجازت للنهال بن عمرو قط شهادة في الإسلام على ماقد نقل وسائر الأخبار الثابتة على خلاف ذلك .

قال وهذا الذي قلنا هو الذي صح أيضاً عن الصحابة .

ثم ذكر من طريق بن عيينة عن منصور بن صفيية عن أمه صفيية بنت شيبه قالت دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحاً قبل أن يقبر فقتيل له هذه أسماء بنت أبي بكر الصديق قال ابن عمر إليها فعرهاها وقال ان هذه الجثث ليست بشيء وان الأرواح عند الله تقالت أمه وما يمنعي وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بني اسرائيل .

(قلت) ما ذكره أبو محمد فيه حق وباطل أما قوله من ظن أن الميت يحيا في قبره خطأ فهذا فيه إجمال ان أراد به الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه وتحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس فهذا خطأ كما قال والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص .

وان أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا ليسأل ويمتحن في قبره فهذا حق ونفيه خطأ وقد دل عليه النص الصحيح الصريح وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم فتعاد روحه في جسده ، وسند ذكر الجواب عن تضعيفه للحديث إن شاء الله تعالى .

وأما استدلاله بقوله تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فلا ينفي ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح في الجسد كما أن قتييل بنى اسرائيل الذي أحياه الله بعد قتله ثم أماته لم تكن تلك الحياة العارضة له للسماة معتدا بها فإنه يحيى لحظة بحيث قال فلان قتلتى ثم مخر ميتا على أن قوله ثم تعاد روحه في جسده لا يدل على حياة مستقرة وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن وتعلق به والروح لم تزل متعلقة ببدنها وإن بلى وتمزق .

وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الاحكام .

(أحدها) تعلقها به في بطن الأم جنينا .

(الثاني) تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

(الثالث) تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه .

(الرابع) تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقت وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقا كلياً بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة وقد ذكرنا في أول الجواب من الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة .

(الخامس) تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً .

وأما قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فامساك سبحانه التي قضى عليها الموت لا ينافي ردها إلى جسدها الميت في وقت ما رداً عارضاً لا يوجب له الحياة المعهودة في الدنيا .

وإذا كان النائم روحه في جسده وهو حي وحياته غير حياة المستيقظ فإن النوم شقيق الموت فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحي وبين الميت الذي لم ترد روحه إلى بدنه كحال النائم المتوسطة بين الحي والميت فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة .

وأما أخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن رؤية الأنبياء ليلة أسرى به فقد زعم بعض أهل الحديث أن الذي رآه أشباحهم وأرواحهم قال فإنهم أحياء عند ربهم ، وقد رأى إبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ورأى موسى قائماً في قبره صلى وقد نعت الأنبياء لما رآهم نعت الأشباح فرأى موسى آدم ضرباً طوالاً كأنه من رجال شنوءة ، ورأى عيسى يقطر رأسه كأنما أخرج من ديماس ، ورأى إبراهيم فشبهه بنفسه .

ونازعهم في ذلك آخرون وقالوا هذه الرؤية إنما هي لأرواحهم دون أجسادهم والأجساد في الأرض قطعاً إنما تبعث يوم بعث الأجساد ولم تبعث قبل ذلك إذ لو بعثت قبل ذلك لكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور وهذه موته ثالثة وهذا باطل قطعاً ولو كانت قد بعثت الأجساد من القبور لم يهدم الله إليها بل كانت في الجنة وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله حرم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها هو وهو أول من يستفتح باب الجنة وهو أول من تدفق عنه الأرض على الإطلاق لم تنشق عن أحد قبله .

ومعلوم بالضرورة أن جسده صلى الله عليه وآله وسلم في الأرض طرى مطراً وقد سأله الصحابة كيف تعرض صلاتا عليك وقد أرمت ؟ فقال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

ولو لم يكن جسده في ضريحه لما أجاب بهذا الجواب .
وقد صح عنه أن الله وكل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام .
وصح عنه أنه خرج بين أبي بكر وعمر وقال هكذا نبعث .
هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى في أعلى عليين مع أرواح الأنبياء .
وقد صح عنه أنه رأى موسى قائماً يصلى في قبره ليلة الاسراء ورآه في السماء السادسة أو
السابعة . فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن في القبر وإشراف عليه وتعلق به بحيث يصلى
في قبره ويرد سلام من سلم عليه وهي في الرفيق الأعلى .

ولاتفق بين الأمرين فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان وأنت تجسد الروحين المتماثلتين
المتناسبتين في غاية التجاور والقرب وإن كان بينهما بعد المشرقين وتجسد الروحين المتماثلتين
المتماثلتين بينهما غاية البعد وإن كان جسداهما متجاورين متلاصقين .

وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن فإنها تصعد إلى ما فوق
السموات ثم تهبط إلى الأرض ما بين قبضتها ووضع الميت في قبره وهو زمن يسير لا يصعد
البدن وينزل في مثله وكذلك صعودها وعودها إلى البدن في النوم واليقظة وقد مثلها بعضهم
بالشمس وشعاعها فإنها في السماء وشعاعها في الأرض ، قال شيخنا وليس هذا مثلاً مطابقاً
فإن نفس الشمس لا تنزل من السماء والشعاع الذي على الأرض ليس هو الشمس ولا صفتها
بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها والروح نفسها تصعد وتنزل وأما
قول الصحابة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في قتلى بدر كيف تخاطب أقبوا ما قد جيفوا مع
أخباره بسماهم كلامه فلا ينفى ذلك رد أرواحهم إلى أجسادهم ذلك الوقت رداً يسمعون به
خطابه والأجساد قد جيفت فالخطاب للأرواح المتعلقة بتلك الأجساد التي قد فسدت .

أما قوله تعالى (وما أنت بمسمع من في القبور) فسياق الآية يدل على أن المراد منها
أن الكافر الميت القلب لا تقدر على سماعه اسماعاً ينتفع به كما أن من في القبور لا تقدر على
إسماعهم اسماعاً ينتفعون به ولم يرد سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئاً البتة كيف
وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين وأخبر أن قتلى بدر
سمعوا كلامه وخطابه وشرح السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع وأخبر أن من
سلم على أخيه المؤمن رد عليه السلام .

هذه الآية نظير قوله (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين)
وقد يقال نفي اسماع الصم مع نفي إسماع الموتى يدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للسمع

وأن قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان اسماعها ممتعا بمنزلة خطاب الميت والاصم وهذا حق واسكن لا ينفق لإسماع الأرواح بعد الموت لإسماع توييخ وتقرير بواسطة تعلقها بالأبدان في وقت ما فهذا غير الاسماع المنفى والله أعلم .

وحقيقة المعنى أنك لا تستطيع أن تسمع من لم يشأ الله أن يسمعه ان أنت إلا نذير أى إنما جعل الله لك الاستطاعة على الانذار الذى كلفك إياه لاعلى لإسماع من لم يشأ الله لإسماعه .
وأما قوله إن الحديث لا يصح لتفرد المنهال بن عمرو وحده به وليس بالقوى ، فهذا من مجازفته رحمه الله فالحديث صحيح لا شك فيه وقد رواه عن البراء بن عازب جماعة غير زاذان منهم عدى بن ثابت ومحمد بن عقبة ومجاهد .

(قال) الحافظ أبو عبد الله بن منده في (كتاب الروح والنفس) أخبرنا محمد بن يعقوب ابن يوسف حدثنا محمد بن اسحق الصفار أنبأنا أبو النضر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جنازة رجل من الأنصار فأتيناهما إلى القبر ولما يلحد جلوسنا وجلس كأن على أكتافنا فلق الصخر وعلى رءوسنا الطير فأرم قليلا ، والارمام السكوت ، فلما رفع رأسه قال إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة ودبر من الدنيا وحضره ملك الموت نزلت عليه ملائكة معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة جلسوا منه مد البصر وجاء ملك الموت لجلس عند رأسه ثم قال اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه فنزل (١) نفسه كما تنظر للقطرة من السماء فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل من بين السماء والارض إلا الثقلين ثم يصعد به إلى السماء فتفتح له السماء ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة إلى العرش مقربو كل سماه فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه في عليين ويقول الرب عز وجل ردوا عبدى إلى مضجعه فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فيرد إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يشيران الارض بأنبياهما ويفحصان الارض بأشعارهما فيجلسانه ثم يقال له يا هذا من ربك ؟ فيقول ربى الله ، فيقولان صدقت ثم يقال له ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان صدقت ، ثم يقال له من نبيك ؟ فيقول محمد رسول الله ، فيقولان صدقت ، ثم يفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول جزاك الله خيراً فوالله ما علمت إن كنت لسريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فيقول وأنت جزاك الله خيراً فن أنت ؟ فيقول أنا علمك الصالح ، ثم يفتح له باب إلى الجنة فينظر

(١) الظاهر : فتسيل .

إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة ، وان الكافر إذا كان في دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه من السماء ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من نارقال فيجلسون منه مد بصره وجاء ملك الموت فيجلس عند رأسه ثم قال اخرجي أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى غضب الله وسخطه فتفرق روحه في جسده كراهية ان تخرج لما ترى وتأمين فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول فإذا خرجت نفسه لعنه كل شيء بين السماء والأرض إلا الثقلين ثم يصعد به إلى السماء فتغلق دونه فيقول الرب عز وجل ردوا عبدى إلى مضجعه فإني وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فترد روحه إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران في الأرض بأنبياهما ويفحصان الأرض بأشعارهما أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه ثم يقولان يا هذا من ربك ؟ فيقول لا أدري ، فينادى من جانب القبر لادريت فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول جزاك الله شرأ فوالله ما علمت إن كنت لبطيئاً من طاعة الله سريعاً في معصية الله فيقول ومن أنت ؟ فيقول أنا عملك الخبيث ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة رواه الإمام أحمد ومحمود بن غيلان وغيرهما عن أبي النضر .

ففيه أن الأرواح تعاد إلى القبر وأن الملكين يجلسان الميت ويستنطقانه .

(ثم ساقه) ابن منده من طريق محمد بن سلة عن خفيف الجزرى عن مجاهد عن البراء ابن عازب قال كنا في جنازة رجل من الأنصار ومعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانتبهنا إلى القبر ولم يلد ولم يولد ووضعنا الجنازة وجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال إن المؤمن إذا احتضر أتاه ملك الموت في أحسن صورة وأطيبه ريحاً^(١) فجلس عنده لقبض روحه وأتاه ملكان بحنوط من الجنة وكفن من الجنة وكانا منه على بعد فاستخرج ملك الموت روحه من جسده رشحاً فإذا صارت إلى ملك الموت ابتدرها الملكان فأخذها منه فخطاها بحنوط من الجنة وكفنها بكفن من الجنة ثم عرجا به إلى الجنة ففتح له أبواب السماء وتستبشر الملائكة بها ويقولون لمن هذه الروح الطيبة التي فتحت لها أبواب السماء ؟ ويسمى بأحسن الاسماء التي كان يسمى بها في الدنيا ، فيقال هذه روح فلان فإذا صعد بها إلى السماء شيعها مقربو كل سماء حتى توضع بين يدي الله عند العرش فيخرج عملها من عليين فيقول الله عز وجل للقربين اشهدوا أنى قد غفرت لصاحب هذا العمل ويختم كتابه فيرد في عليين فيقول الله عز وجل

(١) كذا في الأصل . ولعله : وأطيبها ريحاً .

ردوا روح عبدى إلى الارض فإني وعدتهم أنى أردم فيها ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) فإذا وضع المؤمن في قبره فتح له باب عند رجليه إلى الجنة فيقال له أنظر إلى ما أعد الله لك من الثواب ويفتح له باب عند رأسه إلى النار فيقال له أنظر ما صرف الله عنك من العذاب ثم يقال له تم قرير العين فليس شيء أحب إليه من قيام الساعة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا وضع المؤمن في لحده تقول له الارض إن كنت لحبيبا إلى وأنت على ظهري فكيف إذا صرت اليوم في بطنى سأريك ما أصنع بك فيفسح له في قبره مد بصره ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا وضع الكافر في قبره أتاه منكر وتكبر فيجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول لا أدري فيقولان له لادريت فيضربانه ضربة فيصير رمادا ثم يعاد فيجلس فيقال له ما قولك في هذا الرجل؟ فيقول أى رجل فيقولان محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيقول قال الناس أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيضربانه ضربة فيصير رمادا .

هذا حديث ثابت مشهور مستفيض صححه جماعة من الحفاظ ولا نعلم أحداً من أئمة الحديث طعن فيه بل روه في كتبهم وتلقوه بالقبول وجملوه أصلاً من أصول الدين في عذاب القبر ونعيمه ومساءلة منكر وتكبر وقبض الأرواح وصعودها إلى بين يدي الله ثم رجوعها إلى القبر وقول أبي محمد لم يروه غير زاذان فوهم منه بل رواه عن البراء غير زاذان ورواه عنه عدى بن ثابت ومجاهد بن جبير ومحمد بن عتبة وغيرهم وقد جمع الدارقطنى طرقة في مصنف مفرد ، وزاذان من الثقة روى عن أكابر الصحابة كعمر وغيره وروى له مسلم في صحيحه قال يحيى بن معين ثقة وقال حميد بن هلال وقد سئل عنه هو ثقة لا تسأل عن مثل هؤلاء وقال ابن عدى أحاديثه لا بأس بها إذا روى عن ثقة .

وقوله ان المنهال بن عمرو تفرد بهذه الزيادة وهي قوله فتعاد روحه في جسده وضعفه . فالمنهال أحد الثقة العدول ، قال ابن معين المنهال ثقة ، وقال العجلي كوفي ثقة . وأعظم ما قيل فيه أنه سمع من بيته صوت غناء وهذا لا يوجب القدح في روايته واطراح حديثه وتضعيف ابن حزم له لاشيء فإنه لم يذكر موجبا لتضعيفه غير تفرده بقوله فتعاد روحه في جسده وقد بينا أنه لم يتفرد بها بل قد رواها غيره وقد روى ما هو أبلغ منها أو نظيرها كقوله فترد إليه روحه وقوله فتصير إلى قبره فيستوى جالساً ، وقوله فيجلسانه ، وقوله فيجلس في قبره ، وكلها أحاديث صحاح لا مغمز فيها . وقد أعل غيره بأن زاذان لم يسمعه من البراء وهذه العلة باطلة فإن أباعوانة الاسفرائينى رواه في صحيحه بإسناده وقال عن أبي عمرو زاذان الكندى قال سمعت البراء بن عازب ، وقال الحافظ أبو عبد الله بن منده هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء .

ولو نزلنا عن حديث البراء فسائر الأحاديث الصحيحة صريحة في ذلك مثل حديث ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قال اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب أخرجي حميدة وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان قال فيقول ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا؟ فيقولون فلان^(١) فيقولون مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد ادخلي حميدة وابشري وريحان ورب غير غضبان فيقال لها ذلك حتى يفتى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قال اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وأبشري بجميم وغساق وآخر من شكله أزواج فيقولون ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا؟ فيقولون فلان ، فيقولون لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنها لن تفتح لك أبواب السماء فتُرسل بين السماء والأرض فتصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا موقوف ثم يقال فإنت تقول في الإسلام ما هذا الرجل؟ فيقول محمد رسول الله جاءنا بالبينات من قبل الله فأماناً وصدقنا . وذكر تمام الحديث .

قال الحافظ أبو نعيم هذا حديث متفق على عدالة ناقله اتفق الإمامان محمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج عن ابن أبي ذئب ومحمد بن عمرو بن عطاء وسعيد بن يسار وهم من شرطهما ، ورواه المتقدمون الكبار عن ابن أبي ذئب مثل ابن أبي فديك وعبد الرحيم بن ابراهيم انتهى . ورواه عن ابن أبي ذئب غير واحد .

(وقد احتج) أبو عبد الله بن منده على إعادة الروح إلى البدن بأن قال حدثنا محمد بن الحسين ابن الحسن حدثنا محمد بن زيد النيسابوري حدثنا حماد بن قيراط حدثنا محمد بن الفضل عن يزيد بن عبد الرحمن الصائغ البلخي عن الضحاک بن مزاحم عن ابن عباس أنه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم قاعد تلا هذه الآية (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم) الآية قال والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار ، ثم قال فإذا كان عند ذلك صفاه سماطان من الملائكة ينتظان ما بين الخافقين كأن وجوههم الشمس فينظر إليهم ما ترى غيرهم وإن كنتم ترون أنهم ينظرون^(٢) إليكم مع كل منهم أكفان وخطوط فإن كان مؤمناً بشروه بالجنة وقالوا

(١) في نسخة : فلان ابن فلان .

(٢) هكذا في المنقول عنه . والظاهر : أنه ينظر إليكم .

أخرجى أيتها النفس الطيبة إلى رضوان الله وجنته فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير من الدنيا وما فيها فلا يزالون يبشرونه ويخفون به فهم أطف وأرف من الوالدة بولدها ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل ويموت الأول فالأول ويهون عليه وكنتم تروه عندي به حتى تبلغ ذقنه قال فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولاد حين يخرج من الرحم فيبتدرها كل ملك منهم أيهم يقبضها فيتولى قبضها ملك الموت ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجون) فبتلقاها بأكفان بيض ثم يحتضنها إليه فهو أشد لزوما لها من المرأة إذا ولنتها ثم يقوح منها ريح أطيّب من المسك فيستشقون ريحها ويتباشرون بها ويقولون مرحباً بالروح الطيبة والروح الطيب اللهم صل عليه روحاً وعلى جسده خرجت منه قال فيصعدون بها والله عز وجل خلق في الهواء لا يعلم عددهم إلا هو فيقوح لهم منها ريح أطيّب من المسك فيصلون عليها ويتباشرون ويفتح لهم أبواب السماء فيصل عليها كل ملك في كل سماء تمر بهم حتى ينتهي بها بين يدي الملك الجبار فيقول الجبار جل جلاله مرحباً بالنفس الطيبة وبجسد خرجت منه وإذا قال الرب عز وجل للشيء مرحباً وحب له كل شيء وينهب عنه كل ضيق ثم يقول لهذه النفس الطيبة أدخلوها الجنة وأروها مقعدها من الجنة وأعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والتعظيم ثم اذهبوا بها إلى الأرض فإنني قضيت أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فوالذي نفس محمد بيده لمي أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول أين تذهبون بي إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه ؟ قال فيقولون إنا مأمورون بهذا فلا بد لك منه فيهبون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه .

فدل هذا الحديث أن الروح تعاد بين الجسد والأكفان وهذا هو غير التعلق الذي كلني لها في الدنيا بالبدن وهو نوع آخر وغير تعلقها به حال النوم وغير تعلقها به وهي في مرقها بل هو عود خاص للساعة .

قال شيخ الإسلام الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال ، وسؤال البدن بلا روح قوله طائفة من الناس وأنكره الجمهور وقابلهم آخرون فقالوا السؤال للروح بلا بدنه وهذا قاله ابن مرة وابن حزم وكلاهما غلط والأحاديث الصحيحة ترده ولو كان ذلك على الروح فقط لم يكن القبر بالروح اختصاص .

وهذا يتضح بجواب المسألة

وهي قول السائل هل عذاب القبر على النفس والبدن أو على النفس دون البدن أو على البدن دون النفس . وهل يشارك البدن النفس في التعميم والعذاب أم لا ؟

وقد سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة ونحن نذكر لفظ جوابه فقال « بل العذاب والتعميم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة تعمم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها فيكون التعميم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين كما تكون على الروح منفردة عن البدن . وهل يكون العذاب والتعميم للبدن بدون الروح ؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام ، وفي المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث . قول من يقول إن التعميم والعذاب لا يكون إلا على الروح وإن البدن لا ينعم ولا يعذب ، وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان وهؤلاء كفار باجماع المسلمين ويقولون كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقرون بمعاد الأبدان لكن يقولون لا يكون ذلك في البرزخ وإنما يكون عند القيام من القبور لكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن في البرزخ فقط ويقولون إن الأرواح هي المنعمة أو المعذبة في البرزخ فإذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معاً وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من أهل الكلام والحديث وغيرهم وهو اختيار ابن حزم وابن مرة فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة بل هو مضاف إلى قول من يقول بعذاب القبر ويقرر بالقيامه ويثبت معاد الأبدان والأرواح ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال :

(أحدها) أنه على الروح فقط .

(الثاني) أنه عليها وعلى البدن بواسطتها .

(الثالث) أنه على البدن فقط وقد يضم إلى ذلك القول الثاني وهو قول من ثبت عذاب

القبر ويجعل الروح هي الحياة ويجعل الشاذ قول منكر عذاب الأبدان مطلقاً وقول من ينكر عذاب الروح مطلقاً فإذا جعلت الأقوال الشاذة ثلاثة فالقول الثاني الشاذ قول من يقول إن الروح ينفرد بها لاتعم ولا تعذب وإنما الروح هي الحياة وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والاشعرية كالمقاضي أبي بكر وغيره وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن وهذا قول باطل وقد خالف أصحابه أبو المعالي الجويني وغيره بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة أن الروح تبقى بعد فراق البدن وأنها منعمة أو معذبة والفلاسفة الإلهيون يقرون بذلك لكن ينكرون معاد الأبدان وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان لكن ينكرون

معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان وكلا القولين خطأ وضلال لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام .

والقول الثالث الشاذ قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم عن ينكر عذاب القبر ونعيمه بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن وأن البدن لا ينعم ولا يعذب لجميع هؤلاء الطوائف ضلال في أمر البرزخ لكنهم خير من الفلاسفة فانهم مقرون بالقيامة الكبرى .

فصل

فاذا عرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة وأنها تتصل بالبدن أحيانا ويحصل له معها النعيم أو العذاب ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى .

فصل

ونحن ثبت ما ذكرناه فأما أحاديث عذاب القبر ومساواة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة ثم دعا بجريدة رطبة فشققها نصفين فقال لعله يخفف عنهما ما لم يببسا .

(وفي صحيح مسلم) عن زيد بن ثابت قال بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حائط لبني النجار على بقلته ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه فإذا أكبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال من يعرف أصحاب هذه القبور؟ فقال رجل أنا ، قال فتى مات هؤلاء؟ قال ماتوا في الإشرار فقال إن هذه الأمة تبلى في قبورها هلولا أن لاتدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ثم أقبل علينا بوجهه فقال تعوذوا بالله من عذاب النار ، قالوا نعوذ بالله من عذاب النار ، قال تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال تعوذوا بالله من فتنة الدجال ، قالوا نعوذ بالله من فتنة الدجال .

(وفي صحيح مسلم) وجميع السنن عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال
إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع ، من عذاب جهنم ومن عذاب القبر
ومن فتنة الحيا والمات ومن فتنة المسيح الدجال .

(وفي صحيح مسلم) أيضاً وغيره عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما
يعلمهم السورة من القرآن ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر
وأعوذ بك من فتنة الحيا والمات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال .

(وفي الصحيحين) عن أبي أيوب قال خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد وجبت
الشمس فسمع صوتاً فقال يهود تعذب في قبورها .

(وفي الصحيحين) عن عائشة رضی الله عنها قالت دخلت على عجوز من عجائز يهود المدينة
فقال ان أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قالت فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها قالت نخرجت
ودخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا رسول الله ان عجوزا من عجائز يهود
أهل المدينة دخلت فرعمت أن أهل القبور يعذبون في قبورهم قال صدقت انهم يعذبون عذابا
تسمعه البهائم كلها قالت فما رأيت بعد في صلاة الا يتعوذ من عذاب القبر .

(وفي صحيح ابن حبان) عن أم مبشر قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وهو يقول تعوذوا بالله من عذاب القبر ، فقلت يا رسول الله وللقبر عذاب ؟ قال إنهم
ليعذبون في قبورهم عذاباً تسمعه البهائم .

(قال) بعض أهل العلم ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلت إلى قبور اليهود
والنصارى والمنافقين كالاسماعيلية والنصيرية والقرامطة من بني عبيد وغيرهم الذين بأرض
مصر والشام فان أصحاب الخيل يقصدون قبورهم لذلك كما يقصدون قبور اليهود والنصارى
قال فاذا سمعت الخيل عذاب القبر أحدث لها ذلك فزعها وحرارة تذهب بالمغل .

(وقد قال) عبد الحق الأشيبلى حدثني الفقيه أبو الحكم بن برخان وكان من أهل العلم
والعمل أنهم دفنوا ميتاً بقرتهم في شرف أشيبيلية فلما فرغوا من دفنه قعدوا ناحية يتحدثون
ودابة ترعى قريباً منهم فإذا بالدابة قد أقبلت مسرعة إلى القبر فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع
ثم ولت فارة ثم عادت إلى القبر فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع ثم ولت فارة فعلت ذلك
مرة بعد أخرى .

قال أبو الحكم فذكرت عذاب القبر وقول النبي صلى الله عليه وسلم أنهم ليعذبون عذابا
تسمعه البهائم .

ذكر لنا هذه الحكاية ونحن نسمع عليه كتاب مسلم لما انتهى القارىء إلى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم .

وهذا السماع واقع على أصوات المعذبين . قال هناد بن السرى فى كتاب الزهد حدثنا وكيع عن الأعمش عن شقيق عن عائشة رضى الله عنها قالت دخلت على يهودية فذكرت عذاب القبر فكذبها فدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على فذكرت ذلك له فقال والنبي نفسى بيده إنهم ليعذبون فى قبورهم حتى تسمع البهائم أصواتهم .

(قلت) وأحاديث المسألة فى القبر كثيرة كما فى الصحيحين والسنن عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال المسلم إذا مثل فى قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قول الله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وفى لفظ نزلت فى عذاب القبر يقال له من ربك ؟ فيقول الله ربى ومحمد نبي فذلك قول الله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) .

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسائيد مطولاً كما تقدم .

وقد صرح فى هذا الحديث بإعادة الروح إلى البدن باختلاف أضلاعه وهذا بين فى أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين .

وقد روى مثل حديث البراء قبض الروح والمسألة والنعم والعذاب أبو هريرة (وحديث) فى المسند وصحيح أبي حاتم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الميت إذا وضع فى قبره أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجله فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قبل مدخل ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام ما قبل مدخل ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة ما قبل مدخل ثم يؤتى من قبل رجله فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان ما قبل مدخل فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد أخذت الثروب فيقال له هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول دهونى حتى أصلى فيقولون انك ستصلى أخبرنا عما نسألك عنه أرايت هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه وما تشهد عليه ؟ فيقول محمد ، أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله ، فيقال له على ذلك حيت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويعاد الجسد لما بهدم

منه وتجعل نسمة في النسم الطيب وهي طير معلق في شجر الجنة قال فذلك قول الله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وذكر في الكافر عند ذلك إلى أن قال ثم يضيق عليه في قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التي قال الله تعالى (فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى).

(وفي الصحيحين) من حديث قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع خفق نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال فيقول أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهما جميعاً. قال قتادة وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً يملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون، ثم رجع إلى حديث أنس قال فأما الكافر وللناسق فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقولان لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين.

(وفي صحيح أبي حاتم) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قبر أحدكم أو الإنسان أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر التكبير فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو قائل ما كان يقول فإن كان مؤمناً قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقولان له إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً وينور له فيه ويقال له ثم فيقول ارجع إلى أهلي ومالي فأخبرهم فيقولان ثم كومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً قال لا أدري كنت أسمع الناس يقولون شيئاً فنكت أقوله فيقولان له كنا نعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التسمى عليه فتلتم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معنياً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وهذا صريح في أن البدن يعذب.

(وعن أبي هريرة) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إذا احتضر المؤمن أتته الملائكة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجي أيتها الروح الطيبة راضية مرضياً عنك إلى روح وريحان ورب غدير غضبان فتخرج كأطيب من ريح المسك حتى أنه ليتأوله بعضهم بعضاً حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ما أطيب هذه الريح التي جاءتك من الأرض! فيأتون به أرواح المؤمنين فهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه ماذا فعل فلان؟ قال فيقولون

دعوه يستريح فانه كان في غم الدنيا فاذا قال انا كم فيقولون انه ذهب به إلى أمه الهاوية ، وإن الكافر إذا احتضر أته ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون اخرجي مسخوطاً عليك إلى عذاب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون فما أنتن هذه الروح (١) حتى يأتوا به أرواح الكفار . رواه النسائي والبخاري ومسلم مختصراً .

(وأخرجه أبو حاتم في صحيحه) وقال إن المؤمن إذا حضره الموت حضرته ملائكة الرحمة فاذا قبض جعلت روحه في حريرة بيضاء فينطلق بها إلى باب السماء فيقولون ما وجدنا ريحاً أطيب من هذه فيقال ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فيقال دعوه يستريح فانه كان في غم الدنيا وأما الكافر إذا قبضت نفسه ذهب بها إلى الأرض فتقول خزنة الأرض ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه ! فيبلغ بها إلى الأرض السفلى .

(وروى) النسائي في سننه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال هذا الذي تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهد له سبعون ألفاً من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه ، قال النسائي يعني سعد بن معاذ .

(وروى) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للقبر ضغطة لو نجا منها أحد انجا منها سعد بن معاذ . رواه من حديث شعبة .

(وقال) هناد بن السرى حدثنا محمد بن فضيل عن أبيه عن ابن أبي مليكة قال ما أجبر من ضغطة القبر أحد ولا سعد بن معاذ الذي منديل من مناديله خير من الدنيا وما فيها .

(قال) وحدثنا عبدة عن عبيد الله بن عمر عن نافع قال لقد بلغني أنه شهد جنازة سعد ابن معاذ سبعون ألف ملك لم ينزلوا إلى الأرض قط ، ولقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لقد ضم صاحبكم في القبر ضمة .

(وقال) علي بن معبد حدثنا عبيد الله عن زيد بن أبي أنيسة عن جابر عن نافع قال أتينا صفية بنت أبي عبيد امرأة عبد الله بن عمر وهي فزعة فقلنا ما شأنك ؟ فقالت جئت من عند بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالت فحدثني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن كنت لأرى لو أن أحدا أعفى من عذاب القبر لأعفى منه سعد بن معاذ لقد ضم فيه ضمة .

(١) الريح : هكذا في سنن النسائي .

(وحدثنا) مروان بن معاوية عن العلاء بن المسيب عن معاوية العبيسي عن زاذان ابن عمرو^(١) قال لما دفن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابنته لجلس عند القبر فتربد وجهه ثم سرى عنه فقال له أصحابه رأينا وجهك آنفا ثم سرى فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت ابنتي وضعفها وعذاب القبر فدعوت الله ففرج عنها وأيم الله لقد ضمت ضمة سمعها من بين الخافقين .

(وحدثنا) شعيب عن ابن دينار عن إبراهيم الغنوي عن رجل قال كنت عند عائشة رضی الله عنها فمرت جنازة صبي صغير فبكيت فقلت لها ما يبكيك يا أم المؤمنين فقالت هذا الصبي بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر .
ومعلوم أن هذا كله للجسد بواسطة الروح .

فصل

وهذا كما أنه مقتضى السنة الصحيحة فهو متفق عليه بين أهل السنة . قال المروزي قال أبو عبد الله عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال أو مضل . وقال حنبل قلت لابي عبد الله في عذاب القبر فقال هذه أحاديث صحاح تؤمن بها ونقر بها ، كلما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إسناد جيد أقررنا به . إذا لم نقر بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفعناه ورددناه ورددنا على الله أمره قال الله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه) قلت له وعذاب القبر حق ؟ قال حق يعذبون في القبور . قال وسمعت أبا عبد الله يقول تؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير وأن العبد يسأل في قبره فد (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) في القبر .

(وقال) أحمد بن القاسم قلت يا أبا عبد الله تقر بمنكر ونكير وما يروى في عذاب القبر ؟ فقال سبحان الله نعم نقر بذلك ونقوله ، قلت هذه اللفظة تقول منكرو ونكير هكذا أو تقول ملكين ؟ قال منكر ونكير ، قلت يقولون ليس في حديث منكر ونكير قال هو هكذا يعني أنهما منكر ونكير .

وأما أقوال أهل البدع والضلال فقال أبو الهذيل والمريسي من خرج عن سمة الإيمان فإنه يعذب بين النفتحين ، والمسألة في القبر إنما تقع في ذلك الوقت .

^(١) هكذا في الاصل ولعله : عن زاذان عن عمر أو ابن عمر .

وأثبت الجبائي وإنه البلخي عذاب للقبر ولكنهم نفوه عن المؤمنين وأثبتوه لأصحاب
التخليد من الكفار والفاسق على أصولهم .

(وقال) كثير من المعتزلة لا يجوز تسمية ملائكة الله بمنكر ونكير وإنما المنكر
ما يبدو من تلطجه إذا سئل والتكير تحريم الملكين له .

وقال الصالحى وصالح فيه عذاب القبر يجرى على المؤمن من غير رد الأرواح إلى الاجساد
والميت يجوز أن يألم ويحس ويعلم بلا روح ، وهذا قول جماعة من الكرامية .

(وقال) بمض المعتزلة ان الله سبحانه يعذب الموتى في قبورهم ويحدث فيهم الآلام وهم
لا يشعرون فإذا حشروا وجدوا تلك الآلام وأحسوا بها ، قالوا وسبيل المعذبين من الموتى
كسبيل السكران والمغشى عليه لو ضربوا لم يمدوا الآلام فإذا عاد عليهم للعقل أحسوا
بألم الضرب .

وأنكر جماعة منهم عذاب القبر رأساً مثل ضرار بن عمرو ويحيى بن كامل ، وهو قول
المريسي ، فهذه أقوال أهل الخرية والضلال .

فصل

وما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله
نصيبه منه قبر أو لم يقبر فلو أكلته السباع أو أحرقت حتى صار رماداً ونسف في الهواء أو صلب
أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور .

(وفي صحيح البخارى) عن سمرة بن جندب قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم
إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجه فقال من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ قال فان رأى أحد رؤيا
قصها فيقول ماشاء الله فسألنا يوماً فقال هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا لا ، قال لكنى رأيت
الليلة رجلين اتيانى فأخذنا بيدي وأخرجاني إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل
قائم بيده كlob من حديد يدخله في شدقه حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك
ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله قلت ما هذا ؟ قال انطلق فانطلقنا حتى أتينا على رجل
مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فهر فيشدها بها رأسه فإذا ضربه تدمده
الحجر فانطلق اليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه
فضربه . قلت ما هذا ؟ قال انطلق فانطلقنا إلى نقب مثل التتور أعلاه ضيق وأسفله واسع
يوقد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم الهب من تحتهم فإذا اقرب ارتفعوا حتى

كادوا يخرجوا فإذا خمدت رجعوا ، فقلت ما هذا ؟ قالوا انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذى فى النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فرجع كما كان فقلت ما هذا ؟ قالوا انطلق فانطلقنا حتى أتينا الى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفى أصلها شيخ وصبيان وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا بنى الشجرة وأدخلانى داراً لم أرقط أحسن منها فيها شيوخ وشبان ثم صعدا بنى فأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل ، قلت طوبقمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت قالوا نعم الذى رأيت يشق صدقه كذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيضع به إلى يوم القيامة ، والذى رأيت يشدخ رأسه فرجل عليه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة ، وأما الذى رأيت فى القبر فهم الزناة ، والذى رأيت فى النهر فأكل الربا . وأما الشيخ الذى فى أصل الشجرة فيأبراهيم والصبيان حوله فأولاد الناس ، والذى يوقد النار فمالك خازن النار ، والدار الأولى دار عامة المؤمنين ، وأما هذه الدار فدار الشهداء وأنا جبرائيل وهذا ميكائيل ، فأرجع رأسك فرفعت رأسى فإذا قصر مثل السحابة قال ذلك منزلك ، قلت دعانيه أدخل منزلى قالوا انه بقى لك عمر لم تستكمله فلو استكلمته أتيت منزلك .

وهذا نص فى عذاب البرزخ فإن رؤيا الانبياء وحى مطابق لما فى نفس الامر .

(وقد ذكر) الطحاوى عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال امر بعبد من عباد الله ان يضرب فى قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة فامتلاً قبره عليه ناراً فلما ارتفع عنه أفاق فقال علام جلدة منى ؟ قالوا إنك صليت صلاة بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره .

(وذكر البيهقى) حديث الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه الآية (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً) إلا أنه أتى بقرس فجعل عليه قال كل خطوة منتهى أقصى بصره فسار وسار معه جبريل فألقى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال يا جبرائيل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله يضاعف لهم الحسنات بسبعائة (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) ثم أتى على قوم ترضح زهوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شىء من ذلك قال يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين تتناقل زهوسهم عن الصلاة ، قال ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أديبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الانعام على الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها قال ما هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم

وما ظلمهم الله وما الله بظلام للعبيد ، ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم من قدر نضيج ولحم آخر خبيث فجعلوا يأكلون من الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هذا الرجل يقوم وعنده امرأة حللا طيبا فيأتى المرأة الخبيثة فتبيت معه حتى تصبح ، ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها شيء إلا قصفته ^(١) يقول الله تعالى (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) ثم مر على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها قال يا جبريل ما هذا ؟ قال هذا رجل من أمتك عليه أمانة لا يستطيع أداءها وهو يزيد عليها ، ثم أتى على قوم تقرض شفاهم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفرغ عنهم شيء ، قال يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء خطباء الفتنة ثم أتى على جحر صغير يخرج منه نور عظيم لجعل النور يريد أن يدخل من حيث خرج ولا يستطيع قال ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل يتكلم بالكلمة فيندم عليها فيريد أن يردها فلا يستطيع وذكر الحديث .

وذكر البيهقي أيضا في حديث الاسراء من رواية أنى سميد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال فصعدت أنا وجبريل فاستفتح جبريل فإذا بآدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها في عليين ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها في سجين ، ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس بقرها أحد وإذا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وتتن وعندها ناس يأكلون منها قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء يتركون الحلال ويأتون الحرام ، قال ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر يقول اللهم لاتقم الساعة قال وهم على سابلة آل فرعون قال فتجئ السابلة فتطأهم فيصيحون قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) قال ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بقوم مشافرم كشافر الإبل فتفتح أفواههم فيلقمون الجمر ثم يخرج من أسافلهم فسمعتهم يصيحون قلت من هؤلاء ؟ قال الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بنساء معلقات بئدين فسمعتن يصحن قلت من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الزواني ، ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون فيقال كل كما كنت تأكل لحم أخيك قلت من هؤلاء ؟ قال الهازون من أمتك وذكر الحديث بطوله .

^(١) سقط هنا شيء ، وفي الخصائص : لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلى خرقة قال ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه .

وفي سنن أبي داود من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت يا جبريل من هؤلاء؟ قال الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم .

(وقال) أبو داود الطيالسي في مسنده ، حدثنا شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتى على قبرين فقال إنها ليعذبان في غير كبير أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس وأما الآخر فكان صاحب نيممة ثم دعا بجريدة فشقاها نصفين فوضع نصفها على هذا القبر ونصفها على هذا القبر وقال عسى أن يخفف عنهما ما دامتا رطبتين .

وقد اختلف الناس في هذين هل كانا كافرين أو مؤمنين؟ كانا كافرين وقوله وما يعذبان في كبير يعني بالاضافة إلى الكفر والشرك قالوا ويدل عليه أن العذاب لم يرتفع عنها وإنما خفف ، وأيضا فإنه خفف مدة رطوبة الجريدة فقط ، وأيضا فإنها لو كانا مؤمنين لشفع فيها ودعا لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرفع عنها بشفاعته ، وأيضا ففي بعض طرق الحديث أنها كانا كافرين وهذا التعذيب زيادة على تعذيبها بكفرهما وخطاياهما وهو دليل على أن الكافر يعذب بكفره وذنوبه جميعا . وهذا اختيار أبي الحكم بن برخان .

وقيل كانا مسلمين لنعيه صلى الله عليه وآله وسلم التعذيب بسبب غير السببين المذكورين ولقوله وما يعذبان في كبير والكفر والشرك أكبر الكبائر على الإطلاق ولا يلزم أن يشفع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لكل مسلم يعذب في قبره على جريمة من الجرائم فقد أخبر عن صاحب الشملة الذي قتل في الجهاد أن الشملة تشتمل عليه نارا في قبره وكان مسلما مجاهدا ولا يعلم ثبوت هذه اللفظة وهي قوله كانا كافرين ولعلها لو صحت وكلا فهى من قول بعض الرواة ، والله أعلم . وهذا اختيار أبي عبد الله القرطبي .

المسألة السابعة

وهي قول السائل ماجوابنا لللاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر وسعته وضيقة وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة وكون الميت لا يجلس ولا يقعد فيه . قالوا فانا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عميا صما يضربون الموق بمطارق من حديد ولا نجد هناك حيات ولا ثعابين ولا نيرانا تأجج ولو كشفنا حاله في حالة من الاحوال لوجدناه لم يتغير ولو وضعنا على عينيه الزئبق وعلى صدره الخردل لوجدناه على حاله وكيف يفسخ

حد بصره أو يضيق عليه ونحن نجد به مجاله ونجد مساحته على حد ما حفرناها لم يزد ولم ينقص وكيف يسع ذلك الحد الضيق له ولللائكة وللصورة التي تؤنسه أو توحشه؟ قال إخوانهم من أهل البدع والضلال وكل حديث يخالف مقتضى العقول والحس يقطع بتخطئة قائمه قالوا ونحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لا يسأل ولا يجيب ولا يتحرك ولا يتوقد جسمه ناراً ومن افترسته السباع ونهشته الطيور وتفرقت أجزاءه في أجواف السباع وحواصل الطيور وبطن الحيتان ومدارج الرياح كيف تسأل أجزاءه مع تفرقها وكيف يتصور مسألة الملكين لمن هذا وصفه وكيف يصير القبر على هذا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار وكيف يضيق عليه حتى تلتشه أضلاعه؟ ونحن نذكر أموراً يعلم بها الجواب.

فصل

(الامر الأول) أن يعلم أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بما تحمله العقول وتقطع باستحالته بل اخبارهم قسبان :
(أحدهما) ما تشهد به العقول وانفطر .

(الثاني) ما لا تدركه العقول بمجرد ما كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر وتفاصيل الثواب والعقاب ولا يكون خبرهم محالاً في العقول أصلاً وكل خبر يظن أن العقل يحمله فلا يخلو من أحد أمرين إما يكون الخبر كذبا عليهم أو يكون ذلك العقل فلسفاً وهو شبهة خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح قال تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) وقال تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كن هو أعمى) وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه) والنفوس لا تفرح بالحال، وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) والحال لا يشقى ولا يحصل به هدى ولا رحمة ولا يفرح به . فهذا أمر من لم يستقر في قلبه خير ولم يثبت له على الإسلام قنم وكان أحسن أحواله الحيرة والشك .

فصل

(الامر الثاني) أن يفهم عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مراده من غير غلو ولا تقصير فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراده وما فاضده من الهدى والبيان .

وقد حصل باهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب وما لا يعلمه إلا الله بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد فيتنق سوء الفهم في بعض الأشياء من التسرع مع حسن قصده وسوء القصد من التابع فيا محنة الدين وأهله والله المستعان .

وهل أوقع القدريّة والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والرافضة وسائر طوائفهم أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله حتى صار الدين بأيدي أكثر الناس هو موجب هذه الأفهام ، والذي فهمه الصحابة ومن تبعهم عن الله ورسوله فهمجور لا يلتفت إليه ولا يرفع هؤلاء به رأسا . ولكثرة أمثلة هذه القاعدة تركناها فاننا لو ذكرناها لزدت على عشرة الوف حتى أنك لتر على الكتاب من أوله إلى آخره لتأجد صاحبه فهم عن الله ورسوله ومراده كما ينبغي في موضع واحد .

وهذا إنما يعرفه من عرف ما عند الناس وعرضه على ما جاء به الرسول وأما من عكس الأمر بعرض ما جاء به الرسول على ما اعتقده واتحله وقلد فيه من أحسن به الظن ظنيس يمدى الكلام معه شيئا فدمعه وما اختاره لنفسه ووله ما تولى واحد الذي عاقله عما ابتلاه به .

فصل

(الأمر الثالث) أن الله سبحانه جعل الدور ثلاثا ، دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاما تختص بها وركب هذا الانسان من بدن ونفس وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح وإن أضمرت النفوس خلافه . وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فتأملت بألمها والتفت براحتها وكانت هي التي باشرت أسباب النعم والعذاب تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعم فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية والأبدان كالقبورها والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية في قبورها تجري أحكام البرزخ على الأرواح فتسرى إلى أبدانها نعيماً أو عذاباً كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسرى إلى أرواحها نعيماً أو عذاباً فأخطبنا الموضوع علماً واعرفه كما ينبغي يزبل منك كل اشكال يورد عليك من داخل وخارج .

وقد أرانا الله سبحانه بلفظه ورحته وهديته من ذلك أمودجا في الدنيا من حال القائم فإن ما ينعم به أو يعذب في نومه يجرى على روحه أصلا والبدن تبع له وقد يقوى حتى يؤثر

في البدن تأثيراً مشاهداً فيرى النائم في نومه أنه ضرب فيصبح وأثر الضرب في جسمه ويرى أنه قد أكل أو شرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه ويذهب عنه الجوع والظما .

وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم في نومه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك ، وذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجه ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس فإذا كانت الروح تتألم وتتعمع ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستبعا فكذا في البرزخ بل أعظم فإن تجرد الروح هنالك أكمل وأقوى وهي متعلقة ببدنها لم تقطع عنه كل الاقطاع فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً أصلاً .

ومتى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسعته وضمه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة مطابق للعقل وأنه حق لا مربة فيه وإن من أشكل عليه ذلك فن سوء فهمه وقلة علمه أتى كما قيل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم

وأعجب من ذلك أنك تحمد النائمين في فراش واحد وهذا روحه في النعم ويستيقظ وأثر النعم على بدنه ، وهذا روحه في العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر فأمر البرزخ أعجب من ذلك .

فصل

(الأمر الرابع) أن الله سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متصلاً بها غيباً وحجباً عن إدراك المكلفين في هذه الدار وذلك من كمال حكمته ولتتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم فأول ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر وتجلس قريباً منه ويشاهدون عياناً ويتجدثون عنده ومعهم الأكفان والخنوط إما من الجنة وإما من النار ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر وقد يسلبون على المحتضر ويرد عليهم تارة بلفظه وتارة بإشارته وتارة بقلبه حيث لا يتمكن من نطق ولا إشارة .

(وقد سمع) بعض المحتضرين يقول أهلاً وسهلاً ومرحباً بهذه الوجوه .

(وأخبرني) شيخنا عن بعض المحتضرين فلا أدري أشاهده وأخبر عنه أنه سمع وهو يقول عليك السلام هاهنا فالجلس ، وعليك السلام هاهنا فالجلس .

(وقصة) خير الناس رحمة الله مشهورة حيث قال عند الموت اصبر عافاك الله فان ما أمرت به لا يفوت وما أمرت به يفوت ثم استدعى بياه فتوضأ وصلى ثم قال امض لما أمرت به ومات .

(وذكر) ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبد العزيز لما كان في يومه الذي مات فيه قال أجلسوني فأجلسوه فقال : أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر فقالوا انك لتتظر نظراً شديداً يا أمير المؤمنين فقال إني لأرى حضرة مأم بانس ولاجن ثم قبض .

(وقال) مسلمة بن عبد الملك لما احتضر عمر بن عبد العزيز كما عنده في قبة فأومى إلينا أن اخرجوا فخرجنا فقمعدنا حول القبة وبقى عنده وصيف فسمعناه يقرأ هذه الآية (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) ما أتم بانس ولاجان ثم خرج الوصيف فأومى إلينا أن ادخلوا فدخلنا فإذا هو قد قبض .

(وقال) فضالة بن دينار حضرت محمد بن واسع وقد سجنى للموت فجعل يقول مرحباً بملائكة ربي ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وشممت رائحة طيب لم أشم قط أطيب منها ثم شخص ببصره فات .

والآثار في ذلك أكثر من أن تحصر .

وأبلغ وأكثى من ذلك كله قول الله عز وجل (فلو لا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) أى أقرب إليه بملائكتنا ورسلتنا ولكنكم لا ترونهم فهذا أول الأمر وهو غير مرئي لنا ولا مشاهد وهو في هذه الدار .

ثم يمد الملك يده إلى الروح فيقبضها ويحاطبها والحاضرون لا يرونه ولا يسمعون ثم يخرج فيخرج لها نور مثل شعاع الشمس ورائحة أطيب من رائحة المسك والحاضرون لا يرون ذلك ولا يشمونه .

ثم تصعد بين سماطين من الملائكة والحاضرون لا يرونهم .

ثم تأتي الروح فتشاهد غسل البدن وتكفينه وحمله وتقول قدموني قدموني أو إلى أين تذهبون بي ولا يسمع الناس ذلك فإذا وضع في لحده وسوى عليه التراب لم يحجب التراب الملائكة عن الوصول إليه بل لو نقر له حجر فأودع فيه وختم عليه بالرصاص لم يمنع وصول الملائكة إليه فإن هذه الأجسام الكثيفة لا تمنع خرق الأرواح لها ، بل الجن لا يمنعها ذلك ، بل قد جعل الله سبحانه الحجارة والتراب للملائكة بمنزلة الهواء للطير واتساع القبر وانفساحه للروح

بالذات والبدن تبعاً فيكون البدن في لحد أضيق من ذراع وقد فسح له مد بصره تبعاً لروحه وأما عصرة القبر حتى تختلف بعض أجزاء الموتى فلا يرده حس ولا عقل ولا فطرة ولو قدر أن أحداً نبش عن ميت فوجد أضلاعه كما هي لم تختلف لم يمنع أن تكون قد عادت إلى حالها بعد العصرة فليس مع الزنادقة والملاحدة إلا مجرد تكذيب الرسول .

ولقد أخبر بعض الصادقين أنه حفر ثلاثة أقبور فلما فرغ منها اضطجع ليستريح فرأى فيما يرى النائم ملكين نزلاً فوقاً على أحداً الأقبور فقال أحدهما لصاحبه اكتب فرسخاً في فرسخ ثم وقف على الثاني فقال اكتب ميلاً في ميل ثم وقف على الثالث فقال اكتب قترا في قتر ثم انتبه لجنى برجل غريب لا يؤبه له فدفن في القبر الأول ثم جرى برجل آخر فدفن في القبر الثاني ثم جرى بامرأة مترفة من وجوه البلد حولها ناس كثير فدفنت في القبر الضيق الذي سمعه يقول قترا في قتر والفتر ما بين الإبهام والسبابة .

فصل

(الأمر الخامس) أن النار التي في القبر والحضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرها وإنما هي من نار الآخرة وخضرها وهي أشد من نار الدنيا فلا يحس به أهل الدنيا فإن الله سبحانه يحمي عليه ذلك التراب والحجارة التي عليه وتحتة حتى يكون أعظم حرأ من جمر الدنيا ولومسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر وهذا في حفرة من حفر النار لا يصل حرها إلى جاره وذلك في روضة من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره .

وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك وقد أرانا الله من آيات قدرته في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً إلا من وفقه الله وعصمه .

فيفرش للكافر لوحان من نار فيشتعل عليه قبره بهما كما يشتعل التور فاذا شاء الله سبحانه أن يطلع على ذلك بعض عبيده اطلعه وغيبه عن غيره إذ لو طلع البعاد كلهم لزال كلفة التكليف والإيمان بالغيب ولما تدافن الناس كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وآله وسلم لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع .

ولما كانت هذه الحكمة منفية في حق البهائم سمعت ذلك وأدركته كما حادت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقلته وكادت تلقيه لما مر بمن يعذب في قبره .

(وحدثني) صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرزير الحرائي أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان قال فلما كان قبل غروب الشمس توحطت القبور فاذا بقبر منها وهو جرة

نار مثل كوز الزجاج والميت في وسطه فجعلت أمسح عيني واقول انائم أنا ام يقظان ؟ ثم التفت إلى سور المدينة وقلت والله ماانا بنائم ثم ذهبت إلى أهلي وأنا مدهوش فأتوني بطعام فلم أستطع أن آكل ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكاس (١) قد توفي ذلك اليوم .

فرؤية هذه النار في القبر كروية الملائكة والجن تقع احيانا لمن شاء الله ان يريه ذلك . (وقد ذكر) ابن أبي الدنيا في (كتاب القبور) عن الشعبي انه ذكر رجلا قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مررت بدبر فرأيت رجلا يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقعدة حتى يغيب في الأرض ثم يخرج فيفعل به ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك أبو جهل بن هشام يعذب إلى يوم القيامة .

(وذكر) من حديث حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال بينا أنا اسير بين مكة والمدينة على راحلة وأنا محقب اداة اذ مررت بمقبرة فإذا رجل عارج من قبره يلتهب ناراً وفي عنقه سلسلة يجرها فقال يا عبد الله انضح يا عبد الله انضح فوالله ما أدري اعرفتي باسمي أم كما تدعو الناس قال فخرج آخر فقال يا عبد الله لا تنضح يا عبد الله لا تنضح ثم اجتذب السلسلة فاعاده في قبره .

(وقال) ابن أبي الدنيا حدثني أبي حدثنا موسى بن داود حدثنا حماد بن سلمة عن هشام ابن عروة عن أبيه قال بينما راكب يسير بين مكة والمدينة إذ مر بمقبرة فإذا برجل قد خرج من قبر يلتهب ناراً مصفد آفي الحديد فقال يا عبد الله انضح يا عبد الله انضح قال وخرج آخر يتلوه فقال يا عبد الله لا تنضح يا عبد الله لا تنضح قال وغشى على الراكب وعدلت به راحلته إلى العرج قال وأصبح قد ابيض شعره فأخبر عثمان بذلك فنهى أن يسافر الرجل وحده .

(وذكر) من حديث سفیان حدثنا داود بن شاپور عن أبي قزعة قال مررنا في بعض المياه التي بيننا وبين البصرة فسمعنا نهيق حمار فقلنا لهم ما هذا النهيق ؟ قالوا هذا رجل كان عندنا كانت أمه تكلمه بالشئ فيقول لها إنهيق نهيقك فلما مات سمع هذا النهيق من قبره كل ليلة .

(وذكر) أيضا عن عمرو بن دينار قال كان رجل من أهل المدينة وكانت له أخت في ناحية المدينة فاشتكت وكان يأتيها يعودها ثم ماتت فدفنها فلما رجع ذكر أنه نسي شيئاً في

(١) المكس : الظلم والنقص ويقال مكس إذا جحى مالا .

القبر كان معه فاستعان برجل من أصحابه قال فنبشنا القبر ووجدت ذلك المتاع فقال للرجل
سمع حتى انظر على أى حال أختى فرفع بعض ماعلى اللحد فإذا القبر مشتمل ناراً فرده وسوى
القبر فرجع إلى أمه فقال ما كان حال أختى فقالت ما تسأل عنها وقد هلكت فقال لتخبريني
قالت كانت تؤخر الصلاة ولا تصلى فيها أظن بوضوءه وتأتى أبواب الجيران فتلقم أذنهما بأوباهم
وتخرج حديثهم .

(وذكر) عن حصين الأسدى قال سمعت مرثد بن حوشب قال كنت جالسا عند يوسف
ابن عمر وإلى جنبه رجل كأن شقة وجهه صفحة من حديد فقال له يوسف حدث مرثد أبا
رأيت فقال كنت شابا قد أتيت هذه الفواحش فلما وقع الطاعون قلت أخرج إلى ثغر من هذه
الثغور ثم رأيت أن احضر القبور فاذا بى ليلة بين المغرب والعشاء قد حضرت وأمانتكى على
تراب قبر آخر إذ جىء بمنزلة رجل حتى دفن فى ذلك وسووا عليه فأقبل طائران أبيضان
من المغرب مثل البعيرين حتى سقط أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله ثم اثاراه ثم تلى
أحدهما فى القبر والآخر على شفيره فجئت حتى جلست على شفير القبر وكنت رجلا لا يملأ
جوفى شيء قال فسمعته يقول ألسن الزائر اصهارك فى ثوبين بمصرين تسحبها كبرا تمشى
الحيلاء فقال أنا أضعف من ذلك قال فضربه ضربة امتلأ القبر حتى فاض ماء ودهن ثم عاد
فأعاد إليه القول حتى ضربه ثلاث ضربات كل ذلك يقول ذلك ويدكر أن القبر يفيض ماء
ودهننا قال ثم رفع رأسه فنظر إلى فقال انظر أين هو جالس بلسه الله قال ثم ضرب
جانب وجهى فسقطت فكنت ليلتى حتى أصبحت قال ثم أخذت انظر إلى القبر فإذا
هو على حاله .

فهذا الماء والدهن فى رأى العين لهذا الراى هو نار تأجج للميت كما أخبر النبى صلى الله
عليه وآله وسلم عن الدجال أنه يأتى معه بماء ونار فالنار ماء بارد والماء نار تأجج .

(وذكر) ابن أبى الدنيا ان رجلا سأل أبا اسحاق الفزارى عن النباش هل له توبة ؟ فقال
نعم إن صححت نيته وعلم الله منه الصدق فقال له الرجل كنت أنبش القبور وكنت أجد قوما
وجوههم لغير القبلة فلم يكن عند الفزارى فى ذلك شيء فكذب إليه الأوزاعى يخبره بذلك
فكذب إليه الأوزاعى قبل توبته إذا صححت نيته وعلم الله الصدق من قلبه وأما قوله انه كان
يحمد قوما وجوههم لغير القبلة فأولئك قوم ماتوا على غير السنة .

(وقال) ابن أبى الدنيا حدثنى عبد المؤمن بن عبد الله بن عيسى القيسى انه قيل لنباش قد
تاب ما أعجب ما رأيت ؟ قال نبشت رجلا فإذا هو مسمر بالمسامير فى سائر جسده ومسامير
كبيرة فى رأسه وآخر فى رجله .

(قال) وقيل لنباش آخر ما عجب ما رأيت ؟ قال رأيت جمجمة انسان مصبوب فيها رصاصا .
(قال) وقيل لنباش آخر ما كان سبب توبتك ؟ قال عامة من كنت أبش كنت أراه
حول الوجه عن القبلة .

(قلت) وحدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن مساب السلامي وكان من خيار عباد الله
وكان يتحرى الصدق قال جاء رجل إلى سوق الحدادين ببغداد فباع مسامير صغار المسار
برأسين فأخذها الحداد وجعل يحمي عليها فلا تلين معه حتى عجز عن ضربها فطلب البائع
فوجده فقال من أين لك هذه السامير ؟ فقال لقيتها فلم يزل به حتى أخبره انه وجد قبراً
مفتوحاً وفيه عظام ميت منظومة بهذه السامير قال فعالجتها على أن أخرجها فلم أقدر فأخذت
حجراً فكسرت عظامه وجمعتها قال وأنا رأيت تلك السامير قلت له فكيف صفتها ؟ قال
المسار صغير برأسين .

(قال) ابن أبي الدنيا وحدثني أبي عن أبي الحريش عن أمه قالت لما حفر أبو جعفر خندق
الكوقة حول الناس موتاهم فرأينا شاباً من حول عاصنا على يده .
(وذكر) عن سماك بن حرب قال مر أبو الدرداء بين القبور فقال ما أسكن ظواهرك
وي داخلك الدواهي .

(وقال) ثابت البناني بينا أنا أمشي في المقابر وإذا صوت خلقي وهو يقول يا ثابت
لا يفرنك سكنونها فكم من مغموم فيها فالتفت فلم أر أحداً .

(ومر) الحسن على مقبرة فقال يا لهم من عسكر ما أسكنهم وكم فيهم من مكروب .
(وذكر) ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبد العزيز قال لمسلة بن عبد الملك يا مسلة من دفن
أباك ؟ قال مولاي فلان قال فن دفن الوليد ؟ قال مولاي فلان قال فأنا أحدك ما حدثني
به أنه لما دفن أباك والوليد فوضعهما في قبورهما وذهب ليحل العقد عنها وجد وجوهها
قد حولت في اقصيتها فانظر يا مسلة إذا أنا مت فالتمس وجهي فانظر هل نزل في منازل
بالقوم أو هل عوفيت من ذلك قال مسلة فلما مات عمر وضعت في قبره فليست وجهه
فاذا هو مكانه .

(وذكر) ابن أبي الدنيا عن بعض السلف قال ماتت ابنة لي فأنزلتها القبر فذهبت أصلح
البنة فإذا هي قد حولت عن القبلة فاعتصمت لذلك غما شديدا فرأيتها في النوم فقالت يا أبت
اعتصمت لما رأيت فإن عامة من حولي محولين عن القبلة قال كأنها تريد الذين ماتوا مصرين
حل الكبار .

(وقال) عمرو بن ميمون سمعت عمر بن عبد العزيز يقول كنت في من دلى الوليد بن عبد الملك في قبره فنظرت إلى ركبته قد جمعتا في عنقه فقال ابنه عاش أبي ورب الكعبة فقلت عوجل أبوك ورب الكعبة فآتمظ بها عمر بعده .

(وقال) عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب لما استعمله على العراق يا يزيد اتق الله فاني حين وضعت الوليد في لحده فإذا هو يركض في أكفانه .

(وقال) يزيد بن هارون أخبر هشام بن حسان عن واصل مولى أبي عيينة عن عمر بن زهدم عن عبد الحميد بن محمود قال كنت جالسا عند ابن عباس فأناه قوم فقالوا إنا خرجنا حجاجا ومعنا صاحب لنا إذ أتينا فإذا الصفاح مات فيها ناه ثم انطلقنا فحفرنا له ولحدنا له فلما فرغنا من لحده إذا نحن بأسود قد ملأ اللحد فحفرنا له آخر فإذا به قد ملأ لحده فحفرنا له آخر فإذا به فقال ابن عباس ذاك الغل الذي يقل به انطلقوا فادفنوه في بعضها فوالذي نفسي بيده لو حفرتم الأرض كلها لوجدتموه فيه فانطلقنا فوضعناه في بعضها فلما رجعنا أتينا أهله بمتاع له معنا فقلنا لا مرأته ما كان يعمل زوجك ؟ قالت كان يبيع الطعام فيأخذ منه كل يوم قوت أهله ثم يقرض الفضل مثله فيلقيه فيه .

(وقال) ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن الحسين قال حدثني أبو اسحاق صاحب الشاط قال دعيت إلى ميت لأغسله فلما كشفت الثوب عن وجهه إذا بحية قد تطوقت على حلقه فذكر من غلظها قال فخرجت فلم أغسله فذكروا أنه كان يسب الصحابة رضى الله عنهم .

(وذكر) ابن أبي الدنيا عن سعيد بن خالد بن يزيد الانصارى عن رجل من أهل البصرة كان يحفر القبور قال حفرت قبرا ذات يوم ووضعت رأسى قريبا منه فأتني امرأتان في منامى فقالت احداهما يا عبد الله نشدتك بالله الا صرفت عنا هذه المرأة ولم تجاورنا بها فاستيقظت فزعا فإذا بجنازة امرأة قد جيء بها فقلت القبر وراءكم فصرفتهم عن ذلك للقبر فلما كان بالليل إذا أنا بالمرأتين في منامى تقول احداهما جزاك الله عنا خيرا فلقد صرفت عنا شرا طويلا ، قلت ما لصاحبتك لا تكلمنى كما تكلمينى أنت ؟ قالت إن هذه ماتت عن غير وصية وحق لمن مات عن غير وصية ألا يتكلم إلى يوم القيامة .

وهذه الاخبار وأضعافها وأضعافها عما لا يتسع لها الكتاب مما أراه الله سبحانه لبعض عباده من عذاب القبر ونعيمه عيانا .

وأما رؤية المنام فلو ذكرناها لجمات عدة أسفار ومن أراد الوقوف عليها فليطالع (بكتاب المنامات) لابن أبي الدنيا و (كتاب البستان) للقيروانى وغيرهما من الكتب المتضمنة لذلك وليس عند الملاحدة والزنادقة إلا التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه .

فصل

(الأمر السابع) أن الله سبحانه وتعالى يحدث في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك فهذا جبريل كان ينزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتمثل له رجلاً فيكلمه بكلام يسمعه ومن إلى جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يراه ولا يسمعه وكذلك غيره من الأنبياء وأحياناً يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس ولا يسمعه غيره من الحاضرين وهؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لانسمعهم وقد كانت الملائكة تضرب الكفار بالسياط وتضرب رقابهم وتصيح بهم والمسلمون معهم لا يرونهم ولا يسمعون كلامهم والله سبحانه قد حجب بني آدم عن كثير مما يحدثه في الأرض وهو بينهم وقد كان جبريل يقرئ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويدارسه القرآن والحاضرون لا يسمعون .

وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويقر بقدرته أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها والعبء أضعف بصراً وسمعاً من أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر وكثيراً من أشهده الله ذلك صعق وغشى عليه ولم ينتفع بالعيش زمناً وبعضهم كشف قناع قلبه فات فكيف ينكر في الحكمة الإلهية أسبال غطاء يحول بين المكلفين وبين مشاهدة ذلك حتى إذا كشف الغطاء رأوه وشاهدوه عياناً .

ثم إن العبد قادر على أن يزيل الزئبق والحردل عن عين الميت وصدرة ثم يرده بسرعة فكيف يعجز عنه الملك وكيف لا يقدر عليه من هو على كل شيء قدير وكيف تعجز قدرته عن إبقائه في عينيه وعلى صدره لا يسقط عنه وهل قياس أمر للبرزخ على ما يشاهده الناس في الدنيا إلى محض الجهل والضلال وتكذيب أصدق الصادقين وتعجز رب العالمين وذلك غاية الجهل والظلم .

وإذا كان أحدنا يمكنه توسعة القبر عشرة أذرع ومائة ذراع وأكثر طولاً وعرضاً وعمقاً ويستتر توسيعه عن الناس ويطلع عليه من يشاء فكيف يعجز رب العالمين أن يوسع ما يشاء على من يشاء ويستتر ذلك عن أعين بني آدم فيراه بنو آدم ضيقاً وهو أوسع شيء وأطيبه ريحاً وأهظمه إضاءة ونوراً وهم لا يرون ذلك .

وسر المسألة أن هذه السعة والضيق والإضاءة والظلمة والنار ليس من جنس المعبود في هذا العالم والله سبحانه إنما أشهد بني آدم في هذه الدار ما كان فيها ومنها فأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء ليكون الاقرار به والايان سبباً لسعادتهم فإذا كشف عنهم

الغطاء صار عياناً مشاهداً فلو كان الميت بين الناس موضوعاً لم يتمتع أن يأتيه الملكان ويسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك ويحييهما من غير أن يسمعا كلامه ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه فيمذب في النوم ويضرب ويألم وليس عند المستيقظ خبر من ذلك البتة وقد سرى أثر الضرب والألم إلى جسده .

ومن أعظم الجهل استبعاد شق الملك الأرض والحجر وقد جعلهما الله سبحانه له كالهواء للطيور ولا يلزم من حجبتها للأجسام الكثيفة أن تتولج حجبتها للارواح اللطيفة وهل هذا إلا من أفسد القياس وبهذا وأمثاله كذبت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

فصل

(الأمر الثامن) أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لانشعر بها لأن ذلك الرد نوع آخر غير المهود فهذا المعنى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء وأرواحهم معهم ولا تشعر بحياتهم ومن تفرقت أجزاءه لا يتمتع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل في المخلوقات شعوراً وإدراكاً تسبح ربه وتسقط الحجارة من خشيته وتسجد له الجبال والشجر وتسبحه الحصى والمياه والنبات قال تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) فان كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها وقال تعالى (انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين وكذلك قوله تعالى : (يا جبال أوبي معه) والدلالة لا تختص معيته وحده وكذب على الله من قال التأويل يرجع الصدى فان هذا يكون لكل مصوت وقال تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس وقد قال تعالى (ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطيور) صفات كل قد علم صلاته وتسبيحه فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدتها الجاهلون المكذبون وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته ، وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يذنان له وقولها ذلك أى يستمعان كلامه وأنه خاطبهما فسمعا خطابه وأحسنا جوابه فقال لهما (اتقيا طوعاً أو كرهاً قالنا أتينا طائعين) وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام

وهو يؤكل ، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد ، فاذا كانت هذه الاجسام فيها الاحساس والشعور فالاجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك ، وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح فتكلم ومشي وأكل وشرب وتزوج وولد له (كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم) وكقتيل بنى إسرائيل أو كالذين قالوا لموسى (إن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فأماهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم وكأصحاب الكهف وقصة إبراهيم في الطيور الأربعة ، فاذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الاجساد بعد ما بردت بالموت فكيف يتمتع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة يقضى بها ما أمره فيها ويستطقيها بها ويمدبها أو ينعمها بأعمالها وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود وبالله التوفيق .

فصل

(الأمر التاسع) انه ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونيعمه وهو ما بين الدنيا والآخرة قال تعالى (ومن وراءهم برزخ إلى يوم يبعثون) وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة ، وسمى عذاب القبر ونيعمه وأنه روضة أو حفرة نار باعتبار غالب الخلق فالمصلوب والحرق والفرق وأكيل الساع والطيور له من عذاب البرزخ ونيعمه قسطه الذى تقتضيه أعماله وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما فقد ظن بعض الأوائل انه إذا حرق جسده بالنار وصار رماداً وذرى بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح أنه يشجو من ذلك فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال قم فإذا هو قائم بين يدي الله فسأله ما حلك على ما فعلت ؟ فقال خشيتك يارب وأنت أعلم فما تلافاه أن رحمة . فلم يفت عذاب البرزخ ونيعمه لهذه الاجزاء التي صارت في هذه الحال حتى لو طلق الميت على رؤوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه فيجعل الله النار على هذا برداً وسلاماً والهواء على ذلك ناراً وسموماً فتعاصر العالم ومواده متقادة لربها وفاطرها وخالفها يصرفها كيف يشاء ولا يستعصى عليه منها شيء أرادته بل هي طلوع مشيئته مذلة متقادة لقدرته ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين وكفر به وأنكر ربوبيته .

فصل

(الامر العاشر) أن الموت معاد وبعث أول فإن الله سبحانه وتعالى جعل لابن آدم معادين وبعثين يجزى فيهما الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

فالبعث الأول مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول .

والبعث الثاني يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها وبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار وهو الحشر الثاني ولهذا في الحديث الصحيح « وتومن بالبعث الآخر ، فإن البعث الأول لا ينكره أحد وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والتعميم والعذاب وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هاتين القيامتين وهما الصغرى والكبرى في سورة المؤمنين وسورة الواقعة وسورة القيامة وسورة المطففين وسورة الفجر وغيرها من السور وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها داري جزاء المحسن والمسيء ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثاني في دار القرار كما قال تعالى : (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) .

وقد اقتضى عدله وأوجبت سماؤه الحسنى وكاله المقدس تعميم أبدان أوليائه وأرواحهم وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم فلا بد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة ما يليق به ويذيق بدن الفاجر العاصى له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه . هذا موجب عدله وحكمته وكاله المقدس ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لادار جزاء لم يظهر فيها ذلك ، وأما البرزخ فأول دار الجزاء فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار وتقتضى الحكمة إظهاره ، فإذا كان يوم القيامة الكبرى وفي أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابهما فعذاب البرزخ ونييمه أول عذاب الآخرة ونييمها وهو مشتق منه وواصل إلى أهل البرزخ هناك كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة في غير موضع دلالة صريحة كقوله صلى الله عليه وآله وسلم فيفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها ونييمها وفي الفاجر فيفتح له باب إلى النار فيأتيه من حرها وسومومها ومعلوم قطعاً ان للبدن يأخذ حظه من هذا الباب كما تأخذ الروح حظها فإذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب إلى مقعده الذى هو داخله وهذان البابان يصل منهما إلى العبد في هذه الدار أثر خفى محبوب بالشواغل والنواشى الحسية والعوارض ولكن يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه ولا يحسن التعبير عنه ، فوجود الشيء غير الاحساس به والتعبير عنه ، فإذا مات كان وصول ذلك الأثر إليه من ذنك البابين أكل ، فإذا بعث كمل وصول ذلك الأثر إليه .
لحكمة الرب تعالى منتظمة لذلك أكل انتظام في الدور الثلاث .

المسألة الثامنة

وهي قول السائل : ما الحكمة في كون عذاب القبر لم يذكر في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى ؟ فالجواب من وجهين : بجمل ، ومفصل .

أما الجمل فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة وقال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) وقال تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال تعالى (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) .

والكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة بانفاق السلف ، وما أخبر به الرسول عن الله فهو في وجوب تصديقه والإيمان به كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله ، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنى أوتيت الكتاب ومثله معه .

وأما الجواب المفصل فهو أن نعم البرزخ وعذابه مذكور في القرآن في غير موضع .
فنها قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) وهذا خطاب لهم عند الموت وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم اليوم تجزون .

(ومنها) قوله تعالى (فوفاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً لا يحتمل غيره .

(ومنها) قوله تعالى (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ، وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون) وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا ، وقد يقال وهو أظهر أن مات منهم عذب في البرزخ ومن بقي منهم عذب في الدنيا بالقتل وغيره فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ .

(ومنها) قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون)

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبد الله بن عباس على عذاب القبر وفي الاحتجاج بها شيء لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن لكن من فقهه في القرآن ودقته فهمه فيه فهم منها عذاب القبر فانه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين أدنى وأكبر فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ولهذا قال من العذاب الأدنى ولم يقل ولنذيقنهم العذاب الأدنى فتأمل .

وهذا نظير قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ولم يقل فيأتيه حرها وسمومها فإن الذي وصل إليه بعض ذلك وبقي له أكثره والذي ذاقه أعداء الله في الدنيا بعض العذاب وبقي لهم ما هو أعظم منه .

(ومنها) قوله تعالى (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأتمم حينئذ تظنون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم إن هذا هو الحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم) فذكر هاهنا أحكام الأرواح عند الموت وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية إذ هي أهم وأولى بالذكر وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام .

(ومنها) قوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) وقد اختلف للسلف متى يقال لها ذلك فقالت طائفة يقال لها عند الموت وظاهر اللفظ مع هؤلاء فانه خطاب للنفس التي قد تجردت عن البدن وخرجت منه وقد فسر ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله في حديث البراء وغيره فيقال لها ارجعي راضية مرضياً عنك وسيأتي تمام تقرير هذا في المسألة التي يذكر فيها مستقر الأرواح في البرزخ إن شاء الله تعالى وقوله تعالى (فادخلي في عبادي) مطابق لقوله صلى الله عليه وآله وسلم (اللهم الرفيق الأعلى) .

وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دل عليه القرآن وباقه التوفيق .

المسألة التاسعة

وهي قول السائل ما الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور

جوابها من وجهين : مجمل ومفصل : أما المجمل فانهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه فلا يعذب الله روحا عرفته وأحسته وامثلت أمره واجتنبت نهيه ولا بدنا كانت فيه أبدا فان عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه فمستقل ومستكثر ومصداق ومكذب .

وأما الجواب المفصل : فقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجلين الذين رأتهما يعذبان في قبورهما يمشي أحدهما بالنميمة بين الناس ويترك الآخر الاستبراء من البول فهذا ترك للطهارة الواجبة وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقا وفي هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب والزور والبهتان أعظم عذابا كما أن في ترك الاستبراء من البول تنبيها على أن من ترك الصلاة التي الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها فهو أشد عذابا وفي حديث شعبة أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس فهذا امتناع وذلك نمام وقد تقدم حديث ابن مسعود رضى الله عنه في الذي ضرب سوطا امتلا القبر عليه به نارا ، لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور ومر على مظلوم فلم ينصره .

وقد تقدم حديث سمرة في صحيح البخارى في تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به بالنهار . وتعذيب الزناة والزواني وتعذيب آكل الربا كما شاهدتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في البرزخ .

وتقدم حديث أبي هريرة رضى الله عنه الذي فيه رضى رءوس أقوام بالصخر لتناقل رؤسهم عن الصلاة ، والذي يسرحون بين الضريع والزقوم لتركمهم زكاة أموالهم ، والذين يأكلون اللحم الميت الحبيث لزيانهم ، والذين تقرر شفاهم بمقاريض من حديد لقيامهم في الفتن بالكلام والخطب .

وتقدم حديث أبي سعيد وعقوبة أرباب تلك الجرائم فمنهم من بطونهم أمثال البيوت وهم على سابلة آل فرعون وهم آكلة الربا . ومنهم من تفتح أفواههم فيلقمون الجرحى يخرج من أسافلهم وهم آكلة أموال اليتامى ، ومنهم المعلقات بتديين وهن الزواني . ومنهم من تقطع جنوبهم ويطعمون لحرمهم وهم المختابون . ومنهم من لحم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم وهم الذين يفتخون أعراض الناس .

وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن صاحب الشملة التي غلبها من المغنم أنها تشتعل عليه ناراً في قبره هذا وله فيها حق فكيف بمن ظلم غيره ملاحق له فيه . فعذاب القبر عن معاصي القلب والعين والأذن والشم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله فالنمام والكذاب والمتاب وشاهد الزور وقاذف المحسن والموضع في الفتنة والداعى إلى البدعة والقائل على الله ورسوله مالا علم له به ، والمجازف في كلامه ، وآكل الربا وآكل أموال اليتامى وآكل السحت من الرشوة والبرطيل ^(١) ونحوهما وآكل مال أخيه المسلم بغير حق أو مال المعاهد وشارب المسكر وآكل لقمة الشجرة الملعونة والزاني والوطى والسارق والخائن والغادر والخادع والمأكر وأخذ الربا ومعطيه وكتبه وشاهداه والمحلل والمحلل له ، والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه ، ومؤذى المسلمين ومتبع عوراتهم ، والحاكم بغير ما أنزل الله والمفتى بغير ما شرعه الله والمعين على الإثم والعُدوان وقائل النفس التي حرم الله والمليح في حرم الله والمعتل لحقائق أسماء الله وصفاته المالحد فيها والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والنائحة والمستمع إليها ونواحيروا جنهم وهم المعضون للفتنة الذي حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والسرير ، والمطففون في استيفاء مالهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا بذلوه والجبارون والمتكبرون والمراؤون والهنازون والممازون والطاعنون على السلف والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم ، وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم والذي إذا خوفته بالله وذكركه به لم يرعو ولم ينزجر فاذا خوفته بمخلوق مثله خاف وأرعوى وكف عما هو فيه والذي يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدى ولا يرفع به رأساً فاذا بلغه عن يحسن به الظن بمن يصيب ويخطئ . عرض عليه بانواجد ولم يخالفه والذي يقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه وربما استنقل به فاذا سمع قرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعى الطرب وودأن المغنى لا يسكت والذي يحلف بالله ويكذب فاذا حلف بالبندق أو برىء من شيخه أو قريبه أو سراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويمعظه من المخلوقين لم يكذب ولو هدد وعوقب ، والذي يفتخر بالمصيبة ويتكبرها بين اخوانه وأضرابه وهو الجاهر ، والذي لا تأمنه على مالك وحرمتك ، والفاحش اللسان البذيء الذى تركه الخلق اتقاء شره وخشيه والذي يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً ولا يؤدي زكاة ماله طيبة بها نفسه ولا يبحج مع قدرته على الحج ولا يؤدي ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها ولا يتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا

(١) البرطيل : الرشوة .

خطوة ولا يبالى بما حصل من المال من حلال أو حرام ولا يصل رحمه ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ويراقى للمالين ويمنع الماعون ويستغل بعيوب الناس عن عيبه وبذنوبهم عن ذنبه ، فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقتلها وصغيرها وكبيرها .

ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل فظواهر القبور تراب وبواطنها حسرات وعذاب ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبنيات وفي باطنها الدواهي والبلبات تغلى بالحسرات كما تغلى القدرور بما فيها ويمحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانها تالله لقد وعظت فارتكت لواعظ مقالا ، ونادت يا عمار الدنيا لقد عمرتم دارا موشكة بكم زوالا ، وخربتم دارا أتم مسرعون إليها انتقالا ، عمرتم بيوتالغيركم منافها وسكنهاها ، وخربتم بيوتاليس لكم مساكن سواها هذه دار الاستباق ومستودع الاعمال وبذر الزرع وهذه محل للعب رفاض من رياض الجنة أو حفر من حفر النار .

المسألة العاشرة

الاسباب المنجية من عذاب القبر

جوابها أيضاً من وجهين : مجمل ومفصل :

أما المجمل فهو تجنب تلك الاسباب التي تقتضى عذاب القبر ومن انفضها ان يجلس الرجل عند ما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه ثم يجدد له توبة نصوحا بينه وبين الله فينام على تلك التوبة ويعزم على أن لا يماود الذنب إذا استيقظ ويفعل هذا كل ليلة فإن مات من ليلته مات على توبة وإن استيقظ استيقظ مستقبلا للعمل مسرورا بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاتته وليس للعبد انفع من هذه التوبة ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند النوم حتى يغله النوم فمن أراد الله به خيرا ووقته لذلك ولا قوة إلا بالله .

وأما الجواب المفصل فنذكر أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما ينجي من عذاب القبر .

(فتها) مارواه مسلم في صحيحه عن سلمان رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات أجرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن للقتان .

(وفي جامع الترمذى) من حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال كل ميت يحتم على عمله إلا الذى مات مرابطا فى سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر ، قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

(وفي سنن النسائى) عن رشدين بن سعد عن رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن رجلا قال يا رسول الله ما بال المؤمن يفتون فى قبورهم إلا الشهيد ؟ قال كنى ببارقة السيف على رأسه فتنة .

(وعن المقدم بن معد يكرب) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للشهيد هند الله ست خصال يقفر له فى أول دفعة من دمه ويرى مقدمه من الجنة ويجاز من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع فى سبعين من أقربيه . رواه ابن ماجه والترمذى وهذا لفظه وقال هذا حديث حسن صحيح .

(وعن ابن عباس رضى الله عنهما) قال ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خباه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله ضربت خبائى على قبر وأنا لأحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم هى الملائكة هى المنجية تنجيه من عذاب القبر . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب .

(ورويها) فى مسند عبد بن حميد عن إبراهيم بن الحكم عن أبيه عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لرجل ألا تحضك بمحدث تفرح به ؟ قال الرجل بلى ؟ قال اقرأ (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) احفظها وعلما أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاضم يوم القيامة عند ربها لقارنها وتطلب له إلى ربها أن ينجيها من عذاب النار إذا كانت فى جوفه وينجى الله بها صاحبها من عذاب القبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لودت أنها فى قلب كل إنسان من أمى .

(قال) أبو عمر بن عبد البر وضح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن سورة ثلاثين آية شفعت فى صاحبها حتى غفر له (تبارك الذى بيده الملك) .

(وفي سنن ابن ماجه) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه يرفعه من مات مبطوناً مات شهيداً ووفى فتنة القبر وغدى وريح عليه برزق من الجنة .

(وفي سنن النسائى) عن جامع بن شداد قال سمعت عبد الله بن يشكر يقول كنت جالساً مع سليمان بن صره ومخالد بن عرفطة فذكروا أن رجلاً مات يبطنه فإذا هما يشتمان أن

يكونا شهدا جنازته فقال أحدهما للآخر ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قتله بطنه لم يعذب في قبره ؟ .

(وقال) أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا شعبة حدثني أحمد بن جامع بن شداد قال أبي ، فذكره وزاد فقال الآخر بلى .

(وفي الترمذى) من حديث ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر ، قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وليس لإسناده بم متصل . ربيعة بن سيف إنما يروى عن أبي عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو ولا يعرف لربيعة بن سيف سماع من عبد الله بن عمرو . انتهى .

وقد روى الترمذى الحكيم من حديث ربيعة بن سيف هذا عن عياض بن عقبة الفهرى عن عبد الله بن عمرو .

وقد رواه أبو نعيم الحافظ عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً ولفظه من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أجير من عذاب القبر وجاء يوم القيامة وعليه طابع الشهداء . تفرد به عمر بن موسى الوجيه وهو مدني ضعيف .

(وقوله) صلى الله عليه وآله وسلم كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة . معناه والله أعلم قد امتحن نفاقه من إيمانه ببارقة السيوف على رأسه فلم يفر فلو كان منافقاً لما صبر ببارقة السيوف على رأسه فدل على أن إيمانه هو الذى حمله على بذل نفسه لله وتسليمها له وهاج من قلبه حمية الغضب لله ورسوله وأظهار دينه وإعزاز كلمته فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للقتل فاستغنى بذلك عن الامتحان في قبره .

(قال) أبو عبد الله القرطبي إذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق أجل خطراً وأعظم أجراً أن لا يفتن لأنه مقدم ذكره في التنزيل على الشهداء وقد صح في المراتب الذى هو دون الشهيد أنه لا يفتن فكيف بمن هو أعلى رتبة منه ومن الشهيد .

والاحاديث الصحيحة ترد هذا القول وتبين أن الصديق يسأل في قبره كما يسأل غيره وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأس الصديقين وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أخبره عن سؤال الملك في قبره فقال وأنا على مثل حالتى هذه ؟ فقال نعم وذكر الحديث .

وقد اختلف في الانبياء هل يسألون في قبورهم على قولين وهما جهنم في مذهب أحد

وغیره ولا یلزم من هذه الخاصية التي اختص بها الشهيد أن يشاركه الصديق في حكمها وإن كان أعلى منه فخواص الشهداء قد تلتقى عن هو أفضل منهم وإن كان أعلى منهم درجة .

وأما حديث ابن ماجه د من مات مريضاً مات شهيداً ووقى فتنة القبر ، فن أفراد ابن ماجه وفي إفراده غرائب ومنكرات ومثل هذا الحديث مما يتوقف فيه ولا يشهد به على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فان صح فهو مقيد بالحديث الآخر وهو الذي يقتله بطنه فان صح عنه أنه قال المبطون شهيد فيحمل هذا المطلق على ذلك المقيد . والله أعلم .

(وقد جاء) فيما ينجى من عذاب القبر حديث فيه الشفاء رواه أبو موسى المديني وبين علته في كتابه في الترغيب والترهيب وجعله شرحاً له . رواه من حديث الفرج بن فضالة حدثنا هلال أبو جبلة عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن في صفة بالمدينة فقام علينا فقال إنى رأيت البارحة عجا رأيت رجلاً من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه . ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلواته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمتى يلهث عطشا كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان فاسقاه وأرواه ، ورأيت رجلاً من أمتى ورأيت النبيين جلوساً حلقاً حلقاً كلما دنا إلى حلقة طرد ومنع فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي ، ورأيت رجلاً من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحير فيه فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور ، ورأيت رجلاً من أمتى يتقى وهج النار وشررها فجاءته صدقته فصارت ستراً بينه وبين النار وظلا على رأسه ، ورأيت رجلاً من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلواته لرحمة فقالت يا معشر المؤمنين انه كان وصولاً لرحمة فكلموه فكلمه المؤمنون وصالحوه وصالحهم ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذته من أيديهم وأدخله في ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلاً من أمتى جاثياً على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتى خف ميزانه فجاءه أفراده^(١) فقلوا ميزانه ، ورأيت رجلاً من أمتى قائماً على شفيع جهنم فجاءه رجائه من الله عز وجل فاستنقذته من ذلك ومضى ورأيت رجلاً من أمتى قد هوى

(١) جمع فرط . والمراد بهم أولاده الذين ماتوا صغاراً .

في النار فجماعته دعت التي قد بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف فجماعه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن روعه^(١) ومضى ، ورأيت رجلاً من أمي يزحف على الصراط يحبو أحساناً ويتعلق أحياناً فجماعته صلته فأقامته على قدميه وأنقذته ، ورأيت رجلاً من أمي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجماعته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة . قال الحافظ أبو موسى هذا حديث حسن جداً رواه عن سعيد بن المسيب وعمر بن ذر وعلى ابن زيد بن جدهان .

ونحو هذا الحديث مما قيل فيه أن رؤيا الأنبياء وحى فهر على ظاهرها لا كنهو ماروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال رأيت كأن سيني انقطع فأولته كذا وكذا . ورأيت بقرا تنحر . ورأيت كأننا في دار عقبة بن رافع .

وقد روى في رؤياه الطويلة من حديث سمرة في الصحيح ومن حديث علي وأبي أمامة وروايات هؤلاء الثلاثة قريب بعضها من بعض مشتملة على ذكر عقوبات جماعة من المعذبين في البرزخ فأما في هذه الرواية فذكر العقوبة وأنبعها بما ينبغي صاحبها من العمل وراوى هذا الحديث عن ابن المسيب هلال أبو جبلة مدني لا يعرف بغير هذا الحديث ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه هكذا ذكره الحاكم أبو أحمد والحاكم أبو عبد الله أبو جبل بلاهه وحكياه عن مسلم ورواه عنه الفرج بن فضالة وهو وسط في الرواية ليس بالقوى ولا المتروك ورواه عنه بشر ابن الوليد الفقيه المعروف بأبي الخطيب كان حسن المذهب جميل الطريقة وسمعت شيخ الإسلام يمظم أمر هذا الحديث وقال أصول السنة تشهد له وهو من أحسن الأحاديث .

المسألة الحادية عشر

وهي أن السؤال في القبر هل هو عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق ؟

قال أبو عمر بن عبد البر في (كتاب التمهيد) والآثار الدالة تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا للمؤمن أو منافق كان منسوباً إلى أهل القبلة ودين الإسلام بظاهر الشهادة ، وأما الكافر الجاحد الباطل فليس من يسأل عن ربه ودينه ونبيه وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام فيثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون .

والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول وأن السؤال للكافر والمسلم ، قال الله تعالى
(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلل الله الظالمين ويفعل
الله ما يشاء) وقد ثبت في الصحيح أنها نزلت في عذاب القبر حين يسأل من ربك وما دينك
ومن نبيك .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن العبد
إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه أنه ليسمع قرع نعالهم ، وذكر الحديث . زاد البخاري
وأما المناق والکافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لأدرى كنت أقول
ما يقول الناس فيقال لأدرى ولا تليت ويضرب بمطربة من حديد يصيح صيحة يسمعها
من يليه إلا الثقلين هكذا في البخاري وأما المناق والکافر بالواو وقد تقدم في حديث أبي
سعيد الخدري الذي رواه ابن ماجه والإمام أحمد ، كنا في جنازة مع النبي صلى الله عليه وآله
وسلم فقال يا أيها الناس إن هذه الأمة تبلى في قبورها فإذا الإنسان دفن وتولى عنه أصحابه
جاء ملك وفي يده مطراق فأقعدته فقال ما تقول في هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمناً قال أشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول له صدقت فيفتح له باب إلى
النار فيقول هذا منزلك لو كفرت بربك وأما الكافر والمناق فيقول له ما تقول في هذا الرجل ؟
فيقول لأدرى فيقال لأدرى ولا اهتديت ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول له هذا
منزلك لو آمنت بربك فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى النار
ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله إلا الثقلين ، فقال بعض الصحابة يارسول الله
ما أحد يقوم على رأسه ملك إلا هيل عند ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلل الله الظالمين ويفعل
الله ما يشاء) .

(وفي حديث) البراء بن عازب الطويل . وأما الكافر إذا كان في قبل من الآخرة
واقطع من الدنيا نزل عليه الملائكة من السماء معهم مسوح . وذكر الحديث إلى أن قال ،
ثم تعاد روحه في جسده في قبره ، وذكر الحديث ، وفي لفظ فإذا كان كافر جاءه ملك الموت
فجلس عند رأسه فذكر الحديث إلى قوله : ما هذه الروح الحبيثة ؟ فيقولون فلان بأسو
أسمائه فإذا انتهى به إلى سماء الدنيا أغلقت دونه قال يرى به من السماء ثم قرأ قوله تعالى :
(ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) قال
فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان شديداً الا انهار فيجلسانه وينثرانه فيقولان من ربك ؟
فيقول هاه لا أدرى فيقولان لأدرى ، فيقولان ما هذا النبي الذي بعث فيكم ؟ فيقول سمعت

الناس يقولون ذلك لأدرى . فيقولان له لأدريت وذلك قوله تعالى (ويضل الله الظالمين
ويفعل الله ما يشاء) وذكر الحديث .

واسم الفاجر في عرف القرآن والسنة يتناول الكافر قطعاً كقوله تعالى (إن الأبرار لني
فعيم وإن الفجار لني جحيم) وقوله تعالى (كلا إن كتاب الفجار لني سجين) وفي لفظ آخر
في حديث البراء وإن الكافر إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل إليه ملائكة
شداد غضاب معهم ثياب من نار وسراويل من قطران فيحتوشونه فتتزع روحه كما ينزع
السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل فاذا أخرجت لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل
ملك في السماء .

وذكر الحديث إلى أن قال أنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين فيقال يا هذا من ربك ؟
وماديتك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول لأدرى فيقال لأدريت . وذكر الحديث رواه حماد بن سلمة
عن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء .

وفي حديث عيسى بن المسيب عن عدى بن ثابت عن البراء خرجنا مع رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم في جنازة رجل من الأنصار . وذكر الحديث إلى أن قال وإن الكافر
إذا كان في دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه ملائكة معهم كفن من
نار وحنوط من نار . فذكر الحديث إلى أن قال فترد روحه إلى مضجعه فيأتيه منكر
ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما ، أصواتهما كالرعد القاصف
وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه ثم يقولان يا هذا من ربك ؟ فيقول لأدرى فينادى من
جانب القبر لأدريت فيضربانه بمرزية من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل ويضيق
عليه قبره حتى تختلف أضلاعه . وذكر الحديث .

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي النضر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب
فذكره .

(وفي حديث) محمد بن سلمة عن خصيف عن بجاهد عن البراء قال كنا في جنازة رجل من
الأنصار ومعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر الحديث إلى أن قال وقال رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم وإذا وضع الكافر أتاه منكر ونكير فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟
فيقول لأدرى فيقولان له لأدريت . الحديث وقد تقدم .

وبالجملة فعمامة من روى حديث البراء بن عازب قال فيه وأما الكافر بالجزم وبعضهم قال
وأما الفاجر وبعضهم قال وأما المنافق والمرتاب وهذه اللفظة من شك بعض الرواة هكذا في
الحديث لأدرى أي ذلك قال .

وأما من ذكر الكافر والفاجر فلم يشك ورواية من لم يشك مع كثرتهم أولى من رواية من شك مع انفراده على أنه لا تناقض بين الروایتين فإن المنافق يسأل كما يسأل الكافر والمؤمن فيثبت الله أهل الإيمان ويضل الله الظالمين وهم الكفار والمناققون .

(وقد جمع) أبو سعيد الخدری فی حدیثه الذی رواه أبو عامر العقدي حدثنا عباد بن راشد عن داود بن أبي هند عن أبي نصره عن أبي سعيد قال شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جنازة . فذكر الحديث وقال وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له ماتقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري وهذا صريح في أن السؤال للكافر والمناقق ، وقول أبي عمر رحمه الله وأما الكافر المجاهد المبطل فليس بمن يسأل عن ربه ودينه ، فيقال له ليس كذلك بل هو من جملة المسئولين وأولى بالسؤال من غيره .

وقد أخبر الله في كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة قال تعالى (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) وقال تعالى (فوربكم لئن سألناهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقال تعالى (فلنسالن الذين أرسلناهم ولنسالن المرسلين) فإذا سئلوا يوم القيامة فكيف لا يسألون في قبورهم فليس لما ذكره أبو عمر رحمه الله وجه .

المسألة الثانية عشرة

وهي أن سؤال منكر وكبير هل هو مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها هذا موضع تكلم فيه الناس فقال أبو عبد الله الترمذی^(١) إنما سؤال الميت في هذه الأمة خاصة لأن الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة فإذا أبوا كفت الرسل واعتزلوهم وعولجوا بالعذاب فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالرحمة لإماماً للخلق كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أمسك عنهم العذاب وأعطى السيف حتى يدخل في دين الإسلام من دخل لمهابة السيف ثم يرسخ الإيمان في قلبه فأمهلوا فن هاهنا ظهر أمر النفاق وكانوا يسرون الكفر ويعلنون الإيمان فكانوا بين المسلمين في ستر فلما ماتوا قبض الله لهم فتاني القبر ليستخرجوا سرهم بالسؤال (ولينبذ الله الخبيث من الطيب فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) .

وخالف في ذلك آخرون منهم عبد الحق الأشيبلي والقرطبي وقالوا السؤال لهذه الأمة ولغيرها .

وتوقف في ذلك آخرون منهم أبو عمر بن عبد البر فقال وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ومنهم من يرويه تسأل ، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك فهذا أمر لا يقطع عليه .
وقد احتج من خصه بهذه الأمة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، وبقوله أوحى إلى أنكم تفتنون في قبوركم وهذا ظاهر في الاختصاص بهذه الأمة قالوا ويدل عليه قول الملكين له ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول المؤمن أشهد أنه عبد الله ورسوله فهذا خاص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقوله في الحديث الآخر إنكم في تمتحنون وعنى تسألون .

وقال آخرون لا يدل هذا على اختصاص السؤال بهذه الأمة دون سائر الأمم فإن قوله إن هذه الأمة إما أن يراد به أمة الناس كما قال تعالى (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) وكل جنس من أجناس الحيوان يسمى أمة ، وفي الحديث لولا أن السكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها وفيه أيضاً حديث النبي الذي قرصته نملة فأمر بقرية الغل فأحرقت فأوحى الله إليه من أجل أن قرصتك نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله . وإن كان المراد به أمته صلى الله عليه وآله وسلم الذي بعث فيهم لم يكن فيه ما يفتى سؤال غيرهم من الأمم . بل قد يكون ذكركم اخباراً بأنهم مسئولون في قبورهم وأن ذلك لا يختص بمن قبلهم لفضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم .
وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم أوحى إلى أنكم تفتنون في قبوركم .

وكذلك اخباره عن قول الملكين ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ هو اخبار لامته بما تمتحن به في قبورها والظاهر والله أعلم أن كل نبي مع أمته كذلك وأنهم معذبون في قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجّة عليهم كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجّة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

المسألة الثالثة عشرة

وهي أن الاطفال هل يمتحنون في قبورهم ؟

اختلف الناس في ذلك على قولين : هما وجهان لأصحاب أحمد .

وحجة من قال أنهم يسألون أنه يشرع الصلاة عليهم والدعاء لهم وسؤال الله أن يقبم عذاب القبر وفتنة القبر (كما ذكر) مالك في موطنه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وآله وسلم صلى على جنازة صبي فسمع من دعائه : اللهم قه عذاب القبر .

(واحتجوا) بما رواه علي بن معبد عن عائشة رضى الله عنها أنه مر عليها بجنابة صبي صغير فبكت فقيل لها ما يبكيك يا أم المؤمنين ؟ فقالت هذا الصبي بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر .

(واحتجوا) بما رواه هناد بن السرى حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه قال إنه كان ليصلى على النفوس وما ان عمل خطيئة قط فيقول اللهم أجره من عذاب القبر .

قالوا والله سبحانه يكمل لهم عقولهم ليعرفوا بذلك منزلتهم ويلهمون الجواب عما يسألون عنه .

قالوا وقد دل على ذلك الأحاديث الكثيرة التي فيها أنهم يمتحنون في الآخرة وحكاها الأشعري عن أهل السنة والحديث فإذا امتحنوا في الآخرة لم يمتنع امتحانهم في القبور .

(قال الآخرون) السؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والمرسل فيسأل هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا ؟ فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فأما الطفل الذى لا تميز له بوجه ما فكيف يقال له ما كنت تقول في هذا الرجل الذى بعث فيكم ! ولو رد إليه عقله فى القبر فإنه لا يسأل عما لم يتمكن من معرفته والعلم به ولا فائدة فى هذا السؤال وهذا بخلاف امتحانهم فى الآخرة فإن الله سبحانه يرسل إليهم رسولا ويأمرهم بطاعة أمره وعقولهم معهم فن أطاعه منهم نجا ومن عصاه أدخله النار فذلك امتحان بأمر يأمرهم به يفعلونه ذلك الوقت لا أنه سؤال عن أمر مضى لهم فى الدنيا من طاعة أو عصيان كسؤال الملكين فى القبر .

وأما حديث أبي هريرة رضى الله عنه فليس المراد بعذاب القبر فيه عقوبة الطفل على ترك طاعة أو فعل معصية قطعاً فإن الله لا يعذب أحداً بلا ذنب عمله ، بل عذاب القبر قد يراد به الألم الذى يحصل للميت بسبب غيره وإن لم يكن عقوبة على عمل عمله . ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه . أى يتألم بذلك ويتوجع منه لا أنه يعاقب بذنب الحى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

وهذا كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم السفر قطعة من العذاب . فالعذاب أعظم من العقوبة . ولا ريب أن فى القبر من الآلام والحجومات والحشرات ما قد يسرى أثره إلى الطفل فيتألم به فيشرع للصلى عليه أن يسأل الله تعالى له أن يقيه ذلك العذاب . والله أعلم .

المسألة الرابعة عشرة

وهي قوله هل عذاب القبر دائم أو منقطع ؟

جوابها أنه نوحان (نوع دائم) سوى ماورد في بعض الأحاديث أنه يخفف عنهم ما بين النفختين فإذا قاموا من قبورهم قالوا (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا) ويدل على دوامه قوله تعالى : (النار يعرضون عليها غدواً وعشيا) ويدل عليه أيضاً ما تقدم في حديث سمرة الذي رواه البخارى في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيه فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة . وفي حديث ابن عباس في قصة الجيدين لعله يخفف عنهما ما لم تبيسا ، فجعل التخفيف مقيداً برطوبتهما فقط .

وفي حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة ثم أتى على قوم ترسخ رموسهم بالصخر كلما رضخت عادت لا يفر عنهم من ذلك شيء ، وقد تقدم وفي الصحيح في قصة الذي لبس بردين وجعل يمشى يتبختر يخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

وفي حديث البراء بن عازب في قصة الكافر ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة . رواه الإمام أحمد وفي بعض طرقه ثم يخرق له خرقاً إلى النار فيأتيه من غمها ودخانها إلى يوم القيامة .

(النوع الثاني) إلى مدة ثم ينقطع وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه كما يعذب في النار مدة ثم يزول عنه العذاب .

وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم وهذا كما يشفع الشافع في المعذب في الدنيا فيخلص من العذاب بشفاعته لكن هذه شفاعاة قد لا تكون باذن المشفوع عنده والله سبحانه وتعالى لا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه فهو الذى يأذن للشافع أن يشفع إذا أراد أن يرحم المشفوع له ، ولا تغتر بغير هذا فإنه شرك وباطل يتعالى الله عنه (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه — ولا يشفعون إلا لمن ارتضى — مامن شفيع إلا من بعد إذنه ولا تنفع الشفاعاة عنده إلا لمن أذن له — قل لله الشفاعاة جميعاً له ملك السموات والأرض) .

(وقد ذكر) ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن موسى الصائغ حدثنا عبد الله بن نافع قال مات رجل من أهل المدينة فرآه رجل كأنه من أهل النار فاغتم لذلك ثم أنه بعد ساعة أو

ثانية رآه كأنه من أهل الجنة فقال ألم تكن قلت انك من أهل النار ، قال قد كان ذلك إلا أنه دفن معنا رجل من الصالحين فشفع في أربعين من جيرانه فكنت أنا منهم .

(قال) ابن أبي الدنيا وحدثنا أحمد بن يحيى قال حدثني بعض أصحابنا قال مات أخى فرأيت في النوم فقلت ما كان حالك حين وضعت في قبرك ؟ قال أتانى آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعالى لرأيت أنه سيضربنى به .

(وقال) عمرو بن جرير إذا دعا العبد لآخيه انبت أناه بها ملك إلى قبره فقال يا صاحب القبر الغريب هدية من أخ عليك شفيق .

(وقال) بشار بن غالب رأيت رابعة في منامى وكنت كثير الدعاء لها فقالت لى يا بشار بن غالب هدايك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت كيف ذلك ، قالت هكذا دعاء المؤمنين الاحياء إذا دعوا للموتى استجيب لهم وجعل ذلك الدعاء على أطباق النور وغير بمناديل الحرير ثم أتى بها الذى دعى له من الموتى فقيل هذه هدية فلان إليك .

(قال) ابن أبي الدنيا وحدثنى أبو عبيد بن محير قال حدثنى بعض أصحابنا قال رأيت أحلى فى النوم بعد موته فقلت أبصّل إليكم دعاء الاحياء قال أى والله يتفرّف مثل النور ثم يلبسه .

وسياتى إن شاء الله تعالى تمام لهذه فى جواب السؤال عن انتفاع الاموات بما تهديه لاهلهم الاحياء .

المسألة الخامسة عشرة

وهى أين مستقر الارواح ما بين الموت الى يوم القيامة هل هى فى السماء أم فى الارض ؟ وهل هى فى الجنة أم لا ؟ وهل تودع فى أجساد غير أجسادها التى كانت فيها فتتمتع وتعذب فيها أم تكون مجردة ؟

هذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس واختلفوا فيها وهى إنما تتلقى من السمع فقط واختلف فى ذلك فقال قائلون أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولادين وتلقاهم ربهم بالمغو عنهم والرحمة لهم ، وهذا مذهب أبى هريرة وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم .

وقالت طائفة هم بقاء الجنة على بابها يأتهم من روحها ونعيمها وورزقها .

وقالت طائفة الأرواح على أفنية قبورها .

وقال مالك بلغنى أن الروح مرسله تذهب حيث شاءت .
(وقال) الإمام أحمد فى رواية ابنه عبد الله أرواح للكفار فى النار وأرواح المؤمنين فى الجنة .

(وقال) أبو عبد الله بن منده وقال طائفة من الصحابة والتابعين أرواح المؤمنين عند الله عز وجل ولم يزيدوا على ذلك ، قال روى عن جماعة من الصحابة والتابعين أرواح المؤمنين بالجارية وأرواح الكفار برهوت بئر بضم ميموت .

وقال صفوان بن عمرو سألت عامر بن عبد الله أبا اليمان هل لأنفس المؤمنين مجتمع ؟ فقال إن الأرض التى يقول الله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) قال هى الأرض التى يجتمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث وقالوا هى الأرض التى يورثها الله المؤمنين فى الدنيا وقال كعب أرواح المؤمنين فى عليين فى السماء السابعة ، وأرواح الكفار فى سجين فى الأرض السابعة تحت جند إبليس .

وقالت طائفة أرواح المؤمنين بئر زمزم وأرواح الكفار بئر برهوت .

وقال سلمان الفارسى أرواح المؤمنين فى برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار فى سجين . وفى لفظ عنه نسمة المؤمن تذهب فى الأرض حيث شاءت .

وقالت طائفة أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن شماله .

وقالت طائفة أخرى منهم ابن حزم مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها .

وقال والذى نقول به فى مستقر الأرواح هو ما قاله الله عز وجل وتبىه صلى الله عليه وآله وسلم لا تتعداه فهو البرهان الواضح وهو أن الله عز وجل قال (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) وقال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فصح أن الله تعالى خالق الأرواح جملة وكذلك أخبر صلى الله عليه وآله وسلم أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . وأخذ الله عهدا وشهادتها له بالربوبية وهى مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها فى الأجساد والأجساد يومئذ تراب وماء ثم أقرها حيث شاء وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت ثم لا يزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها فى الأجساد المتولدة من المني . لى أن قال فصح أن الأرواح أجساد حاملة لأغراضها من التعارف والتناكر وأنها عارفة بميزة فيبلاهم الله فى الدنيا كما يشاء ثم يتوفاها فيرجع إلى

البرزخ الذي رآها فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسرى به عند سماء الدنيا أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وأرواح أهل العقاوة عن يساره وذلك عند منقطع العناصر ويعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة .

قال وقد ذكر محمد بن نصر المروزي عن اسحاق بن راهره أنه ذكر هذا الذي قلنا بعينه .
قال وعلى هذا أجمع أهل العلم .

قال ابن حزم وهو قول جميع أهل الإسلام قال وهذا هو قول الله تعالى (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ، والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ثلثة من الأولين وقليل من الآخرين) وقوله تعالى (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) إلى خرها فلا تزال الأرواح هناك حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها في الأجساد ثم يرجوعها إلى البرزخ فتقوم الساعة ويعيد الله عز وجل الأرواح إلى أجسادها ثانية وهي الحياة الثانية يحاسب الخلق فريق في الجنة وفريق في السعير مخلدين أبدا . انتهى .
وقال أبو عمر بن عبد البر أرواح الشهداء في الجنة وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم ونحن نذكر كلامه وما احتج به ونبين ما فيه .

(وقال) ابن المبارك عن ابن جريج فيما قرئ عليه عن مجاهد ليس هي في الجنة ولكن يأكلون من ثمارها ويمجدون ريحها .

وذكر معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد أنه سأل ابن شهاب عن أرواح المؤمنين فقال بلغني أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو وتروح إلى رياض الجنة تأتي ربها في كل يوم تسلم عليه .

(وقال) أبو عمر بن عبد البر في شرح حديث ابن عمر أن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى يوم القيامة قال وقد استدل به من ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور ، وهو أصح ما ذهب إليه في ذلك والله أعلم لأن الأحاديث بذلك أحسن مجيئاً وأثبت نقلاً من غيرها .

قال والمعنى عندي أنها قد تكون على أفنية قبورها لا على أنها تلزم ولا تفارق أفنية القبور كما قال مالك رحمه الله أنه بلغنا أن الأرواح تسرح حيث شامت .

قال وعن مجاهد أنه قال الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك . والله أعلم .

وقالت فرقة مستقرها العدم المحض وهذا قول من يقول ان النفس عرض من أعراض البدن كحياته وإدراكه فتعدم بموت البدن كما تعدم سائر الأعراض المشروطة بحياته . وهذا قول مخالف لنصوص القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين كما سنذكر ذلك إن شاء الله . والمقصود أن عند هذه الفرقة المبجلة ان مستقر الأرواح بعد الموت العدم المحض .

وقالت فرقة مستقرها بعد الموت أرواح أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الأرواح فتصير النفس السبعية إلى أبدان السباع والكلبية إلى أبدان الكلاب والبهيمية إلى أبدان البهائم والذنية والسفلية إلى أبدان الحشرات ، وهذا قول المتناسخة منكرى المعاد ، وهو قول خارج عن أقوال أهل الإسلام كلهم .

فهذا ما تلخص لي من جمع أقوال الناس في مصير أرواحهم بعد الموت ولا تظفر به مجموعا في كتاب واحد غير هذا البتة ونحن نذكر ما أخذ هذه الأقوال وما لكل قول وما عليه وما هو الصواب من ذلك الذي دل عليه الكتاب والسنة على طريقتنا التي من الله بها وهو مرجو الإعانة والتوفيق .

فصل

فأما من قال هي في الجنة فاحتج بقوله تعالى (فاما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) قال وهذا ذكره سبحانه عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت وقسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام (مقربين) وأخبر أنها في جنة النعيم (وأصحاب يمين) حكم لها بالإسلام وهو يتضمن سلامتها من العذاب (ومكذبة ضالة) وأخبر أن لها نزلا من حميم وتصلية جحيم . قالوا وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعا ، وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة في أول السورة فذكر حالها بعد الموت وبعد البعث واحتجوا بقوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين ان هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا يبشرها الملك بذلك ولا ينافي ذلك قول من قال ان هذا يقال لها في الآخرة فانه يقال لها عند الموت وعند البعث وهذه من البشرية التي قال تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) وهذا التنزل يكون عند الموت ويكون في القبر ويكون عند البعث وأول بشارة الآخرة عند الموت .

وقد تقدم في حديث البراء بن عازب أن الملك يقول لها عند قبضها أبشري بروح وريحان وهذا من ريحان الجنة .

واحتجوا بما رواه مالك في الموطأ عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك انه أخبره أن أباه كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إنما نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى حياة يوم يبعثه . قال أبو عمرو في رواية مالك هذه بيان سماع الزهري لهذا الحديث من عبد الرحمن بن كعب بن مالك وكذلك رواه يونس عن الزهري قال سمعت عبد الرحمن بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه ، وكذلك رواه الأوزاعي عن الزهري حدثني عبد الرحمن بن كعب وقد أعل محمد بن يحيى الذهلي هذا الحديث بأن شعيب بن أبي حمزة ومحمد بن أخى الزهري وصالح بن كيسان زووه عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن جده كعب فيكون منقطعا ، وقال صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن عبد الرحمن انه بلغه أن كعبا بن مالك كان يحدث ، قال الذهلي وهذا المحفوظ عندنا وهو الذى يشبه حديث صالح وشعيب وابن أخى الزهري وخالفه في هذا غيره من الحفاظ لحكموا لمالك والأوزاعي ، قال أبو عمر فاتفق مالك ويونس بن يزيد والأوزاعي والحارث بن فضيل على رواية هذا الحديث عن الزهري عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن أبيه وصححه الترمذى وغيره .

(قال) أبو عمرو لا وجه عندي لما قاله محمد بن يحيى من ذلك ولا دليل عليه واتفاق مالك ويونس بن زيد والأوزاعي ومحمد بن إسحاق أولى بالصواب والنفس إلى قولهم وروايتهم أسكن وهم من الحفظ والاتقان بحيث لا يقاس بهم من خالفهم في هذا الحديث . انتهى . وقد قال محمد الذهلي سمعت علي بن المدينى يقول ولد كعب خمسة : عبد الله ، وعبيد الله ، ومعبد ، وعبد الرحمن ، ومحمد . قال الذهلي فسمع الزهري من عبد الله بن كعب وكان قائم أبيه حين سمى وسمع من عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب وروى عن بشير بن عبد الرحمن بن كعب ولا أراه سمع منه انتهى فالحديث ان كان لعبد الرحمن عن أبيه كعب كما قال مالك ومن معه فظاهر وإن كان لعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب عن جده كما قال شعيب ومن معه فنهايته أن يكون مرسل من هذا الطريق وموصولا من الأخرى والذين وصلوه ليسوا بدون الكفين أرسلوه قدر أو لا عددا فالحديث من صحاح الأحاديث وإنما لم يخرجها صاحبها الصحيح لهذه العلة . والله أعلم .

(قال) أبو عمرو أما قوله نسمة المؤمن ، فالنسمة هاهنا الروح يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث نفسه ، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه ، وقيل النسمة الروح والنفس والبدن وأصل هذه اللفظة اعنى النسمة الانسان بعينه وإنما قيل للروح نسمة والله أعلم لأن حياة الانسان بروحه وإذا فارقه عدم أو صار كالمعدوم والدليل على أن النسمة الانسان قوله صلى الله عليه وآله وسلم من أعتق نسمة مؤمنة ، وقول علي رضي الله عنه ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، وقال الشاعر :

فأعظم منك تقى في الحساب إذا النسيمات نفضن الغبارا

يعنى إذا بعث الناس من قبورهم يوم القيامة وقال الخليل بن أحد النسمة الإنسان قال والنسمة الروح والنسيم هبوب الريح ، وقوله تعالى في شجر الجنة يروى بفتح اللام وهو الأكثر ويروى بضم اللام والمعنى واحد وهو الأكل والرعى يقول تأكل من ثمار الجنة وتسرح بين أشجارها والعلوقة والعلوق الأكل والرعى تقول العرب ماذا اليوم علوقا أى طعاما فإن الربيع بن زياد يصف الخيل :

ومجنبات ما يذقن علوقة يمصعن بالمهرات والامهار
وقال الأعشى :

وفلاة كأنها ظهر ترس ليس فيها إلا الرجيع علاق

قلت ومنه قول عائشة والنساء إذ ذاك خفاف لم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام وأصل اللفظة من التعلق وهو ما يعلق القلب والنفس من الغذاء .

قال واختلف العلماء في معنى هذا الحديث فقال قائلون منهم أرواح المؤمنين عند الله في الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولادين وتلقاهم ربهم بالعبود عنهم والرحمة لهم .

قال واحتجوا بأن هذا الحديث لم يخص فيه شهيداً من غير شهيد .

واحتجوا أيضاً بما روى عن أبي هريرة أن أرواح الأبرار في عليين وأرواح الفجار في سجين وعن عبد الله بن عمرو مثل ذلك ، قال أبو عمر وهذا قول يعارضه من السنة ما لا مدفع في صحة نقله وهو قوله إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغدادة والعشى إن كان من أهل الجنة فن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فن أهل النار يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة .

وقال آخرون إنما معنى هذا الحديث في الشهداء دون غيرهم لأن القرآن والسنة إنما يدلان على ذلك . أما القرآن فقوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) الآية .

وأما الآثار فذكر حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه من طريق بقر بن مخلد^(١) مرفوعاً الشهداء يغدون ويروحون ثم يكون مأواهم إلى قناديل معلقة بالعرش فيقول لهم الرب تبارك وتعالى هل تعلمون كرامة أفضل من كرامة أكرمتموها؟ فيقولون لا . غير

(١) بقر بن مخلد بوزن رضى حافظ الأندلس .

أنا وددنا أنك أعدت أرواحنا في أجسادنا حتى نقاتل مرة أخرى فنقتل في سبيلك . رواه عن هناد عن اسماعيل بن المختار عن عطية عنه .

(ثم ساق حديث) ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أصيب لإخوانكم يعني يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة في ظل العرش فلما وجدوا طيب ما كلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لتلا ينكلوا عن الحرب ^(١) ولا يزهّدوا في الجهاد ؟ قال فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) والحديث في مسند أحمد وسنن أبي داود .

(ثم ذكر حديث) الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال سأل عند الله بن مسود رضى الله عنه عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فقال أما إنا قد سألتنا عن ذلك فقال أرواحهم في جوف طير خضر تسرح في الجنة في أيها شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع اليهم ربك لإطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا وأى شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ! ففعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا . والحديث في صحيح مسلم .

(قلت) وفي صحيح البخارى عن أنس أن أم الربيع بنت البراء وهى أم حارثة بن سراقه أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يانبي الله ألا تحدثنى عن حارثة ؟ وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب فان كان في الجنة صبرت وإن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء ، قال يا أم حارثة إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى .

(ثم ساق) من طريق بق بن مخلد حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا ابن عيينة عن عبيد الله ابن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول أرواح الشهداء تجول في أجواف طير خضر تعلق في عمار الجنة .

(ثم ذكر) عن معمر بن قنادة قال بلغنا أن أرواح الشهداء في صور طير بيض تأكل من ثمار الجنة .

(ومن طريق) أبي عاصم النبيل عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عبد الله بن عمرو أرواح الشهداء في طير كالرازير يتعارفون ويرزقون من ثمر الجنة .

^(١) يقال : نكل عن الأمر إذا امتنع .

(قال) أبو عمر هذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء دون غيرهم وفي بعضها في صور طير وفي بعضها في أجواف طير وفي بعضها كطير خضر قال والذي يشبه عندي والله أعلم أن يكون القول قول من قال كطير أو صور طير لمطابقتها لحديثنا المذكور (يريد حديث كعب ابن مالك) وقوله فيه نسمة المؤمن كطائر ولم يقل في جوف طائر .

(قال) وروى عيسى بن يونس حديث ابن مسعود عن الأعمش عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله كطير خضر .

قلت : والذي في صحيح مسلم في أجواف طير خضر .

قال أبو عمر : فعلى هذا التأويل كأنه صلى الله عليه وآله وسلم قال إنما نسمة المؤمن من الشهداء طائر يعلق في شجر الجنة .

(قلت) لاتأني بين قوله صلى الله عليه وآله وسلم نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة وبين قوله إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالعداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار ، فمن أهل النار ، وهذا الخطاب يتناول الميت على فراشه والشهيد كما أن قوله نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة يتناول الشهيد وغيره ومع كونه يعرض عليه مقعده بالعداة والعشى ترد روحه أنهار الجنة وتأكل من ثمارها .

وأما المقعد الخاص به والبيت الذي أعد له فإنه إنما يدخله يوم القيامة ويدل عليه أن منازل الشهداء ودورهم وقصورهم التي أعد الله لهم ليست هي تلك القناديل التي تأوى إليها أرواحهم في البرزخ قطعاً فهم يرون منازلهم ومقاعدهم من الجنة ويكون مستقرهم في تلك القناديل الملحقة بالعرش فإن الدخول التام السكامل إنما يكون يوم القيامة ودخول الأرواح الجنة في البرزخ أمر دون ذلك .

ونظير هذا أهل الشقاء تعرض أرواحهم على النار غدواً وعشيا فإذا كان يوم القيامة دخلوا منازلهم ومقاعدهم التي كانوا يعرضون عليها في البرزخ فتعم الأرواح بالجنة في البرزخ شيء ، وتعمها مع الأبدان يوم القيامة بها شيء آخر فغذاء الروح من الجنة في البرزخ دون غذائها مع بدنها يوم البعث ولهذا قال تعلق في شجر الجنة أي تأكل العلقمة وآمام الأكل والشرب واللبس والتمتع فإنما يكون إذا ردت إلى أجسادها يوم القيامة فظهر أنه لا يعارض هذا القول من السنن شيء ، وإنما تعاضده السنة وتوافقه .

وأما قول من قال إن حديث كعب في الشهداء دون غيرهم فتخصيص ليس في اللفظ ما يدل عليه وهو حمل اللفظ العام على أقل مسمياته فإن الشهداء بالنسبة إلى عموم المؤمنين

قليل جداً والنبي صلى الله عليه وآله وسلم علق هذا الجزاء بوصف الإيمان فهو المقتضى له ولم يعلقه بوصف الشهادة . ألا ترى أن الحكم الذي اختص بالشهداء علق بوصف الشهادة كقوله في حديث المقدام بن معد يكرب للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار الباقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه ، فلما كان هذا يختص بالشهيد قال إن للشهيد ولم يقل إن للمؤمن وكذلك قوله في حديث قيس الجذامي يعطى الشهيد ست خصال ، وكذلك سائر الأحاديث والنصوص التي علق فيها الجزاء بالشهادة .

وأما ما علق فيه الجزاء بالإيمان فإنه يتناول كل مؤمن شهيداً كان أو غير شهيد .

وأما النصوص والآثار التي ذكر في رزق الشهداء وكون أرواحهم في الجنة فكلها حق وهي لا تدل على انتفاء دخول أرواح المؤمنين الجنة ولا سيما الصديقين الذين هم أفضل من الشهداء بلا نزاع بين الناس فيقال لهؤلاء ما تقولون في أرواح الصديقين هل هي في الجنة أم لا ؟ .

فإن قالوا أنها في الجنة ولا يسوغ لهم غير هذا القول فثبت أن هذه النصوص لا تدل على اختصاص أرواح الشهداء بذلك . وإن قالوا ليست في الجنة لزعمهم من ذلك أن تكون أرواح سادات الصحابة كابي بكر الصديق وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة بن اليمان وأشباههم رضوا عنهم ليست في الجنة وأرواح شهداء زماننا في الجنة ، وهذا معلوم البطلان ضرورة .

فإن قيل : فإن كان هذا حكم يختص بالشهداء فما الموجب لتخصيصهم بالذكر في هذه النصوص ؟ قلت التنبية على فضل الشهادة وعلو درجتها وأن هذا مضمون لأهلها ولا بد وأن لهم منها أوفر نصيب ، فخصيهم من هذا النعيم في البرزخ أكل من نصيب غيرهم من الأموات هل فراشهم وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة منهم فله نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه .

ويدل على هذا أن الله سبحانه جعل أرواح الشهداء في أجواف طير خضر فإنهم لما بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم منها في البرزخ أبداناً خيراً منها تكون فيها إلى يوم القيامة ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكل من نعيم الأرواح المجردة عنها ، ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير ونسمة الشهيد في جوف طير وتأمل لفظ الحديثين فإنه قال : « نسمة المؤمن طير ، فهذا يعم الشهيد وغيره ثم خص الشهيد بأن قال :

وهي في جوف طير ، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير فصلوات الله وسلامه على من يصدق كلامه بعضه بعضاً ويدل على أنه حق من عند الله وهذا الجمع أحسن من جمع أبي عمر وترجيحه رواية من روى أرواحهم كطير خضر بل الروايتان حق وصواب فهي كطير خضر وفي أجواف طير خضر .

فصل

وأما قول مجاهد ليس هي في الجنة ولكن يأكلون من ثمارها ويجدون ريحها فقد يحتاج لهذا القول بما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن اسحق عن عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية .

وهذا لا ينافي كونهم في الجنة فإن ذلك النهر من الجنة ورزقهم يخرج عليهم من الجنة وهم في الجنة وإن لم يصيروا إلى مقاعدهم منها . فجاهد نفي الدخول الكامل من كل وجه ، والتعبير يقصر عن الإحاطة بتميز هذا من هذا أو أكل العبارة أدلها على المراد عبارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم عبارة أصحابه . وكلما نزلت رأيت الشفاء والهدى والنور وكلما نزلت رأيت الحيرة والدعوى والقول بلا علم .

(قال) أبو عبدالله بن منده وروى موسى بن عبيدة عن عبد الله بن يزيد عن أم كبشة بنت المعرور قالت دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألنا عن هذه الأرواح؟ فوصفها صفة أبكي أهل البيت فقال إن أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر ترعى في الجنة وتأكل من ثمارها وتشرب من مائها وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش يقولون ربنا ألحق بنا الإخواننا وآتنا ما وعدتنا ، وأن أرواح الكفار في حواصل طير سود تأكل من النار وتشرب من النار وتأوى إلى جحر في النار يقولون ربنا لا تلحق بنا الإخواننا ولا تؤتنا ما وعدتنا .

(وقال) الطبراني : حدثنا أبو زرعة الدمشقي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح عن ضمرة بن حبيب قال سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أرواح المؤمنين؟ فقال في طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت قالوا يا رسول الله وأرواح الكفار؟ قال محبوسة في سجين . رواه أبو الشيخ عن هشام بن يونس عن عبدالله بن صالح (ورواه) أبو المغيرة عن أبي بكر بن أبي مرزوق عن ضمرة بن حبيب .

(وذكر) أبو عبدالله بن منده من حديث غنجان عن الثوري عن ثور بن يزيد عن

خالد بن معدان عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرواح المؤمنين في طير خضر كالزراير تأكل من ثمر الجنة (ورواه) غيره موقوفا .

وذكر يزيد الرقاشي عن أنس ، وأبو عبد الله الشامي عن تميم الداري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا عرج ملك الموت بروح المؤمن إلى السماء استقبله جبرائيل في سبعين الفا من الملائكة كل منهم يأتيه ببشارة من السماء سوى بشارة صاحبه فإذا انتهى به إلى العرش خر ساجدا فيقول الله عز وجل للملك الموت انطلق بروح عبدى فضعه في سدر مخضود وطلح منضود وظل بمدود وماء مسكوب . رواه بكر بن خنيس عن ضرار بن عمرو عن يزيد وأبي عبد الله .

فصل

وأما قول من قال الأرواح على أفنية قبورها فإن أراد أن هذا أمر لازم لها لا انفراق أفنية القبور أبدا فهذا خطأ ترده نصوص الكتاب والسنة من وجوه كثيرة قد ذكرنا بعضها ، وسنذكر منها ما لم نذكره إن شاء الله .

وإن أراد أنها تكون على أفنية القبور وقتا ، أو لها إشراف على قبورها وهي في مقرها فهذا حق ولكن لا يقال مستقرها أفنية القبور .

وقد ذهب إلى هذا المذهب جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر ، قال في كتابه في شرح حديث ابن عمر إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالنداء والعشي وقد استبدل به من ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور وهو أصح ما ذهب إليه في ذلك من طريق الآثار ؛ الأثرى أن الأحاديث الهدالة على ذلك ثابتة متواترة وكذلك أحاديث السلام على القبور .

(قلت) يريد الأحاديث المتواترة مثل حديث ابن عمر هذا ومثل حديث البراء بن عازب الذي تقدم وفيه ، هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة ، ومثل حديث أنس أن للعبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه أنه ليسمع قرع نعالهم وفيه أنه يرى مقعده من الجنة والنار ، وأنه يفسح للؤمن في قبره سبعين ذراعا ويضيق على الكافر ، ومثل حديث جابر إن هذه الأمة تبلى في قبورها فإذا دخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه أتاه ملك (الحديث) وأنه يرى مقعده من الجنة فيقول دعوني أبشر أهلى فيقال له أسكن فهذا مقعدك أبدا ، ومثل سائر أحاديث عذاب القبر ونعيمه التي تقدمت ، ومثل أحاديث السلام على أهل القبور وخطابهم ومعرفةهم بزيارة الأحياء لهم ، وقد تقدم ذكر ذلك كله .

وهذا القول ترده السنة الصحيحة والآثار التي لا مدفع لها وقد تقدم ذكرها وكل ما ذكره

من الأدلة فهو يتناول الأرواح التي هي في الجنة بالنص وفي الرفيق الأعلى وقد بينا ان عرض مقعد الميت عليه من الجنة والنار لا يدل على أن الروح في القبر ولا على فناه دائماً من جميع الوجوه بل لها اشراف واتصال بالقبر وفناه وذلك للقدر منها يعرض عليه مقعده فإن للروح شأن آخر تكون في الرفيق الأعلى في أعلى عليين ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهي في الملائكة الأعلى وإنما يغلط أكثر الناس في هذا الموضوع حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يهتد من الاجسام التي إذا شغلت مكانا لم يمكن أن تكون في غيره وهذا غلط محض بل الروح تكون فوق السموات في أعلى عليين وترد إلى القبر فتد السلام وتعلم بالمسلم وهي في مكانها هناك وروح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الرفيق الأعلى دائماً ويردها الله سبحانه إلى القبر فتد السلام على من سلم عليه وتسمع كلامه وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موسى قائماً يصلي في قبر ورآه في السماء السادسة والسابعة فيما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كالحب البصر وإنما أن يكون المتصل منها بالقبر وفناه بمنزلة شعاع الشمس وجرمها في السماء وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباقي وتسجد لله بين يدي العرش ثم ترد إلى جسده في أيسر زمان ، وكذلك روح الميت تصعد بها الملائكة حتى تجاوز السموات السبع وتقف بين يدي الله فتسجد له ويقضى فيها قضاء ويربها الملك ما أعد الله لها في الجنة ثم تهبط فتشهد غسله وحله ودفنه ، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب أن النفس يصعد بها حتى توقف بين يدي الله فيقول تعالى اكتبوا كتابي في عليين ثم اعيدوه إلى الأرض فيعاد إلى القبر وذلك في مقدار تجهيزه وتكفينه فقد صرح به في حديث ابن عباس حيث قال فيهبطون على قدر فراغه من غسله وأكفانه فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه .

(وقد ذكر) أبو عبد الله بن منده من حديث عيسى بن عبد الرحمن حدثنا ابن شهاب

حدثنا عامر بن سعد عن اسماعيل بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه قال أردت مالي بالغابة فأدركني الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمر بن حرام فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها فحثت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له فقال ذلك عبد الله ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها في قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا يزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانهم الذي كانت به .

ففي هذا الحديث بيان سرعة انتقال أرواحهم من العرش إلى الأثرى ثم انتقالها من الأثرى إلى مكانها ، ولهذا قال مالك وغيره من الأئمة أن الروح مرسله تذهب حيث شاءت ، وما

يراه الناس من أرواح الموتى ويجيئهم إليهم من المسكان البعيد أمر يعمله عامة الناس ولا يشكون فيه . والله أعلم .

وأما السلام على أهل القبور وخطابهم فلا يدل على أن أرواحهم ليست في الجنة وأنها على أفنية القبور فهذا سيد ولد آدم الذي روحه في أعلى عليين مع الرفيق الأعلى صلى الله عليه وآله وسلم يسلم عليه عند قبره ويرد سلام المسلم عليه وقد وافق أبو عمر رحمه الله على أن أرواح الشهداء في الجنة ويسلم عليهم عند قبورهم كما يسلم على غيرهم كما علمنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن نسلم عليهم وكما كان الصحابة يسلمون على شهداء أحد وقد ثبت أن أرواحهم في الجنة تسرح حيث شاءت كما تقدم ولا يضيق عقلك عن كون الروح في الملائكة الأعلى تسرح في الجنة حيث شاءت وتسمع سلام المسلم عليها عند قبرها وتدنو حتى ترد عليه السلام والروح شأن آخر غير شأن البدن ، وهذا جبريل صلوات الله وسلامه عليه رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وله ستمائة جناح منها جناحان قد سد بها ما بين المشرق والمغرب وكان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يضع ركبتيه بين ركبتيه ويديه على فخذه وما أظنك يتسع بظنك انه كان حينئذ في الملائكة الأعلى فوق السموات حيث هو مستقره وقد دنا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا الدنو فإن التصديق بهذا له قلوب خلقت له وأهلت لمعرفة ومن لم يتسع بظانه لهذا فهو أضيقت أن يتسع للإيمان بالنزول الإلهي إلى سماء الدنيا كل ليلة وهو فوق سماواته على عرشه لا يكون فوقه شيء البتة بل هو العالی على كل شيء وعلوه من لوازم ذاته . وكذلك دنوه عشية عرفة من أهل الموقف وكذلك مجيئه يوم القيامة لمحاسبة خلقه وإشراق الأرض بنوره وكذلك مجيئه إلى الأرض حين دحاها وسواها ومدها وبسطها وهياها لما يراد منها . وكذلك مجيئه يوم القيامة حين يقبض من عليها ولا يبقى بها أحد كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأصبح ربك يطوف في الأرض وقد خلت عليه للبلاء . هذا وهو فوق سماواته على عرشه .

فصل

وما ينبغي أن يعلم أن ما ذكرنا من شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف والكبر والصغر فالروح العظيمة الكبيرة من ذلك ما ليس لمن هو دونها ، وأنت ترى أحكام الأرواح في الدنيا كيف تتفاوت أعظم تفاوت بحسب تفارق الأرواح في كیفياتها وقواها وإبطائها وإسراعها والمعاونة لها فالروح المطلقة من أسر البدن وعلاقتها وعوائقه من التعرف والقوة والنفوذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق بالله ما ليس للروح المهيئة المحبوسة في علاقت البدن وعوائقه فاذا كان هذا وهي محبوسة في بدنها فكيف إذا تجردت

وفارقت واجتمعت فيها قواها وكانت في أصل شأنها روحاً عليّة زكية كبيرة ذات همة عالية فهذه لما بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر .

وقد تواترت الرؤيا في أصناف بني آدم على فعل الأرواح بعد موتها ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل ونحو ذلك وكما قد رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر وعمر في النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وعددهم وضعف المؤمنين وقتلتهم .

ومن العجيب أن أرواح المؤمنين المتحابين المتعارفين تتلاقى وبينها أعظم مسافة وأبعدها فتتألم وتتعارف فيعرف بعضها بعضاً كأنه جليسه وعشيرته فإذا رآه طابق ذلك ما كان عرفته روحه قبل رؤيته .

(قال) عبد الله بن عمرو أن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط . ورفعهم بعضهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

(وقال) عكرمة ومجاهد إذا نام الإنسان فإن له سبياً يجرى فيه الروح وأصله في الجسد فتبلغ حيث شاء الله مادام ذاهباً فالإنسان نائم فإذا رجع إلى البدن انتبه الإنسان وكان بمنزلة شعاع الشمس الذي هو ساقط بالأرض فأصله متصل بالشمس . وقد ذكر أبو عبد الله بن منده عن بعض أهل العلم أنه قال إن الروح يمتد من منخر الإنسان ومركبه وأصله في بدنه فلو خرج الروح بالسكبية لمات كما أن السراج لو فرق بينه وبين الفتيلة ألا ترى أن سركب النار في الفتيلة وضروها وشعاعها يملأ البيت فكذلك الروح تمتد من منخر الإنسان في منامه حتى تأتي السماء وتجول في البلدان وتلتقي مع أرواح الموتى فإذا أراه الملك الموكل بأرواح العباد ما أحب أن يريه وكان المرئي^(١) في اليقظة عافلاً ذكياً صدوقاً لا يلتفت في يقظته إلى شيء من الباطل يرجع إليه روحه فأدى إلى قلبه الصدق مما أراه الله عز وجل على حسب خلقه ، وإن كان خفيفاً نزقاً يجب الباطل والنظر إليه فإذا نام وأراه الله أسراً من خير أو شر رجعت روحه إليه فحيت ما رأى شيئاً من مخاريق الشيطان أو الباطل وقفت روحه عليه كما تقف في يقظته فكذلك لا يؤدي إلى قلبه فلا يعقل ما رأى لأنه خلط الحق بالباطل فلا يمكن معبر أن يعبر له وقد خلط الحق بالباطل .

(١) اسم مفعول من أراه — أن الشخص الذي أراه الملك ما أحب أن يريه .

وهذا من أحسن الكلام وهو دليل على معرفة قائله وبصيرته بالأرواح وأحكامها .
وأنت ترى الرجل يسمع العلم والحكمة وما هو أنفع شيء له ثم يمر بباطل وهو من غناه
أو شبهة أو زور أو غيره فيصغى إليه ويفتح له قلبه حتى يتأدى إليه فيتخبط عليه ذلك الذى
سمعه من العلم والحكمة ويلتبس عليه الحق بالباطل فهكذا شأن الأرواح عند النوم ، وأما بعد
المفارقة فانها تعذب بتلك الاعتقادات والشبه الباطلة التي كانت حظها حال اتصالها بالبدن ،
وينضاف إلى ذلك عذابها بتلك الارادات والشهوات التي حبل بينها وبينها وينضاف إلى ذلك
عذاب آخر يفثسه الله لها ولبدنها من الاعمال التي اشتركت معها فيها وهذه هي المميشة الضنك
في البرزخ والزاد الذى تزود به إليه .

والروح الزكية العلوية المحقة التي لا تحب الباطل ولا تألفه بضد ذلك كله تتمم بتلك
الاعتقادات الصحيحة والعلوم والمعارف التي تلقتها من مشكاة النبوة وتلك الارادات والهمم
الزكية وينشئ الله سبحانه لها من اعمالها نعيما ينعمها به في البرزخ فتصير لها روضة من رياض
الجنة وتلك حفرة من حفر النار .

فصل

وأما قول من قال أرواح المؤمنين عند الله تعالى ولم يزد على ذلك فانه تأدب مع لفظ
القرآن حيث يقول الله عز وجل (بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

وقد احتج أرباب هذا القول بحجج (منها) ما رواه محمد بن اسحاق الصغاني حدثنا يحيى بن
بي بكير حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار
عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الميت إذا خرجت نفسه يعرج بها
إلى السماء حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل ، وإذا كان الرجل السوء يعرج بها
إلى السماء فانه لا يفتح لها أبواب السماء فترسل من السماء فتصير إلى القبر .
وهذا إسناد لا تسأل عن صحته وهو في مسند أحمد وغيره .

وقال أبو داود الطيالسي حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن موسى
الاشعري قال تخرج روح المؤمن أطيب من ريح المسك فتطلق بها الملائكة من دون السماء
فيقولون ما هذا ؟ فيقولون هذا فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت — لحاسن عمله —
فيقولون مرحبا بكم وبه فيقبضونها منهم فيصعد بها من الباب الذى كان يصعد منه عمله فتشرق
في السموات ولها برهان كبرهان الشمس حتى ينتهى إلى العرش ، وأما الكافر فاذا قبض
انطلق بروحه فيقولون ما هذا ؟ فيقولون هذا فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت —
لمساوى عمله — فيقولون لا مرحبا لا مرحبا ردوه فيرد إلى أسفل الأرض إلى الثرى .

وقال الملكى بن إبراهيم عن داود بن يزيد الأودى قال أراه عن عامر الشعبي عن حذيفة ابن اليمان أنه قال الأرواح موقوفة عند الرحمن عز وجل تنتظر مواعده حتى ينفخ فيها .

(وذكر) سفيان بن عيينة عن منصور بن صفية عن أمه أنه دخل ابن عمر المسجد بعد قتل ابن الزبير وهو مصلوب فألقى أسماء يعزبها فقال لها عليك بتقوى الله والصبر فإن هذه الجثث ليست بنسوة وإنما الأرواح عند الله فقالت وما يمنعني من الصبر وقد أهدى رأس يحيى ابن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل .

(وذكر) جرير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال كنا جلوساً إلى كعب والربيع بن خيثم وخالد بن عرعة في أناس فجاء ابن عباس فقال هذا ابن عم نبيكم قال فأوسع له مجلس فقال يا كعب كل مائى القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء فأخبرني عنهن ما يجيبن وما عليون وما سدرة المنتهى وما قول الله لإدريس (ورفعهنا مكاناً علياً) ؟ قال أما عليون فالسماة السابعة فيها أرواح المؤمنين ، وأما سجين فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار تحت جسد إبليس ؛ وأما قول الله سبحانه لإدريس (ورفعهنا مكاناً علياً) فأوحى الله إليه أنى رافع لك كل يوم مثل أعمال بنى آدم وكلم صديقاً له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت فيؤخره حتى يزداد عملاً لحمله بين جناحيه فعرج به حتى إذا كان فى السماء الرابعة لقيه ملك الموت فكلمه فى حاجته فقال وأين هو قال هو ذا بين جناحي قال فالعجب أنى أمرت أن أقبض روحه فى السماء الرابعة فقبض روحه وأما سدرة المنتهى فإنها سدرة على رؤوس حملة العرش ينتهى إليها علم الخلائق ثم ليس لأحد وراها علم فلذلك سميت سدرة المنتهى .

(قال) ابن منده ورواه وهب بن جرير عن أبيه ورواه يعقوب القمى عن شمر ، ورواه خالد بن عبد الله عن العوام بن حوشب عن القاسم بن عوف عن الربيع بن خيثم قال كنا جلوساً عند كعب . فذكره .

وذكر يعلى بن عبيد عن الأجلح عن الضحاك قال إذا قبض روح العبد المؤمن عرج به إلى السماء الدنيا فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة حتى ينتهى به إلى سدرة المنتهى ، قلت للضحاك لم سميت سدرة المنتهى إليها كل شىء من أمر الله عز وجل لا يبعدها فيقول ربى ا عبدك فلان ، وهو أعلم به منهم فيبعث الله إليه بصك محتوم يؤمنه من العذاب وذلك قوله تعالى (كلا إن كتاب الأبرار لى فى عليم وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون) وهذا القول لا ينافى قول من قال

هم في الجنة فإن الجنة عند سدرة المنتهى والجنة عند الله وكان قائله رأى أن هذه العبارة أسلم وأوفق وقد أخبر الله سبحانه أن أرواح الشهداء عنده وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها تسرح في الجنة حيث شاءت .

فصل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين بالجاية ، وأرواح الكفار بحضرموت ببرهوت فقال أبو محمد بن حزم هذا من قول الرافضة ، وليس كما قال بل قد قاله جماعة من أهل السنة .

(قال) أبو عبد الله بن منده وروى عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجاية ثم قال أخبرنا محمد بن محمد بن يونس حدثنا أحمد بن عاصم حدثنا أبو داود سليمان ابن داود حدثنا همام حدثني قتادة حدثني رجل عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو أنه قال إن أرواح المؤمنين تجتمع بالجاية وإن أرواح الكفار تجتمع في سبخة بحضرموت يقال لها برهوت .

ثم ساق من طريق حماد بن سلمة عن عبد الجليل بن عطية عن شهر بن حوشب أن كعباً رأى عبد الله بن عمرو وقد تكلم الناس عليه يسألونه فقال لرجل سله أين أرواح المؤمنين وأرواح الكفار ؟ فسأله فقال : أرواح المؤمنين بالجاية وأرواح الكفار ببرهوت .

(قال) ابن منده ورواه أبو داود وغيره عن عبد الجليل ، ثم ساق من حديث سفیان عن فرات القزاز عن أبي الطفيل عن علي قال خير بئر في الأرض زمزم وشرب بئر في الأرض برهوت في حضرموت . وخير وادي في الأرض وادي مكة والوادي الذي أهبط فيه آدم بالهند منه طيبكم ، وشرب وادي في الأرض الأحقاف وهو في حضرموت ترده أرواح الكفار .

(قال) ابن منده وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن علي أبيض بقمه في الأرض واد بحضرموت يقال له برهوت فيه أرواح الكفار وفيه بئر ماؤها بالنهار أسود كأنه قيح تأوى إليه الهوام .

ثم ساق من طريق إسماعيل بن إسحاق القاضي حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفیان حدثنا ابان بن تغلب قال قال رجل بت فيه . يعني وادي برهوت . فسكأنما حشرت فيه أصوات الناس وهم يقولون يادومة يادومة ! قال ابان لحدثنا رجل من أهل الكتاب أن دومة هو الملك الذي حل أرواح الكفار .

(وقال) سفيان وسألنا الحضرمين فقالوا لا يستطيع أحد أن يبيت فيه بالليل .
فهذا جملة ما علمته في هذا القول فإن أراد عبدالله بن عمرو بالجاية التمثيل والتشبيه وأنها
تجتمع في مكان فسيح يشبه الجابية لسعته وطيب هوائه فهذا قريب وإن أراد نفس الجابية
دون سائر الأرض فهذا لا يعلم إلا بالتوقيت ولعله مما تلقاه عن بعض أهل الكتاب .

فصل

وأما قول من قال إنها تجتمع في الأرض التي قال الله فيها : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد
الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) فهذا إن كان قوله تفسير الآية فليس هو تفسيرها .
وقد اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس هي أرض
الجنة وهذا قول أكثر المفسرين . وعن ابن عباس قول آخر أنها الدنيا التي فتحها الله على
أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا القول هو الصحيح ونظيره قوله تعالى في سورة النور
(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من
قبلهم) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال زويت لي الأرض مشارقها
ومغاربها وسيبلغ ملك أمي ما زوى لي منها .

وقالت طائفة من المفسرين المراد بذلك أرض بيت المقدس .

وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين وليست الآية مختصة بها .

فصل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة وأرواح الكفار في سجين
في الأرض السابعة فهذا قول قد قاله جماعة من السلف والخلف وبدل عليه قول النبي صلى الله
عليه وآله وسلم اللهم الرفيق الأعلى . وقد تقدم حديث أبي هريرة أن الميت إذا خرجت روحه
عرج بها إلى السماء حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة التي فيها الله عز وجل ، وتقدم قول أبي موسى
أنها تصعد حتى تنتهي إلى العرش وقول حذيفة أنها موقوفة عند الرحمن ، وقول عبدالله بن عمر
إن هذه الأرواح عند الله ، وتقدم قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن أرواح الشهداء
تأوى إلى قناديل تحت العرش ، وتقدم حديث البراء بن عازب أنها تصعد من سماء إلى سماء ويشيعها
من كل سماء مقربوها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، وفي لفظ إلى السماء التي فيها الله عز وجل .

ولكن هذا لا يدل على استقرارها هناك بل يصعد بها إلى هناك للعرض على ربها فيقضى
فيها أمره ويكتب كتابه من أهل عليين أو من أهل سجين ثم تعود إلى القبر للمسألة ثم ترجع
إلى مقرها التي أودعت فيه فأرواح المؤمنين في عليين بحسب منازلهم وأرواح الكفار في سجين
بحسب منازلهم .

فصل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين تجتمع ببر زمزم فلا دليل على هذا القول من كتاب ولا سنة يجب التسليم لها ولا قول صاحب يوثق به وليس بصحيح فإن تلك البر لا تسع أرواح المؤمنين جميعهم وهو مخالف لما ثبتت به السنة الصريحة من أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة .

وبالجملة فهذا من أبطل الأقوال وأفسدها وهو أفسد من قول من قال أنها بالجافية فإن ذلك مكان متسع فضاء بخلاف البر الضيقة .

فصل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت فهذا مروى عن سلمان الفارسي والبرزخ هو الحاجز بين شيئين وكان سلمان أراد بها في أرض بين الدنيا والآخرة مرسله هناك تذهب حيث شاءت وهذا قول قوى فإنها قد فارقت الدنيا ولم تلج الآخرة بل هي في برزخ بينهما فأرواح المؤمنين في برزخ واسع فيه الروح والريحان والنعيم وأرواح الكفار في برزخ ضيق فيه النعم والعذاب قال تعالى : (ومن وراءهم برزخ إلى يوم يعثون) فالبرزخ هنا ما بين الدنيا والآخرة وأصله الحاجز بين الشيئين .

فصل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن يساره فلعمر والله لقد قال قولاً يؤيده الحديث الصحيح وهو حديث الاسراء فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأهم كذلك . ولكن لا يدل ذلك على تعادلهم في اليمين والشمال بل يكون هؤلاء عن يمينه في العلو والسعة وهؤلاء عن يساره في السفلى والسجن .

وقد قال أبو محمد بن حزم إن ذلك البرزخ الذي رآه فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسرى به عند سماء الدنيا قال وذلك عند منقطع العناصر ، قال وهذا يدل على أنها عنده تحت السماء حيث تنقطع العناصر وهي الماء والتراب والنار والهواء .

وهو دائماً يشنع على من قال قولاً لا دليل عليه فأى دليل له على هذا القول من كتاب وسنة ؟ وسيأتى اشباع الكلام على قوله إذا انتهينا إليه إن شاء الله تعالى .

فإن قيل فاذا كانت أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وآدم في السماء الدنيا وقد ثبت أن

أرواح الشهداء في ظل العرش والعرش فوق السماء السابعة فكيف تكون عن يمينه وكيف يراها النبي صلى الله عليه وآله وسلم هناك في السماء الدنيا ؟ فالجواب من وجوه .

(أحدها) أنه لا يمتنع كونها عن يمينه في جهة العلو كما كانت أرواح الأشقياء عن يساره في جهة السفلى .

(الثاني) أنه غير ممتنع أن تعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سماء الدنيا وإن كان مستقرها فوق ذلك .

(الثالث) أنه لم يخبر أنه رأى أرواح السعداء جميعاً هناك بل قال فإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ومعلوم قطعاً أن روح إبراهيم وموسى فوق ذلك في السماء السادسة والسابعة وكذلك الرفيق الأعلى أرواحهم فوق ذلك وأرواح السعداء بعضها أعلى من بعض بحسب منازلهم كما أن أرواح الأشياء بعضها أسفل من بعض بحسب منازلهم . والله أعلم .

فصل

وأما قول أبي محمد بن حزم أن مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها فهذا بناء منه على مذهبه الذي اختاره وهو أن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد وهذا فيه قولان للناس ، وجهورهم على أن الأرواح خلقت بعد الأجساد والذين قالوا أنها خلقت قبل الأجساد ليس معهم على ذلك دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع إلا ما فهموه من نصوص لا تدل على ذلك أو أحاديث لا تصح كما احتج به أبو محمد بن حزم من قوله تعالى : (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) الآية ويقوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) قال فصح أن الله خلق الأرواح جملة وهي الأنفس ، وكذلك أخبر عليه السلام أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، قال وأخذ عز وجل عهداً وشهادتها وهي مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها في الأجساد والأجساد يومئذ تراب . وقال لأن الله تعالى خلق ذلك بلفظة ثم التي توجب التعقيب والمهلة ثم أقرها سبحانه وتعالى حيث شاء وهو البرزخ الذي ترجع إليه عند الموت .

وسند كرماني هذا الاستدلال عند جواب سؤال السائل عن الأرواح هي مخلوقة مع الأبدان أم قبلها ؟ إذ الغرض هنا الكلام على مستقر الأرواح بعد الموت ، وقوله أنها تستقر في البرزخ الذي كانت فيه قبل خلق الأجساد مبني على هذا الاعتقاد الذي اعتقده ،

وقوله أن أرواح السعداء عن يمين آدم وأرواح الكفار الأشقياء عن يساره حق كما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقوله إن ذلك عند منقطع العناصر لادليل عليه من كتاب ولاسنة ولايشبه أقوال أهل الإسلام والأحاديث الصحيحة تدل على أن الأرواح فوق العناصر في الجنة عند الله وأدلة القرآن تدل على ذلك وقد وافق أبو محمد على أن أرواح الشهداء في الجنة ومعلوم أن الصديقين أفضل منهم فكيف تكون روح أبي بكر الصديق وعبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة بن اليمان وأشباههم رضى الله عنهم عند منقطع العناصر وذلك تحت هذا الفلك الأدنى وتحت السماء الدنيا وتكون أرواح شهداء زماننا وغيرهم فوق العناصر وفوق السموات .

وأما قوله قد ذكر محمد بن نصر المروزي عن إسحاق بن راهويه أنه ذكر هذا الذي قلنا بعينه قال وعلى هذا جميع أهل العلم وهو قول جميع أهل الإسلام .

قلت محمد بن نصر المروزي ذكر في كتاب الرد على ابن قتبية في تفسير قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم) الآثار التي ذكرها السلف من استخراج ذرية آدم من صلبه ثم أخذ الميثاق عليهم وردم في صلبه وأنه أخرجهم مثل الذر وأنه سبحانه قسمهم إذ ذاك إلى شقي وسعيد وكتب آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وما يصيبهم من خير وشر ثم قال : قال إسحاق أجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل) هذا نص كلامه وهو كما ترى لا يدل على أن مستقر الأرواح ما ذكر أبو محمد حيث تنقطع العناصر بوجه من الوجوه بل ولا يدل على أن الأرواح كائنة قبل خلق الأجساد بل إنما يدل على أنه سبحانه أخرجها حيثئذ غاطبها ثم ردها إلى صلب آدم وهذا القول وإن كان قد قاله جماعة من السلف والخلف فالقول الصحيح غيره كما ستقف عليه إن شاء الله إذ ليس الغرض في جواب هذه المسألة الكلام في الأرواح هل هي مخلوقة قبل الأجساد أم لاحقى لو سلم لأبي محمد هذا كله لم يكن فيه دليل على أن مستقرها حيث تنقطع العناصر ولا أن ذلك الموضع كان مستقرها أولاً .

فصل

وأما قول من قال مستقرها العدم المحض فهذا قول من قال إنها عرض من أعراض البدن وهو الحياة وهذا قول ابن الباقلاني ومن تبعه . وكذلك قال أبو الهذيل المتكلم للنفوس عرض من الأعراض ولم يعينه بأنه الحياة كما عينه ابن الباقلاني ثم قال هي عرض كسائر أعراض الجسم .

وهؤلاء ههنا أن الجسم إذا مات عدت روحه كما تقدم وسائر أعراضه المشروطة بالحياة ومن يقول منهم أن العرض لا يبقى زمانين كما يقوله أكثر الأشعرية فنقول لهم إن روح الإنسان الآن هي غير روحه قبل وهو لا ينفك يحدث له روح ثم تغير ثم روح ثم تغير هكذا أبدا فيبدل له ألف روح فأكثر في مقدار ساعة من الزمان فما دونها فإذا مات فلاروح تصعد إلى السماء وتعود إلى القبر وتقبضها الملائكة ويستفتحون لها أبواب السموات ولا تتم ولا تعذب وإنما ينعم ويعذب الجسد إذا شاء الله تعينه أو تعذبه رد إليه الحياة في وقت يريد نعيمه أو عذابه وإلا فلا أرواح هناك قائمة بنفسها البتة .

وقال بعض أرباب هذا القول ترد الحياة إلى عجب الذنب فهو الذي يعذب وينعم وحسب .

وهذا قول يرده الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقول واللفظ والفطرة وهو قول من لم يعرف روحه فضلا عن روح غيره وقد خاطب الله سبحانه النفس بالرجوع والدخول والخروج ودلت النصوص الصحيحة للصريحة على أنها تصعد وتنزل وتقبض وتمسك وترسل وتستفتح لها أبواب السماء وتسجد وتكلم وأنها تخرج تسيل كما تسيل الفطرة وتكفئ وتخط في أكفان الجنة والنار وأن ملك الموت يأخذها بيده ثم تناولها الملائكة من يده ويشم لها كأطيب نفحة مسك أو أنتن جيفة وتشيع من سماء إلى سماء ثم تعاد إلى الأرض مع الملائكة وأنها إذا خرجت تبعها البصر بحيث يراها وهي غارجة ، ودل القرآن على أنها تنتقل من مكان إلى مكان حتى تبلغ الحلقوم في حركتها ، وجميع ما ذكرنا من جمع الأدلة الدالة على تلاقى الأرواح وتعارفها وأنها اجناد مجتدة إلى غير ذلك تبطل هذا القول ، وقد شاهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح ليلة الإسراء عن يمين آدم وشماله وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة ، وأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ، وأخبر تعالى عن أرواح آل فرعون أنها تعرض على النار غدوا وعشيا .

ولما أورد ذلك على ابن الباقلاني ليج في الجواب وقال يخرج على هذا أحد وجهين إما بأن يوصع عرض من الحياة في أول جزء من أجزاء الجسم وإما أن يخلق لتلك الحياة والنعيم والعذاب جسد آخر .

وهذا قول في غاية الفساد من وجوه كثيرة ، أي قول أفسد من قول من يجعل روح الإنسان عرضا من الأراض تبدل كل ساعة الوفا من المرات فإذا فارقه هذا العرض لم يكن بعد المفارقة روح تنعم ولا تعذب ولا تصعد ولا تنزل ولا تمسك ولا ترسل فهذا قول

مخالف للعقل ونصوص الكتاب والسنة والفقرة وهو قول من لم يعرف نفسه وسيأتي ذكر
الوجه الدالة على بطلان هذا القول في موضعه من هذا الجواب إن شاء الله . وهو قول لم
يقبل به أحد من سلف الأمة ولا من الصحابة والتابعين ولا أئمة الإسلام .

فصل

وأما قول من قال إن مستقرها بعد الموت أبدان آخر غير هذه الأبدان فهذا القول فيه
حق وباطل .

فأما الحق فما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم عن أرواح الشهداء أنها
في حواصل طير خضر تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش هي لها كالأوكار للطائر ، وقد صرح
بذلك في قوله : جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر .

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة يحمدل أن يكون
هذا الطائر مركباً للروح كالبدن لها ويكون ذلك لبعض المؤمنين والشهداء ، ويحتمل أن يكون الروح
في صورة طائر وهذا اختيار أبي محمد بن حزم وأبي عمر بن عبد البر ، وقد تقدم كلام
أبي عمر والكلام عليه ، وأما ابن حزم فإنه قال معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم نسمة
المؤمن طائر يعلق ، هو على ظاهره لا على ظن أهل الجهل وإنما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم
أن نسمة المؤمن طائر يعلق بمعنى أنها تطير في الجنة لا أنها تمسخ في صورة الطير . قال فإن قيل
إن النسمة مؤنثة . قلنا قد صح عن عربي فصيح أنه قال أتتك كنانى فاستخففت بها فقيل له
أتوت الكتاب ؟ قال أوليس صحيفة وكذلك النسمة تذكر كذلك ، قال وأما الزيادة التي فيها
أنها في حواصل طير خضر فإنها صفة تلك القناديل التي تأوى إليها والحديثان معاً حديث واحد .
وهذا الذي قاله في غاية الفساد لفظاً ومعنى فإن حديث نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة
غير حديث أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ، والذي ذكره محتمل في الحديث الأول
وأما الحديث الثاني فلا يحتمله بوجه فإنه صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أن أرواحهم في
حواصل طير ، وفي لفظ في أجواف طير خضر ، وفي لفظ بيض ، وإن تلك الطير تسرح في
الجنة فتأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش هي لها كالأوكار
للطائر ، وقوله أن حواصل تلك الطير هي صفة القناديل التي تأوى إليها خطأ قطعاً بل تلك
القناديل مأوى لتلك الطير فهانئ ثلاثة أمور صرح بها الحديث ، أرواح ، وطير هي في
أجوافها ، وقناديل هي مأوى لتلك الطير . والقناديل مستقرة تحت العرش لا تسرح والطير
تسرح وتذهب وتجيء والأرواح في أجوافها .

فإن قيل يحتمل أن تجعل نفسها في صورة طير لأنها تركب في بدن طير كما قال تعالى (في أى صورة ما شاء ربك) ويدل عليه قوله في اللفظ الآخر أرواحهم كطير خضر كذلك رواه ابن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله .

قال أبو عمر والذى يشبه عندي والله أعلم أن يكون القول قول من قال كطير أو صورة طير لمطابقتها لحديثنا المذكور . يعنى حديث كعب بن مالك في نسمة المؤمن .

فالجواب أن هذا الحديث قد روى بهذين اللفظين والذى رواه مسلم في الصحيح من حديث الاعمش عن مسروق (١) فلم يختلف حديثها أنها في أجواف طير خضر .

(وأما حديث ابن عباس) فقال عثمان بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن ادريس عن محمد ابن اسحاق عن اسماعيل بن أمية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أصيب اخوانكم يعنى يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة في ظل العرش فلما وجدوا طيب ما كلمهم ومشرهم ومقبلهم قالوا من يبلغ اخواننا عنا انا احياء في الجنة نرزق ثلاثينكوا عن الحرب ولا يزهدها في الجهاد؟ فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل احياء عند ربهم يرزقون) .

(وأما حديث كعب بن مالك) فهو في السنن الأربعة ومسنده أحمد ولفظه للترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة . قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ولا يحذور في هذا ولا يبطل قاعدة من قواعد الشرع ولا يخالف نصاً من كتاب ولا سنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل هذا من تمام إكرام الله للشهداء أن أعاضهم من أبدانهم التي مزقوها الله أبداناً خيراً منها تكون مركباً لأرواحهم ليحصل بها كمال نعمتهم فاذا كان يوم القيامة رد أرواحهم إلى تلك الأبدان التي كانت فيها في الدنيا .

(١) تأمل ، والذى في صحيح مسلم عن يحيى بن يحيى وأبي بكر بن أبي شيبة عن أبي معاوية وعن ابن نمير عن أسباط وأبي معاوية . وعن اسحاق عن جرير وعيسى بن يونس ، كلمهم عن الاعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق ولفظه في جوف طير خضر ، لكن قال مسلم بعد ذكر ابن نمير ، واللفظ له .

فان قيل فهذا هو القول بالتاسخ وحلول الأرواح في أبدان غير أبدانها التي كانت فيها .

قيل هذا المعنى الذى دلت عليه السنة الصريحة حق يجب اعتقاده ولا يبطله تسمية المسمى له تاسخاً كما أن اثبات ما دل عليه العقل والنقل من صفات الله عز وجل وحقائق أسمائه الحسنى حق لا يبطله تسمية المعطلين لها تركيباً وتجسياً وكذلك ما دل عليه العقل والنقل من اثبات أفعاله وكلامه بمشيئته ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ومجيئه يوم القيامة للفصل بين عباده حق لا يبطله تسمية المعطلين له حلول حوادث كما أن ما دل عليه العقل والنقل من علو الله على خلقه ومباينته لهم واستوائه على عرشه وعروج الملائكة والروح اليه ونزولها من عنده وصعود الكلم الطيب إليه وعروج رسوله اليه ودنوه منه حتى صار قاب قوسين أو أدنى وغير ذلك من الأدلة حق لا يبطله تسمية الجهمية له حياً ووجهاً وتجسياً .

قال الإمام أحمد ، لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين ، فان هذا شأن أهل البدع يقبون أهل السنة وأقوالها بالآتياب التي ينفرون منها الجهال ويسنونها حشواً وتركيباً وتجسياً ويسمون عرش الرب تبارك وتعالى حياً ووجه ليتوصلوا بذلك إلى نفي علوه على خلقه واستوائه على عرشه كما تسمى الرافضة موالات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم ومحبتهم والدعاء لهم نصاً وكما تسمى القدرية المجوسية اثبات القدر جبراً فليس الشأن في الالتحاق وإنما الشأن في الحقائق والمقصود أن (تسمية^(١)) ما دلت عليه الصريحة من جعل أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تاسخاً لا يبطل هذا المعنى ، وإنما التاسخ الباطل ما يقوله أعداء الرسل من الملاحدة وغيرهم الذين ينكرون المعاد أن الأرواح تصير بعد مفارقة الأبدان إلى أجناس الحيوان والحشرات والطيور التي تاسبها وتشاكلها فاذا فارقت هذه الأبدان انتقلت إلى أبدان تلك الحيوانات فتتم فيها أو تعذب ثم تفارقها وتحل في أبدان آخر تاسب أعمالها وأخلاقها وهكذا أبدأ فهذا معادها عندهم ونعيمها وعذابها لامعاد لها عندهم غير ذلك فهذا هو التاسخ الباطل المخالف لما اتفقت عليه الرسل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم وهو كفر بالله واليوم الآخر وهذه الطائفة يقولون أن مستقر الأرواح بعد المفارقة أبدان الحيوانات التي تاسبها . وهو أبطل قول وأخس ، وبليه قول من قال إن الأرواح تعدم جملة بالموت ولا تبقى هناك روح تتمم ولا تعذب بل التعميم والعذاب يقع على أجزاء الجسد أو جزء منه أما عجب أو غيره فيخلق الله فيه الألام واللذة أما بواسطة رد الحياة

(١) زدنا هذه الكلمة إذ لا بد منها .

إليه كما قاله بعض أرباب هذا القول أو بدون رد الحياة كما قاله آخرون منهم ، فهؤلاء عندهم لا عذاب في البرزخ إلا على الأجساد ، ومقابلهم من يقول أن الروح لا تعود إلى الجسد بوجه ولا تتصل به والعذاب والنعم على الروح فقط ، والسنة الصريحة المتواترة ترد قول هؤلاء وهؤلاء وتبين أن العذاب على الروح والجسد مجتمعين ومنفردين .

فإن قيل فقد ذكرتم أقوال الناس في مستقر الأرواح وما أخذهم فما هو الراجح من هذه الأقوال حتى نعتقده ؟

قيل الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت (فنها) أرواح في أعلى عليين في الملا الأعلى وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء .

(ومنها) أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء لأجمعهم بل من الشهداء من تجس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله مالي إن قتلت في سبيل الله ؟ قال الجنة فلما ولى قال إلا الذي سارني به جبريل آنفاً .

(ومنها) من يكون محبوساً على باب الجنة كما في الحديث الآخر رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة .

(ومنها) من يكون محبوساً في قبره كحديث صاحب الشملة التي غلبها ثم استشهد فقال الناس هنيئاً له الجنة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلبها لتشتعل عليه ناراً في قبره .

(ومنها) من يكون مقره باب الجنة كما في حديث ابن عباس : الشهداء على بارق تهرباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية . رواه أحمد . وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء .

(ومنها) من يكون محبوساً في الأرض لم نل روحه إلى الملا الأعلى فإنها كانت روحاً سفلية أرضية فان الانفس الأرضية لانجام الانفس السماوية كما لانجامها في الدنيا والنفس التي لم تكن في الدنيا معرفة ربها ومحبه وذكره والانس به والتقرب اليه بل هي أرضية سفلية ، لانكون بعد المفارقة لندنا إلا هناك كما أن النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة

على محبة الله وذكره والقرب اليه والانس به تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية للناسبة لها فالمرء مع من أحب في البرزخ ويوم القيامة والله تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض في البرزخ ويوم المعاد كما تقدم في الحديث ويجعل روحه يعنى المؤمن مع النسم الطيب أى الأرواح الطيبة المشاكلة فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأخوانها وأصحاب عملها فتكون معهم هناك .

(ومنها) أرواح تكون في تور الزناة والزواني (وأرواح) في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة ، فليس للأرواح سمعها وشقيا مستقر واحد بل روح في أعلى عليين ، وروح أرضية سفلية لاتصعد عن الأرض .

وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب وكان لك بها فضل اعتناء عرفت بحجة ذلك ولاتظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضاً فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً ، لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها وان لها شأناً غير شأن البدن وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء وتتصل بفتاه القبر وبالبدن فيه وهي أسرع شيء حركة واتقالاتا وصعوداً وهبوطاً وأنها تنقسم إلى مرسله ومحبوسة وعلوية وسفلية ولها بعد المفارقة صحة ومرضى ولادة ونعيم وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير ، فهناك الحبس والالم والعذاب والمرضى والحسرة ، وهناك اللذة والراحة والتنمى والاطلاق وما أشبه حالها في هذا البدن بحال ولد في بطن أمه وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار .

فلهذه الأفس أربع دور كل دار أعظم من التي قبلها :

(الدار الأولى) في بطن الأم وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث .

(والدار الثانية) هي الدار التي نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة .

(والدار الثالثة) دار البرزخ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم بل نسبتها اليه كنسبة هذه الدار إلى الأولى .

(والدار الرابعة) دار القرار وهي الجنة أو النار فلا دار بعدها والله ينقلها في هذه الدور طبقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها ولا يلبق بها سواها وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها اليها ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى فتبارك الله فاطرها ومنشئها ومبنيها ومحبيها ومسعداها ومشقيها الذي فاوت بينها في درجات سعادتها وشقاوتها كما فاوت بينها في مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها . فمن

عرفها كما ينبغي شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك كله وله الحمد كله ويده الخير كله واليه يرجع الأمر كله وله القوة كلها والقدرة كلها والمزكاه والحكمة كلها والسكال المطلق من جميع الوجوه وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله وأن الذي جاءوا به هو الحق الذي تشهد به العقول وتقر به الفطر وما خالفه هو الباطل وبالله التوفيق .

المسألة السادسة عشرة

وهي هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعى الأحياء أم لا ؟

(فالجواب) أنها تنتفع من سعى الأحياء بأمرين : يجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير .

(أحدهما) ما تسبب إليه الميت في حياته .

(والثاني) دعاء المسلمين له واستغفارهم له والصدقة والحج على نزاع ما الذي يصل من ثوابه هل ثواب الانفاق أو ثواب العمل ؟ فعند الجمهور يصل ثواب العمل نفسه وهند بعض الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق .

واختلفوا في العبادة البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر فذهب الإمام أحمد وجمهور السلف وصولها وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة نص على هذا الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال قال قيل لابي عبد الله الرجل يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك فيجعل نصفه لآبيه أو لأمه ؟ قال أرجو أو قال الميت يصل إليه كل شيء من صدقة أو غيرها وقال أيضاً اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات وقل هو الله أحد وقل اللهم إن فضله لأهل المقابر .

والمشهور من مذهب الشافعي ومالك أن ذلك لا يصل .

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام أنه لا يصل إلى الميت شيء البتة لادعاء ولا غيره .

فالدليل على انتفاعه بما تسبب إليه في حياته ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية . أو علم ينتفع به . أو ولد صالح يدعو له . فاستثناء هذه الثلاث من عمله يدل على أنها منه فانه هو الذي تسبب إليها .

(وفي سنن ابن ماجه) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً عليه ونشره أو ولدأ صالحاً تركه أو مصحفاً ورثه أو مسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أكرهه أو صدقة أخرجه من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته .

(وفي صحيح مسلم) أيضاً من حديث جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ؛ ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء . وهذا المعنى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدة وجوه صحاح وحسان .

(وفي المسند) عن حذيفة قال سألت رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمسك القوم ثم أن رجلاً أعطاه فأعطى القوم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من سن خيراً فاستن به كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئاً ومن سن شراً فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً .

وقد دل على هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل فإذا كان هذا في العذاب والعقاب ففي الفضل والثواب أولى وأحرى .

فصل

والدليل على انتفاعه بغير ما تسبب فيه القرآن والسنة والإجماع وقواعد الشرع .

(أما القرآن) فقوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) فأثني الله سبحانه عليهم باستغفارهم للؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء .

وقد يمكن أن يقال إنما انتفعوا باستغفارهم لأنهم سئوا لهم الإيمان بسببهم إليه فلما اتبعوهم فيه كانوا كالمستئين في حصوله لهم . لكن قد دل على انتفاع الميت بالدعاء لإجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنائز .

(وفي السنن) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء .

(وفي صحيح مسلم) مد حديث عوف بن مالك قال صلى الله عليه وآله وسلم على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول اللهم اغفر له وارحمه وطاقه واعف عنه وأكرم نزهه وأوسع

مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعدّه من عذاب القبر وعذاب النار .

(وفي السنن) عن وائلة بن الأسقع قال صلى الله عليه وآله وسلم على رجل من المسلمين فسمعتة يقول اللهم ان فلانا ابن فلان في ذمتك وحبل جوارك فقه من فتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحق فاغفر له وارحمه إنك الغفور الرحيم .

وهذا كثير في الأحاديث بل هو المقصود بالصلاة على الميت وكذلك الدعاء له بعد الدفن .
(وفي السنن) من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل .

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم (كما في صحيح مسلم) من حديث بريدة بن الحميم قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية .
(وفي صحيح مسلم) أن عائشة رضى الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف نقول إذا استغفرت لأهل القبور ؟ قال قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا ان شاء الله بكم لاحقون .

(وفي صحيحه) عنها أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج في ليلتها من آخر الليل إلى البقيع فقال السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأناكم ما توعدون غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل قبور البقيع الفرقد .

ودعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم للأموات فعلاً وتعلماً ودعاء الصحابة والتابعين والمسلمين عسراً بعد عصر أكثر من أن يذكر وأشهر من أن ينكر وقد جاء ان الله يرفع درجة العبد في الجنة فيقول أنى لي هذا فيقال بدعاء ولدك لك .

فصل

وأما وصول ثواب الصدقة (في الصحيحين) عن عائشة رضى الله عنها أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله ان أى اقلتت نفسها ولم ترص وأبظها لو تبكلت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال نعم .

(وفي صحيح البخارى) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله ان أمى توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال نعم قال فأتى أشهدك أن حاطى المخراف صدقة عنها .

(وفي صحيح مسلم) عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إن أبى مات وترك مالا ولم يوص فهل يكتب عنه أن أتصدق عنه؟ قال نعم .

(وفي السنن ومسنند أحمد) عن سعد بن عبادة أنه قال يا رسول الله ان أم سعد ماتت فأى الصدقة أفضل؟ قال الماء فخر براء وقال هذه لام سعد .

(وعن) عبد الله بن عمرو أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة وأن هشام بن العاص نحر خمسة وخمسين وأن عمر أسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال أما أبوك فلو أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك . رواه الإمام أحمد .

فصل

وأما وصول ثواب الصوم (ففى الصحيحين) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال من مات وعليه صيام صام عنه وليه .

(وفي الصحيحين) أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله أى ماتت وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها؟ قال نعم فدين الله أحق أن يقضى .

(وفي رواية) جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا رسول الله ان أمى ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال أفأريت لو كان على أمك دين قضيته أكان يؤدي ذلك عنها؟ قالت نعم قال فصومي عن أمك . وهذا اللفظ للبخارى وحده تطبيقاً .

(وعن بريدة رضى الله عنه) قال بينا أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذأته امرأة فقالت إني تصدقت على أمى بجزارية وأنها ماتت فقال لوجب أجرك وردها عليك الميراث فقالت يا رسول الله انه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال صومي عنها ، قالت انها لم تمج قط أفأحج عنها؟ قال حجى عنها . رواه مسلم . وفي لفظ صوم شهرين .

(وعن ابن عباس رضى الله عنهما) أن امرأة ركبت البحر فنذرت إن الله نجها أن تصوم شهراً فنجها الله فلم تصم حتى ماتت فجاءت بنتها أو أختها إلى رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم فأمرها أن تصوم عنها . رواه أهل السنن والإمام أحمد . وكذلك روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم وصول ثواب بدل الصوم وهو الاطعام .

(ففي السنن) عن ابن عمر رضی الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه لكل يوم مسكين . رواه الترمذی وابن ماجه . قال الترمذی ولا نرفة مرفوعاً إلا من هذا الوجه والصحيح عن ابن عمر من قوله موقوفاً .

(وفي سنن أبي داود) عن ابن عباس رضی الله عنهما قال إذا مرض الرجل في رمضان ولم يصم أطعم عنه ولم يكن عنه قضاء وإن نذر قضی عنه وليه .

فصل

وأما وصول ثواب الحج ففي صحيح البخاری عن ابن عباس رضی الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت ان أمی نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال حجی عنها أريت لو كان على أمك دين أكت قاضيته؟ اقضوا الله فأنه أحق بالقضاء .

وقد تقدم حديث بريدة وفيه أن أمي لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال حجی عنها .

(وعن ابن عباس رضی الله عنهما) قال ان امرأة سنان بن سلة الجهني سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أمها ماتت ولم تحج أفيجزىء أن تحج عنها؟ قال نعم لو كان على أمها دين فقضته عنها ألم يكن يجزىء عنها . رواه النسائي .

(وروى) أيضاً عن ابن عباس رضی الله عنهما أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ابنتها ماتت ولم يحج قال حجی عن ابنتك .

(وروى) أيضاً عنه قال : قال رجل يابني الله ان أبي مات ولم يحج أفأحج عنه؟ قال أريت لو كان على أبيك دين أكت قاضيه؟ قال نعم ، قال فدين الله أحق . وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمته ولو كان من أجنبي أو من غير تركته . وقد دل عليه حديث أبي قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت فلما قضاها قال له النبي صلى الله عليه وسلم الآن بردت عليه جلده .

وأجمعوا على أن الحى إذا كان له في ذمة الميت حق من الحقوق فأحله منه أنه ينغمه ويبرأ منه كما يسقط من ذمة الحى .

فاذا سقط من ذمة الحى بالنص والاجماع مع إمكان أدائه له بنفسه ولو لم يرض به بل

رده فسقوطه من ذمة الميت بالإبراء حيث لا يتمكن من أدائه أولى وأحرى ، ولذا انتفع بالإبراء والاسقاط فكذلك ينتفع بالهبة والإهداء . ولا فرق بينهما فإن ثواب العمل حق المهدي الواهب فإذا جعله للميت انتقل إليه ، كما أن ماعلى الميت من الحقوق من الدين وغيره هو محض حق الحي فإذا أبرأه وصل الإبراء اليه وسقط من ذمته فكلاهما حق للحي فأى نص أو قياس أو قاعدة من قواعد الشرع يوجب وصول أحدهما ويمنع وصول الآخر .

هذه النصوص متظاهرة على وصول ثواب الأعمال إلى الميت إذا فعلها الحي عنه وهذا محض للقياس فإن الثواب حق للعامل فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك كما لم يمنع من هبة ماله في حياته وإبرائه له من بعد موته .

وقد نبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوصول ثواب الصوم الذي هو مجرد ترك ونية تقوم بالقلب لا يطلع عليه إلا الله وليس بعمل الجوارح على وصول ثواب القراءة التي هي عمل باللسان تسمعه الأذن وتراه العين بطريق الأول .

ويوضحه أن الصوم نية محضة وكف النفس عن المفطرات وقد أوصل الله ثوابه إلى الميت فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية بل لا تقتصر إلى النية فوصول ثواب الصوم إلى الميت فيه تفضيه على وصول سائر الأعمال .

والعبادات قسمان : مالية ، وبدنية . وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصدقة قال على وصول ثواب سائر العبادات المالية ، ونبه بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب سائر العبادات البدنية ، وأخبر بوصول ثواب الحج المركب من المالية والبدنية ، فالأنواع الثلاثة ثابتة بالنص والاعتبار وبالله التوفيق .

قال المانعون من الوصول قال الله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وقال (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) وقال (لما ما كسبت وعليها ما اكتسبت) . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية عليه ، أو ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعد . فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب إليه في الحياة ومالم يكن قد تسبب إليه فهو منقطع عنه .

وأيضاً لحديث أبي هريرة رضى الله عنه المتقدم وهو قوله إن مما يلحق الميت من عمله وحسناته بعد موته علماً نشره . الحديث يدل على أنه إنما ينتفع بما كان قد تسبب فيه .

وكذلك حديث أنس يرفعه سبع يجرى على العبد أجرهن وهو في قبره بعد موته من علم

علماً ، أو أكرى نهراً أو حفر بئراً ، أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً ، أو ورث مصحفاً ، أو ترك ولداً صالحاً يستغفر له بعد موته .

وهذا يدل على أن ما عدا ذلك لا يحصل له منه ثواب وإلا لم يكن للحصر معنى .

قالوا والاهداء حوالة والحوالة إنما تكون بحق لازم والأعمال لا توجب الثواب وإنما هو مجرد تفضل الله وإحسانه فكيف يحيل العبد على مجرد الفضل الذي لا يجب على الله بل إن شاء آتاه وإن لم يشأ لم يؤته وهو نظير حوالة الفقير على من يرجو أن يتصدق عليه ، ومثل هذا لا يصح إهداؤه وهبته كصلة ترجى من ملك لا لتحقق حصولها .

(قالوا) وأيضاً فالإيثار بأسباب الثواب مكروه وهو الإيثار بالقرب فكيف الإيثار بنفس الثواب الذي هو غاية فإذا كره الإيثار بالوسيلة فالغاية أولى وأحرى .

وكذلك كره الإمام أحمد التأخر عن الصف الأول وإيثار للغير به لما فيه من الرغبة عن سبب الثواب ، قال أحمد في رواية حنبل وقد سئل عن الرجل يتأخر عن الصف الأول ويقدم أباه في موضعه قال ما يعجبني هو يقدر أن يبر أباه بغير هذا .

(قالوا) أيضاً لو ساغ الإهداء إلى الميت لساغ نقل الثواب والاهداء إلى الحي .

وأيضاً لو ساغ ذلك لساغ لهذا نصف الثواب وربعه وقيراط منه .

وأيضاً لو ساغ ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمل لنفسه وقد قلتم أنه لا بد أن ينوى حال الفعل إهداءه إلى الميت وإلا لم يصل إليه فإذا ساغ له نقل الثواب ، فأى فرق بين أن ينوى قبل الفعل أو بعده .

وأيضاً لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات على الحي كما يسوغ إهداء ثواب التطوعات التي يتطوع بها .

(قالوا) وإن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البدل فإن المقصود منها عين المكلف العامل للمأمور المنهى فلا يبدل المكلف الممتحن بغيره ولا ينوب غيره عنه في ذلك أن المقصود طاعته هو نفسه وعبوديته ولو كان ينتفع باهداء غيره له من غير عمل منه لكان أكرم الأكرمين أولى بذلك وقد حكم سبحانه أنه لا ينتفع إلا بسعيه وهذه سنته تعالى في خلقه وقضاؤه كما هي سنته في أمره وشرعه فإن المريض لا ينوب عنه غيره في شرب الدواء والجائع والظمآن والعمى لا ينوب عنه غيره في الأكل والشرب واللباس . قالوا ولو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه .

(قالوا) ولهذا لا يقبل الله إسلام أحد ولا صلاته عن صلاته فإذا كان رأس العبادات لا يصح إهداء ثوابه فكيف فروعها .

قالوا وأما الدعاء فهو سؤال ورغبة إلى الله أن يتفضل على الميت ويسامحه ويعفو عنه وهذا إهداء ثواب عمل الحي إليه .

(قال) المقتصرون على وصول العبادات التي تدخلها النيابة كالصدقة والحج والعبادات نوعان : نوع لا تدخله النيابة بحال كالإسلام والصلاة وقراءة القرآن والصيام فهذا النوع يختص ثوابه بفاعله لا يتعداه ولا ينقل عنه كما أنه في الحياة لا يفعله أحد عن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره .

ونوع تدخله النيابة كرد الودائع وأداء الديون وإخراج الصدقة والحج فهذا يصل ثوابه إلى الميت لأنه يقبل النيابة ويفعله العبد عن غيره في حياته فبعد موته بالطريق الأول والآخرى .

قالوا وأما حديث من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، فجوابه من وجوه :

(أحدها) ما قاله مالك في موطنه قال لا يصوم أحد عن أحد . قال وهو أمر يجمع عليه عندنا لا خلاف فيه .

(الثاني) أن ابن عباس رضى الله عنهما هو الذي روى حديث الصوم عن الميت وقد روى عنه النسائي (أخبرنا) محمد بن عبد الأعلى حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حجاج الأحول حدثنا أيوب بن موسى عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لا يصلي أحد عن أحد .

(الثالث) أنه حديث اختلف في إسناده هكذا قال صاحب المفهم في شرح مسلم .

(الرابع) أنه معارض بنص القرآن كما تقدم من قوله تعالى : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) .

(الخامس) أنه معارض بما رواه النسائي عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لا يصلي أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة .

(السادس) أنه معارض بحديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه .

(السابع) أنه معارض بالقياس الجلي على الصلاة والإسلام والتوبة فإن أحداً لا يفتلها عن أحد . قال الشافعي فيما تسكلم به على خبر ابن عباس لم يسم ابن عباس ما كان نذر أم سعد فاحتمل أن يكون نذر حج أو عمرة أو صدقة فأمره بقضائه عنها فأما من نذر صلاة أو صياماً ثم مات فإنه يكفر عنه في الصوم ولا يصام عنه ولا يصلى عنه ولا يكفر عنه في الصلاة ثم قال فإن قيل أفاروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر أحد أن يصوم عن أحد ؟ قيل نعم روى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فإن قيل فلم لا تأخذ به ؟ قيل حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نذراً ولم يسمه مع حفظ الزهري وطول مجالسة عبيد الله لابن عباس فلما جاء غيره عن رجل عن ابن عباس بغير ما في حديث عبيد الله أشبه أن لا يكون محفوظاً . فإن قيل فتعرف الرجل الذى جاء بهذا الحديث يغلط عن ابن عباس ؟ قيل نعم روى أصحاب ابن عباس عن ابن عباس أنه قال لابن الزبير أن الزبير حل من متعة الحج فروى هذا عن ابن عباس أنها متعة النساء وهذا غلط فاحش .

فهذا الجواب عن فعل الصوم . وأما فعل الحج فإنما يصل منه ثواب الانفاق وأما أفعال للناسك فى كإفعال الصلاة إنما تقع عن فاعلها .

(قال) أصحاب الوصول ليس فى شىء مما ذكرتم ما يعارض أدلة الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ومقتضى قواعد الشرع ونحن نجيب عن كل ما ذكرتموه بالعدل والإنصاف .

أما قوله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فقد اختلفت طرق الناس فى المراد بالآية . فقالت طائفة المراد بالإنسان هاهنا الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له بالأدلة التى ذكرناها . قالوا وغاية ما فى هذا التخصيص وهو جائز إذا دل عليه الدليل .

وهذا الجواب ضعيف جداً ومثل هذا العام لا يراد به الكافر وحده بل هو للمسلم والكافر وهو كالعام الذى قبله وهو قوله تعالى (أن لاتزر وازرة وزر أخرى) .

والسياق كله من أوله إلى آخره كالصريح فى إرادة العموم لقوله تعالى (وأن سمعه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) وهذا يعم الشر والخير قطعاً ويتناول البر والفاجر والمؤمن والكافر كقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وكقوله له فى الحديث الإلهى : يا هبدي إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وهو كقوله تعالى (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقية) ولاتنفسر بقود كثير من المفسرين فى لفظ الإنسان فى

القرآن الانسان هاهنا أبو جهل والانسان هاهنا عقبه ابن أبي معيط والانسان هاهنا الوليد ابن المغيرة فالقرآن أجل من ذلك بل الإنسان هو الانسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه كقوله تعالى (إن الانسان لفي خسر) و (إن الانسان لربه لستود) و (إن الانسان خلق هلوعا) و (إن الانسان ليطغى ان رآه استغنى) و (إن الانسان لظالم كفار) و (وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا) فهذا شأن الإنسان من حيث ذاته ونفسه وخروجه عن هذه الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنته عليه لا من ذاته فليس له من ذاته إلا هذه الصفات وما به من نعمة فمن الله وحده فهو الذي حجب إلى عبده الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، وهو الذي كتب في قلبه الإيمان . وهو الذي ثبت أنبياءه ورسله وأوليائه على دينه وهو الذي يصرف عنهم السوء والفحشاء . وكان يرتجز بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

وقد قال تعالى (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله) وقال تعالى (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) ، (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) فهو رب جميع العالم ربوبية شاملة لجميع مافي العالم من ذوات وأفعال وأحوال .

(وقالت) طائفة الآية اخبار بشرع من قبلنا وقد دل شرعنا على أنه له ماسعى وماسعى له . وهذا أيضاً أضعف من الأول أو من جنسه فان الله سبحانه أخبر بذلك اخبار مقرر له محتج به لا اخبار مبطل له ولهذا قال (أم لم يذبا بما في صحف موسى) فلو كان هذا باطلا في هذه الشريعة لم يخبر به اخبار مقرر له محتج به .

(وقالت) طائفة اللام بمعنى على أى وليس على الإنسان إلا ماسعى . وهذا أبطل من القولين الأولين فإنه قول موضوع الكلام إلى ضد معناه المفهوم منه ولا يسوغ مثل هذا ولا تحتمله اللغة . وأما نحو (ولهم اللعنة) فهي على بابها أى نصيبهم وحظهم وأما أن العرب تعرف في لغاتها لى درهم بمعنى على درهم فكللا .

(وقالت) طائفة في الكلام حذف تقديره (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) أو سعى له وهذا أيضاً من النمط الأول فإنه حذف ما لا يدل السياق عليه بوجه وقول على الله وكتابه بلا علم .

(وقالت) طائفة أخرى الآية منسوخة بقوله تعالى (والذين آمنوا وأتتهم ذرياتهم بإيمان الحقنا بهم ذرياتهم) وهذا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما وهذا ضعيف أيضاً

ولا يرفع حكم الآية بمجرد قول ابن عباس رضى الله عنها ولا غيره أنها منسوخة والجمع بين الآيتين غير متعذر ولا يمتنع فان الابناء تبعوا الآباء في الآخرة كما كانوا تعاملهم في الدنيا وهذه التبعية هي من كرامة الآباء وثوابهم الذى نالوه بسعيهم وأما كون الابناء لحقوا بهم في الدرجة بلا سعى منهم فهذا ليس هو لهم وإنما هو الآباء أقر الله أعينهم بإلحاق ذريتهم بهم في الجنة وتفضل على الابناء بشيء لم يكن لهم كما تفضل بذلك على الولدان والخور العين والخلق الذين ينشئهم للجنة بغير أعمال والقوم الذين يدخلهم الجنة بلا خير قدموه ولا عمل عملوه فقوله تعالى: (أن لاتزر وازرة وزر أخرى) وقوله: (وان ليس للانسان الا ما سعى) آيتان محكمتان يقتضيهما عدل الرب تعالى وحكمته وكاله المقدس ، والعقل والفطرة شاهدان بها فالاول يقتضى أنه لا يعاقب بجرم غيره والثانية تقتضى أنه لا يفلح الا بعمله وسعيه فالأولى تؤمن العبد من أخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا والثانية تقطع طمعه من نجاته بعمل آباءه وسلفه ومشايخه كما عليه أصحاب الطمع الكاذب فتأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين .

ونظيره قوله تعالى: (من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) - (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لحكم سبحانه لأعدائه بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكمة .

(أحدها) ان هدى العباد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره .

(الثانى) أن ضلاله بفوات ذلك وتخلفه عنه على نفسه لا على غيره .

(الثالث) أن أحداً لا يؤاخذ بجريرة غيره .

(الرابع) أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله فتأمل ما فى ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله ، والرد على أهل الغرور والإطاع الكاذبة وعلى أهل الجمل بالله وأسمائه وصفاته .

وقالت طائفة أخرى المراد بالإنسان هاهنا الحي دون الميت وهذا أيضاً من النظم الأول فى الفساد .

وهذا كله من سوء التصرف فى اللفظ العام وصاحب هذا التصرف لا ينفذ تصرفه فى دلالات الألفاظ وحملها على خلاف موضوعها وما يتبادر إلى الذهن منها وهو تصرف فاسد قطعاً يبطله السياق والاعتبار وقواعد الشرع وأدلته وعرفه وسبب هذا التصرف السوء أن صاحبه يعتقد قولاً ثم يرد كلما دل على خلافه بأى طريق اتفقت له فالأدلة المخالفة لما

اعتقده عنده من باب الصائل لايبالي بأى شيء دفعه وأدلة الحق لاتعارض ولا تتناقض بل يصدق بعضها بعضاً .

(وقالت) طائفة أخرى وهو جواب أبى الوفاء بن عقيل ، قال الجواب الجيد هندی أن يقال الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء وأولد الأولاد ونكح الأزواج وأسدى الخير وتودد إلى الناس فترحموا عليه وأهدوا له العبادات وكان ذلك أثر سعيه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه . ويدل عليه قوله فى الحديث الآخر إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : هلم ينتفع به من بعده وصدقة جارية عليه أو ولد صالح يدعوه له . ومن هنا قول الشافعى إذا بذل له ولده طاعة الحج كان ذلك سبباً لوجوب الحج عليه حتى كأنه فى ماله زاد وراحلة بخلاف بذل الأجنبي .

وهذا جواب متوسط يحتاج إلى تمام فإن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى فى انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله كما ينتفع بعملهم فى الحياة مع عمله فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض فى الاعمال التى يشتركون فيها كالصلاة فى جماعة فإن كل واحد منهم تضاعف صلاته إلى سبعة وعشرين ضعفاً لمشاركة غيره له فى الصلاة فعمل غيره كان سبباً لزيادة أجره كما أن عمله سبب لزيادة أجر الآخر بل قد قيل إن الصلاة يضاعف ثوابها بعدد المسلمين وكذلك اشتراكهم فى الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض وشبك بين أصابعه ومعلوم أن هذا بأمر الدين أولى منه بأمر الدنيا ، فدخل المسلم مع جملة المسلمين فى عقد الإسلام من أعظم الأسباب فى وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه فى حياته وبعد مماته ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم . وقد أخبر الله سبحانه عن حملة العرش ومن حوله أنهم يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم . وأخبر عن دعاء رسله واستغفارهم للمؤمنين كتوح وإبراهيم ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فالعبد بإيمانه قد تسبب إلى وصول هذا الدعاء إليه فكأنه من سعيه . يوضحه أن الله سبحانه جعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم فإذا أتى به فقد سعى فى السبب الذى يوصل إليه وقد دل على ذلك قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم لعمر بن العاص إن أباك لو كان أقر بالتوحيد نفعه ذلك يعنى العتق الذى فعله بعد موته فلو أتى بالسبب لكان قد سعى فى عمل يوصل إليه ثواب العتق . وهذه طريقة لطيفة حسنة جداً .

وقالت طائفة أخرى القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعى غيره وإنما نفي ملكة لغير سعيه

وبين الامرين من الفرق ما لا يخفى فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه وأما سعي غيره فهو ملك لساعيه فان شاء أن يبذله لغيره ، وإن شاء أن يقيه لنفسه وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجحها .

فصل

وكذلك قوله تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وقوله (ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) على أن هذه الآية أصرح في الدلالة على أن سياقها وإنما ينفي عقوبة العبد بعمل غيره وأخذه بجزيرته فان الله سبحانه قال (فالיום لا نظل نفس شيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) فنفي أن يظلم بأن يزداد عليه في سيئاته أو ينقص من حسناته أو يعاقب بعمل غيره ولم ينفي أن ينتفع بعمل غيره لا على وجه الجزاء فان انتفاعه بما يهدى اليه ليس جزاء على عمله وإنما هو صدقة تصدق الله بها عليه وتفضل بها عليه من غير سعى منه بل وبه ذلك على يد بعض عباده لا على وجه الجزاء .

فصل

وأما استدلالكم بقوله صلى الله عليه وآله وسلم إذا مات العبد انقطع عمله فاستدلال ساقط فانه صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل انقطع انتفاعه وإنما أخبر عن انقطاع عمله وأما عمل غيره فهو لعامله فان وبه له وصل اليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو فالانقطاع شيء والواصل اليه شيء آخر وكذلك الحديث الآخر وهو قوله ان مما يلحق الميت من حسناته وعمله فلا ينفي أن يلحقه غير ذلك من عمل غيره وحسناته .

فصل

وأما قولكم الإهداء حوالة والحوالة إنما تكون بحق لازم ، فهذه حوالة المخلوق على المخلوق . وأما حوالة المخلوق على الخالق فأمر آخر لا يصح قياسها على حوالة العبيد بعضهم على بعض وهل هذا الا من أبطل القياس وأفسده والذي يبطله اجماع الامة على انتفاعه بأداء دينه وما عليه من الحقوق وبراء المستحق لذمته والصدقة والحج عنه بالنص الذي لا سبيل الى رده ودفعه وكذلك الصوم وهذه الاقيسة الفاسدة لا تعارض نصوص الشرع وقواعده .

فصل

وأما قولكم الايثار بسبب الثواب مكروه وهو مسألة الايثار بالقرب فكيف الايثار الثواب بنفس الذي هو الغايه فقد أجيب عنه بأجوبة .

(الجواب الاول) أن حال الحياة حال لا يوثق فيها بسلامة العاقبة لجواز أن يرتد المحي فيكون قد آثر بالقرب غير أهلها وهذا قد أمن بالموت . فان قيل والمهدى اليه أيضا قد لا يكون مات على الاسلام باطنا فلا ينتفع بما يهدى اليه وهذا سؤال في غاية البطلان فان الاهداء له من جنس الصلاة طلبه والاستغفار له والدعاء له فان كان أهلا وإلا انتفع به الداعي وحده .

(الجواب الثاني) أن الايثار بالقرب يدل على قلة الرغبة فيها والتأخر عن فعلها فلو ساغ الايثار بها لأنضى إلى التقاعد والتكاسل والتأخر ، بخلاف إبداء ثوابها فان العامل يحرص عليها لأجل ثوابها لينتفع به أو ينفع به أخاه المسلم فيبينها فرق ظاهر .

(الجواب الثالث) أن الله سبحانه وتعالى يحب المبادرة والمسارعة إلى خدمته والتنافس فيها فان ذلك أبلغ في العبودية فان الملوك تحب المسارعة والمنافسة في طاعتها وخدمتها فالإيثار بذلك مناف لمقصود العبودية فان الله سبحانه امر عبده بهذه القرية إما لإيجابها وأما استحبابها فاذا أثربها ترك ما أمره وولاه غيره بخلاف ما إذا فعل ما أمر به طاعة وقرية ثم أرسل ثوابه إلى أخيه المسلم وقد قال تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) وقال (فاستبقوا الخيرات) ومعلوم أن الإيثار بها يتنافى الاستباق اليها والمسارعة .

وقد كان الصحابة يسابق بعضهم بعضا بالقرب ولا يؤثر الرجل منهم غيره بها ، قال عمر والله ما سابقتي أبو بكر إلى خير إلا سبقتني إليه - حتى قال والله لا أسابقك إلى خير أبدا .

وقد قال تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) يقال نافست في الشيء منافسة ونفاساً إذا رغبت فيه على وجه المباراة ، ومن هذا قولهم شيء نفيس أى هو أهل أن يتنافس فيه ويورغ ، فيه وهذا أنفس مالى أى أحبه إلى وأنفسى فلان فى كذا أى أرغبنى فيه ، وهذا كله ضد الإيثار به والرغبة عنه .

فصل

وأما قولكم لو ساغ الاهداء إلى الميت لساغ إلى المحي لجوابه من وجهين :

(أحدهما) أنه قد ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم قال القاضي وكلام أحمد لا يقتضى التخصيص بالميت فانه قال يفعل الخير ويجعل نصفه لأبيه وأمه ولم يفرق . واعترض عليه أبو الوفاء بن عقيل وقال هذا فيه بعد وهو تلاعب بالشرع وتصرف فى أمانة الله واجمال على الله سبحانه ثواب على عمل يفعله إلى غيره وبعد الموت قد جعل لنا طريقاً إلى إيصال النفع كالاستغفار والصلاة على الميت .

ثم أورد على نفسه سؤالاً وهو فإن قيل أليس قضاء الدين وتحصيل الكل حال الحياة كقضائه بعد الموت فقد استوى ضمان الحياة و ضمان الموت في أنها يزيدان المطالبة عنه فإذا وصل قضاء الديون بعد الموت وحال الحياة فاجعلوا ثواب الاهداء واصلا حال الحياة وبعد الموت .

وأجاب عنه بأنه لو صح هذا وجب أن تكون الذنوب تكفر عن الحي بتوبة غيره عنه ويندفع عنه ما أثم الآخرة بعمل غيره واستغفاره .

قلت وهذا لا يلزم بل طرد ذلك انتفاع الحي بدعاء غيره له واستغفاره له وتصدقه عنه وقضاء ديونه وهذا حق وقد أذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أداء فريضة الحج عن الحي المعضوب والعاجز وهما حيان .

وقد أجاب غيره من الاصحاب بأن حال الحياة لا تنق بسلامة العاقبة خوفاً أن يرتد المهدي له فلا ينفع بما يهدى اليه .

قال ابن عقيل وهذا عذر باطل باهداء الحي فإنه لا يؤمن أن يرتد ويموت فيحبط عمله ومن جملة ثواب ما أهدى إلى الميت .

قلت هذا لا يلزمهم وموارد النص والإجماع تبطله وترده فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أذن في الحج والصوم عن الميت وأجمع الناس على برامة ذمته من الدين إذا قضاء عنه الحي مع وجود ما ذكر من الاحتمال .

والجواب أن يقال ما أهداه من أعمال البر إلى الميت فقد صار ملكاً له فلا يبطل برده فاعله بعد خروجه عن ملكه كتصرفاته التي تصرفها قبل الردة من عتق وكفارة بل لو حج عن معضوب ثم ارتد بعد ذلك لم يلزم المعضوب أن يقيم غيره يحج عنه فإنه لا يؤمن في الثاني والثالث ذلك .

على أن الفرق بين الحي والميت أن الحي ليس بمحتاج كحاجة الميت إذ يمكنه أن يباشر ذلك العمل أو نظيره فعليه اكتساب الثواب بنفسه وسعيه بخلاف الميت .

وأيضاً فإنه يفرض إلى اتكال بعض الأحياء على بعض وهذه مفسدة كبيرة فإن أرباب الأموال إذا فهموا ذلك واستشعروه استأجروا من يفعل ذلك عنهم فتصير الطاعات معاوضات وذلك يفرض إلى اسقاط العبادات والنوافل ويصير ما يتقرب به إلى الله يتقرب به إلى الآدميين فيخرج عن الإخلاص فلا يحصل الثواب لواحد منهما .

ونحن نمنع من أخذ الاجرة على كل قربة ونحيط بأخذ الاجر عليها كالتقضاء والفتيا وتعليم
العلم والصلاة وقراءة القرآن وغيرها فلا يثيب الله عليها إلا لمخلص اخلص العمل لوجهه
فلذا فعله للاجرة لم يثب عليه الفاعل ولا المستأجر ، فلا يليق بمحاسن الشرع أن يجعل
العبادات الخالصة له معاملات تقصد بها المعاوضات والاكساب الدنيوية . وفارق قضاء
الديون وضمانها فإنها حقوق الآدميين ينوب بعضهم فيها عن بعض فلذلك جازت في الحياة
وبعد الموت .

فصل

وأما قولكم لو ساغ ذلك لساغ اهداء نصف الثواب وربعه إلى الميت فالجواب من وجهين :
(أحدهما) منع الملازمة فإنكم لم تذكروا عليها دليلا إلا مجرد الدعوى .

(الثاني) التزام ذلك والقول به نص عليه الإمام احمد في رواية محمد بن يحيى الكحال
ووجه هذا أن الثواب ملك له فله أن يهديه جميعه وله أن يهدي بعضه . يوضحه انه لو أهداه
إلى أربعة مثلا يحصل لكل منهم ربهه فإذا أهدى الربع وأبقى لنفسه الباقي جاز كما لو
أهداه إلى غيره .

فصل

وأما قولكم لو ساغ ذلك لساغ اهداؤه بعد أن يعمله لنفسه وقد قلتم انه لا بد أن ينوى
حال الفعل اهداؤه إلى الميت وإلا لم يصل .

فالجواب ان هذه المسألة غير منصوطة عن أحد ولا هذا الشرط في كلام المتقدمين من
أصحابه وإنما ذكره المتأخرون كالقاضي وأتباعه .

قال ابن عقيل اذا فعل طاعة من صلاة وصيام وقراءة قرآن وأهداها بأن جعل ثوابها
للميت المسلم فإنه يصل إليه ذلك وينفعه بشرط أن يتقدم نية الهدية على الطاعة أو تقارنها .

(وقال) أبو عبدالله بن حمدان في رعايته ومن تطوع بقربة من صدقة وصلاة وصيام
وحج وعمرة وقراءة وعتق وغير ذلك من عبادة بدنية تدخلها النيابة وعبادة مالية وجعل
جميع ثوابها أو بعضه لميت مسلم حتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودعا له أو استغفر له أو
قضى ما عليه من حق شرعى أو واجب تدخله النيابة نفعه ذلك ووصل إليه أجره وقيل إن
ناه حال فعله أو قبله وصل إليه وإلا فلا .

وسر المسألة أن أوان شرط حصول الثواب أن يقع لمن أهدى له أولا ويجوز أن يقع
للعامل ثم ينتقل عنه إلى غيره ، فمن شرط أن ينوى قبل الفعل أو الفراغ منه وصوله قال

لأنه لو لم ينوّه وقع للثواب للعامل فلا يقبل انتقاله عنه إلى غيره فإن الثواب يترتب على العمل ترتب الأثر على مؤثره . ولهذا لو أعتق عبداً عن نفسه كان ولاؤه له فلو نقل ولاؤه إلى غيره بعد العتق لم ينتقل بخلاف ما لو أعتقه عن الغير فإن ولاؤه يكون للمعتق عنه ، وكذلك لو أذى ديناً عن نفسه ثم أراد بعد الأداء أن يجعله عن غيره لم يكن له ذلك ، وكذلك لو حج أو صام أو صلى لنفسه ثم بعد ذلك أراد أن يجعل ذلك عن غيره لم يملك ذلك ويؤيد هذا أن الذين سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك لم يسألوه عن إهداء ثواب العمل بعده وإنما سألوه عما يفعلونه عن الميت كما قال سعد ابن فضالة أن أتصدق عنها ؟ ولم يقل أن أهدى لها ثواب ما تصدقت به عن نفسي . وكذلك قول المرأة الأخرى أفأحج عنها ؟ وقول الرجل الآخر أفأحج عن أبي ؟ فأجابهم بالأذن في الفعل عن الميت لا بإهداء ثواب ما عملوه لأنفسهم إلى موتاهم فهذا لا يعرف أنه صلى الله عليه وآله وسلم سئل عنه قط ، ولا يعرف عن أحد من الصحابة أنه فعله وقال اللهم اجعل لفلان ثواب عملي المتقدم أو ثواب ما عملته لنفسى .

فهذا سر الاشتراط وهو أفقه ، ومن لم يشترط ذلك يقول الثواب للعامل فإذا تبرع به وأهداه إلى غيره كان بمنزلة ما يهديه إليه من ماله .

فصل

وأما قولكم لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات التي يجب على الحي فالجواب أن هذا الإلزام محال على أصل من شرط في الوصول نية الفعل عن الميت فإن الواجب لا يصح أن يفعله عن الغير فإن هذا واجب على الفاعل يجب عليه أن ينوي به القرية إلى الله .

وأما من لم يشترط نية الفعل عن الغير فهل يسوغ عنده أن يجعل للميت ثواب فرض من فروضه ؟ فيه وجهان : قال أبو عبد الله بن حمدان وقيل إن جعل له ثواب فرض من الصلاة أو صوم أو غيره ما جاز وأجزأ فاعله .

قلت وقد نقل عن جماعة أنهم جعلوا ثواب أعمالهم من فرض ونفل للمسلمين وقالوا نلتق الله بالفقر والإفلاس المجرد والشريعة لا تمنع من ذلك ، فالأجر ملك للعامل فإن شاء أن يجعله لغيره فلا حرج عليه في ذلك . والله أعلم .

فصل

وأما قولكم إن التكاليف امتحان وإبتلاء لا تقبل البدن إذ المقصود منها حين المكلف العامل إلى آخره .

فالجواب عنه أن ذلك لا يمنع إذن الشارع للمسلم أن ينفع أحياه بشيء من عمله . بل هذا من تمام إحسان الرب ورحمته لعباده ومن كمال هذه الشريعة التي شرعها لهم التي مبناها على العدل والإحسان والتعارف ، والرب تعالى أقام ملائكته وحمله عرشه يدعون لعباده المؤمنين ويستغفرون لهم ويسألونه لهم أن يقيمهم السيئات وأمر غاتم رساله أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وبقيمه يوم القيامة مقاما محموداً ليشفع في العصاة من أتباعه وأهل سذته ، وقد أمره تعالى أن يصل على أصحابه في حياتهم وبعد مماتهم ، وكان يقوم على قبورهم فيدعو لهم ، وقد استقرت الشريعة على أن المأثم الذي على الجميع بترك فروض الكفايات يسقط إذا فعله من يحصل المقصود بفعله ولو واحد ، وأسقط سبحانه الارتهان وحرارة الجلود في القبر بضمان الحى دين الميت وأدائه عنه وإن كان ذلك الوجوب امتحانا في حق المسكف وأذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحج والصيام عن الميت وإن كان الوجوب امتحانا في حقه ، وأسقط عن المأموم سجود السهو بصحة صلاة الإمام وخلوها من السهو وقراءة الفاتحة بتحمل الإمام لها فهو يتحمل عن المأموم سهوه وقراءته وسرته لقراءة الإمام وسرته قراءة لمن خلفه وسرته له ، وهل الإحسان إلى المسكف باهداء الثواب إليه إلا تأس بإحسان الرب تعالى والله يحب المحسنين .

والخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعِيالِهِ ، وإذا كان سبحانه يجب من ينفع عِيالِهِ بشربة ماء ومذاقة لبن وكسرة خبز فكيف من ينفعهم في حال ضعفهم وفقهم وانقطاع أعمالهم وحاجتهم إلى شيء يهدى إليهم أحوج ما كانوا إليه فأحب الخلق إلى الله من ينفع عِيالِهِ في هذه الحال .

ولهذا جاء أثر عن بعض السلف أنه من قال كل يوم سبعين مرة رب اغفر لي ولوالدي وللسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات حصل له من الأجر بعدد كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، ولا تستبعد هذا فإنه إذا استغفر لأخوانه فقد أحسن إليهم والله لا يضيع أجر المحسنين .

فصل

وأما قولكم أنه لو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه وإسلامه عنه .

فهذه الشبهة تورد على صورتين :

(صورة تلازم) يدعى فيها اللزوم بين الأمرين ثم يبين انتفاء اللازم فينتفى ملزومه وصورتها هكذا لو نفعه عمل الغير عنه لنفعه إسلامه وتوبته عنه لكن لا ينفعه ذلك فلا ينفعه عمل الغير .

(والصورة الثانية) أن يقال لا ينتفع بإسلام الغير وتوبته عنه فلا ينتفع بصلاته وصيامه وقرائه عنه .

ومعلوم أن هذا التلازم والاقتران باطل قطعاً .

(أما أولاً) فلأنه قياس مصادم لما تظاهرت به النصوص واجتمعت عليه الأمة .

(وأما ثانياً) فلأنه جمع بين ما فرق الله بينه فإن الله سبحانه فرق بين إسلام المرء عن غيره وبين صدقته ووجهه وعتقه عنه فالقياس المسوى بينهما من جنس قياس الدين كما سوا الميتة على المذكي والربا على البيع .

(وأما ثالثاً) فإن الله سبحانه جعل الإسلام سبباً لنفع المسلمين بعضهم بعضاً في الحياة وبعد الموت فإذا لم يأت بسبب انتفاعه بعمل المسلمين لم يحصل له ذلك النفع كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمر بن أبي سلمة لو كان أقر بالتوحيد فصمت أو تصدقت عنه نفعه ذلك . وهذا كما جعل سبحانه الإسلام سبباً لانتفاع العبد بما عمل من خير فإذا فاتته هذا السبب لم ينفعه خير عمله ولم يقبل منه كما جعل الإخلاص والمتابعة سبباً لقبول الأعمال فإذا فقد لم تقبل الأعمال ، وكما جعل الوضوء وسائر شروط الصلاة سبباً لصحتها فإذا فقدت فقدت الصحة وهذا شأن سائر الأسباب مع مسيبتها الشرعية والعقلية والحسية فمن سوى بين حالين وجود السبب وعدمه فهو مبطل .

ونظير هذا الهوس أن يقال لو قبلت الشفاعة في العصاة لقبلت في المشركين . ولو خرج أهل الكباير من الموحدين من النار لخرج الكفار منها ، وأمثال ذلك من الأفيسة التي هي من نجاسات معد أصحابها ورجيع أفواههم .

وبالجملة فالأولى بأهل العلم الاعراض عن الاشتغال بدفع هذه الهديانات لولا أنهم قد سودوا بها صحف الأعمال والصحف التي بين الناس .

فصل

وأما قولكم العبادات نوعان :

(نوع) تدخله النيابة فيحصل ثواب إهدائه إلى الميت .

(ونوع) لا تدخله فلا يصل ثوابه .

فهذا هو نفس المذهب والدعوى فكيف تحتجون به ومن أين لكم هذا الفرق فأى كتاب أم أى سنة أم أى اعتبار دل عليه حتى يجب المصير إليه .

وقد شرع النبي صلى الله عليه وآله وسلم للصوم عن الميت مع أن الصوم لا تدخله النيابة وشرع للأمة أن ينوب بعضهم عن بعض في أداء فرض الكفاية فإذا فعله واحد ناب عن الباقيين في فعله وسقط عنهم المأثم وشرع لقيم الطفل الذي لا يعقل أن ينوب عنه في الإحرام وأفعال المناسك وحكم له بالأجر بفعل نائبه .

وقد قال أبو حنيفة رحمه الله يحرم الرفقة عن المعنى عليه فجعلوا لإحرام رفقة بمنزلة إحرامه . وجعل الشارع إسلام الأبوين بمنزلة إسلام أطفالهما وكذلك إسلام الساب والمالك على القول المنصوص فقد رأيت كيف عدت هذه الشريعة الكاملة أفعال البر من فاعلها إلى غيرهم فكيف يليق بها أن تحجر على العبد أن يتفجع والديه ورحمه وإخوانه من المسلمين في أعظم أوقات حاجاتهم بشيء من الخير والبر يفعله ويحمل ثوابه لهم ، وكيف يتحجر العبد أو اسماً أو يحجر على من لم يحجر عليه الشارع في ثواب عمله أن يصرف منه ماشاء إلى من شاء من المسلمين ، والذي أوصل ثواب الحج والصدقة والعق هو بعينه الذي يوصل ثواب الصيام والصلاة والقرأة والاعتكاف ، وهو إسلام المهدي اليه وتبرع المهدي وإحسانه وعدم حجر الشارع عليه في الإحسان بل ندبه إلى الإحسان بكل طريق ، وقد تواطأت رؤيا المؤمنين وتواترت أعظم تواتر على أخبار الاموات لهم بوصول ما يهدونه إليهم من قرأة وصلاة وصدقة وحج وغيره ولو ذكرنا ما حكى لنا من أهل عصرنا وما بلغنا عن قبلنا من ذلك لطال جداً وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرى رؤياكم قد تواطأت على أنها في العشر الاواخر فاعتبر صلى الله عليه وآله وسلم تواطؤ رؤيا المؤمنين وهذا كما يعتبر تواطؤ روايتهم لما شاهدوه فهم لا يكذبون في روايتهم ولا في رؤياهم إذا تواطأت .

فصل

وأما رد حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو قوله : من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، بتلك الوجوه التي ذكرتموها فنحن ننتصر لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونبين موافقته للصحيح من تلك الوجوه وأما الباطل فيكفينا بطلانه من معارضته للحديث الصحيح الصحيح الذي لا تغمر قناته ولا سبيل إلى مقابلته إلا بالسمع والطاعة والاذعان والقبول وليس لنا بعده الخيرة بل الخيرة وكل الخيرة في التسليم له والقول به ولو خالفه من بين المشرق والمغرب .

فأما قولكم نرده بقول مالك في موطنه : لا يصوم أحد عن أحد . فمنازعوكم يقولون بل نرد قول مالك هذا بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأى الفريقين أحق بالصواب وأحسن رداً .

وأما قوله : وهو أمر مجمع عليه عندنا لا خلاف فيه . فإلك رحمه الله لم يحك إجماع الأمة من شرق الأرض وغربها وإنما حكى قول أهل المدينة فيما بلغه ولم يبلغه خلاف بينهم وعدم اطلاعه رحمه الله على الخلاف في ذلك لا يكون مسقطا لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بل لو أجمع عليه أهل المدينة كلهم لكان الأخذ بحديث المعصوم أولى من الأخذ بقول أهل المدينة الذين لم تضمن لنا العصمة في قولهم دون الأمة ولم يجعل الله ورسوله أقوالهم حجة يجب الرد عند التنازع إليها بل قال الله تعالى : (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

وإن كان مالك وأهل المدينة قد قالوا لا يصوم أحد عن أحد فقد روى الحكم بن عتيبة وسلة بن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه أفتى في قضاء رمضان يطعم عنه وفي النذر يصام عنه .

وهذا مذهب الإمام أحمد وكثير من أهل الحديث وقول أبي عبيد وقال أبو ثور يصام عنه النذر وغيره وقال الحسن بن صالح في النذر يصوم عنه وليه .

فصل

أما قولكم ابن عباس هو رارى حديث الصوم عن الميت وقد قال لا يصوم أحد عن أحد . فغاية هذا أن يكون الصحابي قد أفتى بخلاف ما رواه وهذا لا يقدر في روايته فإن روايته معصومة وفتواه غير معصومة ويجوز أن يكون نسي الحديث أو تأوله أو اعتقده له معارضا راجحا في ظنه أو لغير ذلك من الأسباب على أن فتوى ابن عباس غير معارضة للحديث فإنه أفتى في رمضان أنه لا يصوم أحد عن أحد وأفتى في النذر أنه يصام عنه . وليس هذا بخلاف لروايته بل حمل الحديث على النذر .

ثم إن حديث من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، هو ثابت من رواية عائشة رضي الله عنها فبأن ابن عباس ، خالفه فكان ماذا فخلاف ابن عباس لا يقدر في رواية أم المؤمنين بل رد قول ابن عباس برواية عائشة رضي الله عنها أولى من رد روايتها بقوله .

وأیضا فإن ابن عباس رضي الله عنهما قد اختلف عنه في ذلك وعنه روايتان فليس اسقاط الحديث للرواية المخالفة له عنه أولى من اسقاطها بالرواية الأخرى بالحديث .

فصل

وأما قولكم انه حديث اختلف في إسناده فكلام مجازف لا يقبل قوله إنا الحديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبنا الصحيح ولم يختلف في إسناده .

قال ابن عبد البر ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، وصححه الإمام احمد وذهب إليه وعلق الشافعي القول به على صحته فقال وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصوم عن الميت شيء فإن كان ثابتاً يصح عنه كما يحج عنه . وقد ثبت بلاشك فهو مذهب الشافعي ، كذلك قال غير واحد من أئمة أصحابه ، قال البيهقي بعد حكايته هذا اللفظ عن الشافعي قد ثبت جواز القضاء عن الميت برواية سعيد بن جبير وبجاهد وعطاء وعن عكرمة عن ابن عباس وفي رواية أكثرهم ان امرأة سألت فأشبهه أن تكون غير قصة أم سعد وفي رواية بعضهم صومي عن أمك وسيأتي تقرير ذلك عند الجواب عن كلامه رحمه الله .

وقولكم انه معارض بنص القرآن وهو قوله (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) إساءة أدب في اللفظ وخطأ عظيم في المعنى وقد أعاد الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن تعارض سنته لنصوص القرآن بل تعاضدها وتأييدها وبالله ما يصنع التعصب ونصرة التقليد ، وقد تقدم من الكلام على الآية ما فيه كفاية وبيننا أنها لا تعارض بينها وبين سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بوجه وإنما يظن التعارض من سوء الفهم وهذه طريقة وخيمة ذميمة وهي رد السنن الثابتة بما يفهم من ظاهر القرآن ، والعلم كل العلم تنزيل السنن على القرآن فإنها مشتقة منه وماخوذة عن جاء به وهي بيان له لا أنها مناقضة له .

وقولكم أنه معارض بما رواه النسائي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : لا يصلي أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه كل يوم مد من خنطة . خطأ قبيح فإن النسائي رواه هكذا (أخبرنا) محمد بن عبد الأعلى حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حجاج الاحول حدثنا أيوب بن موسى عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنها قال لا يصلي أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه مسكان كل يوم مد من خنطة . هكذا رواه قول ابن عباس لا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف يعارض قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقول ابن عباس ثم يقدم عليه مع ثبوت الخلاف عن ابن عباس رضي الله عنها ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل هذا الكلام قط . وكيف يقوله وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال من مات وعليه صيام صام عنه وليه . وكيف يقوله وقد قال في حديث بريدة الذي رواه مسلم في صحيحه أن امرأة قالت له إن أمي ماتت وعليها صوم شهر؟ قال صومي عن أمك .

وأما قولكم انه معارض بحديث ابن عمر رضي الله عنهما ، من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه . فمن هذا الخط فإنه حديث باطل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

(قال) البيهقي حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه . لا يصح ومحمد بن عبد الرحمن كثير الوهم وإنما رواه أصحاب نافع عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنها من قوله .

وأما قولكم أنه معارض بالقياس الجلي على الصلاة والإسلام والتوبة فإن أحدا لا يفعلها عن أحد .

فلعمر الله أنه لقياس جلي البطلان والفساد لرد سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصحيحة الصريحة له وشهادتها ببطلانه ، وقد أوضحنا الفرق بين قبول الإسلام عن الكافر بعد موته وبين انتفاع المسلم بما يهديه إليه أخوه المسلم من ثواب صيام أو صدقة أو صلاة ، ولعمر الله أن الفرق بينهما أوضح من أن يخفى وهل في القياس أفسد من قياس انتفاع المسلم بعد موته بما يهديه إليه أخوه المسلم من ثواب عمله على قبول الإسلام عن الكافر بعد موته أو قبول التوبة عن المجرم بعد موته .

فصل

(وأما كلام الشافعي) رحمه الله في تغليط راوي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن نذر أم سعد كان صوما . فقد أجاب عنه أنصر الناس له هو البيهقي ونحن نذكر كلامه بلفظه قال في (كتاب المعرفة) بعد أن حكى كلامه . قد ثبت جواز القضاء عن الميت برواية سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما وفي رواية أكثرهم أن امرأة سألت فأشبهه أن تكون غير قصة أم سعد وفي رواية بعضهم صومي عن أمك ، قال وتشهد له بالصحة برواية عبد الله بن عطاء المدني قال حدثني عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه قال كنته عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأتته امرأة فقالت يا رسول الله إنني كنت تصدقت بوليدة على أمي فماتت وبقيت الوليدة قال قد وجب أجرك ورجعت إليك في الميراث ، قالت فانها ماتت وعليها صوم شهر ؟ قال صومي عن أمك ، قالت وإنها ماتت ولم تحج ؟ قال فحج عن أمك . رواه مسلم في صحيحه من أوجه عن عبد الله بن عطاء انتهى .

(قلت) وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صيام شهر أفأقضيه عنها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لو كان عليها دين أكنت قاضيه عنها ؟ قال نعم . قال فدين الله أحق أن يقضى .

ورواه أبو خيشمة حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن الأعمش . فذكره .

ورواه النسائي عن قتيبة بن سعيد حدثنا عبثر عن الأعمش . فذكره .

فهذا غير حديث أم سعد إنسنادا ومقتنا ؛ فان قصة أم سعد رواها مالك عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن سعد بن عباد استفتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال إن أمى ماتت وعليها نذر ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم اقضه عنها . هكذا أخرجاه فى الصحيحين .

فهب أن هذا هو المحفوظ فى هذا الحديث أنه نذر مطلق لم يسم فهل يكون هذا فى حديث الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير على أن ترك استئصال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لسعد فى النذر هل كان صلاة أو صدقة أو صياما مع أن الناذر قد ينذر هذا وهذا يدل على أنه لافرق بين قضاء نذر الصيام والصلاة وإلا لقال له ما هو النذر فان النذر إذا انقسم إلى قسمين نذر يقبل القضاء عن الميت ونذر لا يقبله ، لم يكن من الاستئصال .

فصل

ونحن نذكر أقوال أهل العلم فى الصوم عن الميت لتلا يتوم أن فى المسألة إجماعا بخلافه .
(قال) عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يصام عنه فى النذر ويطعم عنه فى قضاء رمضان وهذا مذهب الإمام أحمد .

(وقال) أبو ثور يصام عنه النذر والقرض ، وكذلك قال داود بن علي وأصحابه يصام عنه نذرا كان أو فرضاً .

(وقال) الأوزاعى يجعل وليه مكان الصوم صدقة فان لم يجد صام عنه وهذا قول سفيان الثوري فى إحدى الروايتين عنه .

(وقال) أبو عبيد القاسم بن سلام يصام عنه النذر ويطعم عنه فى القرض .

(وقال) الحسن إذا كان عليه صيام شهر فصام عنه ثلاثون رجلا يوما واحدا جاز .

فصل

وأما قولكم أنه يصل اليه فى الحج ثواب النفقة دون أفعال الناسك فدعوى مجردة بلا برهان والسنة ترددها فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال حج عن أهلك ، وقال للمرأة حجى عن أمك ، فأخبر أن الحج نفسه عن الميت ولم يقل ان الاتفاق هو الذى يقع عنه .

وكذلك قال للذي سمعه يلبى عن شبرمة : حج عن نفسك ، ثم حج عن شبرمة .
ولما سأله المرأة عن الطفل الذي معها فقالت لهذا حج ؟ قال نعم ، ولم يقل إنما له ثواب
الاتفاق بل أخبر أن له حجاً مع أنه لم يفعل شيئاً بل وليه ينوب عنه في أفعال المناسك .
ثم إن النائب عن الميت قد لا ينفق شيئاً في حجته غير نفقة مقامه فما الذي يجعل نفقة
ثواب نفقة مقامه للمحجوج عنه وهو لم ينفقها على الحج بل تلك نفقته أقام أم سافر ، فهذا
القول ترده السنة والقياس . والله أعلم .

فصل

فإن قيل فهل تشترون في وصول الثواب أن يهديه بلفظه أم يكفي في وصوله مجردنية
العامل أن يهديها إلى الغير ؟

قيل السنة لم تشترط للتلفظ بالاهداء في حديث واحد بل أطلق صلى الله عليه وآله
وسلم الفعل عن الغير كالصوم والحج والصدقة ولم يقل لفاعل ذلك وقيل اللهم هذا عن فلان
ابن فلان والله سبحانه يعلم نية العبد وقصده بعمله فان ذكره جاز وإن ترك ذكره واكتفى
بالنية والقصد وصل إليه ولا يحتاج أن يقول اللهم إني صائم غدا عن فلان ابن فلان ،
ولهذا والله أعلم اشترط من اشترط نية الفعل عن الغير قبله ليكون واقعا بالقصد عن الميت .
فاما إذا فعله لنفسه ثم نوى أن يجعل ثوابه للغير لم يصح للغير بمجرد النية كالونوى أن يهب
أو يعتق أو يتصدق لم يحصل ذلك بمجرد النية .

وبما بوضوح ذلك أنه لو بنى مكانا بنية أن يجعله مسجدا أو مدرسة أو ساقية ونحو ذلك
صار وقتاً بفعله مع النية ولم يحتاج إلى تلفظ .

وكذلك لو أعطى الفقير مالا بنية الزكاة سقطت عنه الزكاة وإن لم يتلفظ بها .
وكذلك لو أدى عن غيره ديناً كان أو ميتاً سقط من ذمته وإن لم يقل هذا عن فلان .
فإن قيل فهل يتعين عليه تطبيق الإهداء بأن يقول : اللهم إن كنت قبلت هذا العمل
وأثبتت عليه فاجعل ثوابه لفلان أم لا ؟

قيل لا يتعين ذلك لفظاً ولا قصداً بل لافائدة في هذا الشرط فان الله سبحانه إنما يفعل هذا
سواء شرطه أو لم يشرطه . فلو كان سبحانه يفعل غير هذا بدون الشرط كان في الشرط فائدة .
(وأما قوله) : اللهم ان كنت اثبتت على هذا فاجعل ثوابه لفلان ، فهو بناء على ان
الثواب يقع للعامل ثم ينتقل منه إلى من اهدى له ، وليس كذلك ، بل إذا نوى حال الفعل

انه عن فلان وقع الثواب أولا عن المعمول له كآلو أعتق عبده من غيره لا نقول ان الولا يقع للمعتق ثم ينتقل عنه إلى المعتق عنه فهكذا هذا . وبالله التوفيق .

فإن قيل فما الأفضل انه يهدى إلى الميت ؟ قيل الأفضل ما كان أنفع في نفسه فألمعتق عنه والصدقة أفضل من الصيام عنه ، وأفضل الصدقة ما صادفت حاجة من المتصدق عليه وكانت دائمة مستمرة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الصدقة سقى الماء وهذا في موضع يقل فيه الماء ويكثر فيه العطش وإلا فسقى الماء على الأنهار والقفى لا يكون أفضل من إطعام الطعام عند الحاجة وكذلك الدعاء والاستغفار له إذا كان بصدق من الداعى وإخلاص وتضرع فهو في موضعه أفضل من الصدقة عنه كالصلاة على الجنابة والوقوف للدعاء على قبره .

وبالجملة فأفضل ما يهدى إلى الميت للمعتق والصدقة والاستغفار له والدعاء له والحج عنه . وأما قراءة القرآن واهدائها له تطوعا بغير أجره فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج .

فإن قيل فهذا لم يكن معروفاً في السلف ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير ولا أرشدهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليه وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه ولسكانوا يفعلونه .

فالجواب أن مورد هذا السؤال ان كان معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار .

قيل له ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الاعمال وهل هذا إلا تفریق بين المتماثلات ، وان لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع .

وأما السبب الذي لاجله لم يظهر ذلك في السلف فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدى إلى الموتى ولا كانوا يعرفون ذلك البتة ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده^(١) كما يفعله الناس اليوم ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت بل ولا ثواب هذه الصدقة والصوم .

(١) قلت : قد مر في أول هذا الكتاب عن التسمية قال كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرءون القرآن .

ثم يقال لهذا القائل لو كلفت أن تقبل عن واحد من السلف أنه قال اللهم ثواب هذا للصوم لفلان لعجزت ، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر فلم يكونوا ليشهدوا على الله بإبصال ثوابها إلى أمواتهم .

فإن قيل فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرشدكم إلى الصوم والصدقة والحج دون القراءة .

قيل هو صلى الله عليه وآله وسلم لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لمهم فهذا سأله عن الحج عن ميتة فاذن له ، وهذا سأله عن الصيام عنه فاذن له ، وهذا سأله عن الصدقة فاذن له ، ولم يمنعه مما سوى ذلك .

وأى فرق بين وصول ثواب الصوم الذى هو مجرد نية وإمساك بين وصول ثواب القراءة والذكر .

والقائل أن أحداً من السلف لم يفعل ذلك قائل مالا علم له به فإن هذه شهادة على نفي ما لم يعلمه فما يدريه أن للسلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه ، بل يكفى اطلاع علام الغيوب على نياتهم ومقاصدهم لاسيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط كما تقدم .

وسر المسألة أن الثواب ملك للعامل فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أو صله الله إليه ، فما الذى خص من هذا ثواب قراءة القرآن وحجر على العبد أن يوصله إلى أخيه ، وهذا عمل سائر الناس حتى المنكرين فى سائر الأعمار والأمصار من غير تكبير من العلماء .

فإن قيل فما تقولون فى الإهداء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قيل من الفقهاء المتأخرين من استحبه ومنهم من لم يستحبه ورآه بدعة فإن الصحابة لم يكونوا يفعلونه وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم له أجر كل من عمل خيراً من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء لأنه هو الذى دل أمته على كل خير وأرشدهم ودعاهم إليه ، ومن دعا إلى هدى فله من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، وكل هدى وعلم فإنما نالته أمته على يده فله مثل أجر من اتبعه أهداه إليه أو لم يهده . والله أعلم .

المسألة السابعة عشرة

وهي هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة ؟

وإذا كانت محدثة مخلوقة وهي من أمر الله فكيف يكون أمر الله محدثا مخلوقا؟ وقد أخبر سبحانه أنه نفخ في آدم من روحه فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا؟ وما حقيقة هذه الإضافة؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة .

فهذه مسألة زل فيها عالم ، وضل فيها طوائف من بني آدم . وهدى الله اتباع رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين ، فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مبروية مدبرة . هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله وحده الخالق وكل ماسواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة عن قصر فهمه في الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق ، وبأن الله تعالى أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده وتوقف آخرون فقالوا لانقول مخلوقة ولا غير مخلوقة .

وسئل عن ذلك حافظ أصبهان أبو عبد الله بن منده فقال أما بعد فان سائلا سألني عن الروح التي جعلها الله سبحانه قوام نفس الخلق وأبدانهم وذكر أن أقواما تكلموا في الروح وزعموا أنها غير مخلوقة وخص بعضهم منها أرواح القدس وأنها من ذات الله ، قال وأنا أذكر اختلاف أقاويل متقدميهم وأبين ما يخالف أقاويلهم من الكتاب والآثر وأقاويل الصحابة والتابعين وأهل العلم ، وأذكر بعد ذلك وجوه الروح من الكتاب والآثر وأوضح خطأ المتكلم في الروح بغير علم وأن كلامهم يوافق قول جمهور وأصحابه . فنقول وبالله التوفيق أن الناس اختلفوا في معرفة الأرواح ومحلها من النفس .

(فقال) بعضهم الأرواح كلها مخلوقة ، وهذا مذهب أهل الجماعة والآثر واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة .

(وقال) بعضهم الأرواح من أمر الله أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق واحتجوا بقول الله تعالى (قل الروح من أمر ربي) .

(وقال) بعضهم الأرواح نور من أنوار الله تعالى وحياة من حياته واحتجبت بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره . ثم ذكر الخلاف في الأرواح هل تموت أم لا ؟ وهل تعذب مع الأجساد في البرزخ وفي مستقرها بعد الموت ؟ وهل هي النفس أو غيرها .

(وقال) محمد بن نصر المروزي في كتابه تأول صنف من الزنادقة وصنف من الروافض في روح آدم ما تأولته النصارى في روح عيسى وما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصار في المؤمن فبعد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعاً لأن عيسى عندهم روح من الله صار في مريم فهو غير مخلوق عندهم .

وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض أن روح آدم مثل ذلك أنه غير مخلوق وتأولوا قوله تعالى (ونفخت فيه من روحي) وقوله تعالى (ثم سواه ونفخ فيه من روحي) فزعموا أن روح آدم ليس بمخلوق كما تأول من قال إن النور من الرب غير مخلوق ، قالوا ثم صاروا بعد آدم في الوصي بعده ثم هو في كل نبي ووصى إلى أن صار في علي ثم في الحسن والحسين ثم في كل وصى وإمام فيه يعلم الإمام كل شيء ولا يحتاج أن يتعلم من أحد .

ولاخلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنسه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واختراعها ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه قال تعالى (وسخر لكم ماني السموات وماني الأرض جميعاً منه) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية روح الأدمى مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد ابن نصر المروزي الإمام المشهور الذي هو من أعلم أهل زمانه بالإجماع ولا اختلاف وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال في (كتاب اللفظ) لما نسكلم على الروح قال النسب الأرواح . قال وأجمع الناس على أن الله تعالى هو فائق الحجة وبارئ النسمة أي خالق الروح . وقال أبو اسحاق ابن شافلا فيما أجاب به في هذه المسألة سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة هي أو غير مخلوقة ؟ قال وهذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب أن الروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تسكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة ، وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده في ذلك كتاباً كبيراً ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره والشيخ أبو سعيد الخزاز وأبو يعقوب النهرجوري والقاضي أبو يعلى وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد تكبيرهم على من يقول ذلك في روح عيسى ابن مريم فكيف بروح
١٠ - الروح

غيره كما ذكره الإمام أحد فننا كتبه في مجلسه في الرد على الزنادقة والجهمية ، ثم أن الجهمي ادعى أمراً فقال أنا أجد آية في كتاب الله بما يدل على أن القرآن مخلوق قول الله تعالى (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكنته ألقاها إلى مريم وروح منه) وعيسى مخلوق ، قلنا له إن الله تعالى منعك الفهم للقرآن ان عيسى تجرى عليه ألقاظ لا تجرى على القرآن لانا نسميه مولوداً وطفلاً وصيباً وغلاماً يأكل ويشرب وهو مخاطب بالامر والنهي يجرى عليه الخطاب والوعد والوعيد ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم فلا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى فهل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى ؟ ولكن المعنى في قوله تعالى (إن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكنته ألقاها إلى مريم وروح منه) فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له كن ، فكان عيسى يكن وليس عيسى هو كن ولكن كان يكن . فكن من الله قول وليس كن مخلوقاً وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى وذلك أن الجهمية قالوا روح الله وكنته إلا أن كلمته مخلوقة . وقالت النصارى عيسى روح الله وكلمته من ذاته كما يقال هذه الحرقه من هذا الثواب قلنا نحن أن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة وإنما الكلمة قول الله تعالى كن وقوله (وروح منه) يقول من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) يقول من أمره وتفسير روح الله إنما معناها بكلمة الله خلقها كما يقال عبد الله وسماء الله وأرض الله فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الأرواح وقد أضاف الله إليه الروح الذي أرسله إلى مريم وهو هبده ورسوله ولم يدل على ذلك أنه قديم غير مخلوق فقال تعالى (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً قال إنما أنا رسول ربك لا هب لك غلاماً زكياً) فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أقسام المضاف إلى الله وأنى يكون المضاف صفة له قديمة وأنى يكون مخلوقاً وماضياً ذلك .

فصل

والذي يدل على خلقها وجوه :

(الوجه الأول) قول الله تعالى (الله خالق كل شيء) فهذا اللفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل في ذلك صفاته فانها داخله في مسمى باسمه فانه سبحانه هو الإله الموصوف بصفات الكمال فله وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل في مسمى اسمه ليس داخل في الأشياء المخلوقة كما لم تدخل ذاته فيها فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق .

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هي الله ولا صفة من صفاته وإنما هي مصنوع من مصنوعاته فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس .

(الوجه الثاني) قوله تعالى لركبنا (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) وهذا الخطاب لروحه وبدنه ليس لبدنه فقط فإن البدن وحده لا يفهم ولا يخاطب ولا يعقل وإنما الذي يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

(الوجه الثالث) قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) .

(الوجه الرابع) قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) وهذا الاخبار إنما يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقوله الجهور وأما أن يكون واقفاً على الأرواح قبل خلق الأجساد كما يقوله من يزعم ذلك ، وعلى التقدير فهو صريح في خلق الأرواح .

(الوجه الخامس) النصوص الدالة على أنه سبحانه ربنا ورب آباءنا الأولين ورب كل شيء وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا فالأرواح مربية له مملوكة كما أن الأجسام كذلك وكل مربوب مملوك فهو مخلوق .

(الوجه السادس) أول سورة في القرآن وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه . أحدها قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) والأرواح من جملة العالم فهو ربها . (الثاني) قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) فالأرواح عابدة له مستعينة ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعاناً بها .

(الثالث) أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم .

(الرابع) أنها منعم عليها مرحومة ومفضوب عليها وضالة شقية وهذا شأن المربوب والملوك لا شأن القديم غير المخلوق .

(الوجه السابع) النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بجملة وليس عبوديته واقعة على بدنه دون روحه بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع كما أنه تبع لها في الأحكام وهي التي تحركه وتستعمله وهو تبع لها في العبودية .

(الوجه الثامن) قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئاً مذكوراً فإنه إنما هو إنسان بروحه لا يبدنه فقط كما قيل :

يا عادم الجسم كم تشق بخدمته فانك بالروح لا بالجسم إنسان

(الوجه التاسع) النصوص الدالة على أن الله سبحانه كان ولم يكن شيء غيره كما ثبت في صحيح البخارى من حديث عمران بن حصين أن أهل اليمن قالوا يارسول الله جئناك لنفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوى وجودها وجوده تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره في أوليته بوجه .

(الوجه العاشر) النصوص الدالة على خلق الملائكة وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها وهم مخلوقون قبل خلق الانسان وروحه فإذا كان الملك الذى يحدث الروح في جسد ابن آدم بنفخته مخلوقاً فكيف تكون الروح الحادثة بنفخة قديمة ؟ وهؤلاء الغالطون يظنون أن الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه وهذا ضلال وخطأ وإنما يرسل الله سبحانه إليه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة فتكون النفخة هي سبب حصول الروح وحدوثها له كما كان الوطء والانزال سبب تكوين جسمه ، والغذاء سبب نموه ، فإدخال الروح من نفخة الملك ومادة الجسم من صب الماء في الرحم ، فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية فمن الناس من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية ترابية مهينة تناسب الأرواح السفلية فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه .

(الوجه الحادى عشر) حديث أنى هريرة رضى الله عنه الذى في صحيح البخارى وغيره عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة ، وهذا الحديث رواه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين وسلمان الفارسي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو وعلى بن أبى طالب وعمرو بن عبسة رضى الله عنهم .

(الوجه الثانى عشر) أن الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب قال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) والأنفس هاهنا هي الأرواح قطعاً . وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى قتادة الأنصارى عن أبيه قال سئنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفردات ليلة فقلنا يارسول الله لو عرست بنا ، فقال لى أخاف أن تماموا فن يوقظنا للصلاة؟ فقال بلال أنا يارسول الله فعرس بالقوم فاضطجعوا واستند بلال إلى راحلته فنقلته هيناه فاستيقظ

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد طلع جانب الشمس فقال يا بلال أين ماقلت لنا؟ فقال والذي بيمك بالحق ما القيت على نومة مثلها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء فهذه الروح المقبوضة هي النفس التي يتوفاها الله حين موتها وفي منامها التي يتوفاها ملك الموت ، وهي التي تتوفاها رسل الله سبحانه وهي التي يجاس الملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرها ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ويصعد بها إلى السماء فتصلى عليها الملائكة أو تلعنها وتوقف بين يدي ربه فيقضى فيها أمره ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعم ، وهي التي تجعل في أجواف الطير الحضر تأكل وتشرب من الجنة ، وهي التي تعرض على النار غدوا وعشيا ، وهي التي تؤمن وتكفر وتطيع وتمصى ، وهي الامارة بالسوء وهي اللوامة وهي المطمئنة إلى ربه وأمره وذكره ، وهي التي تعذب وتمعم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل وتصح وتسقم وتلد وتأم وتخاف وتخزن وما ذاك إلا سمات مخلوق مبدع ، وصفات منشاء مخترع ، وأحكام مربوط مدبر مصرف تحت مشيئة خالقه وقاطره وبارئه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول عند نومه : اللهم أنت خلقت نفسى وأنت توفاها ، لك بماتها وحياها فإن أسكتها فارحها وإن أرساتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ، وهو تعالى بارئ النفوس كما هو بارئ الأجساد قال تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) قيل من قبل أن نبرأ المصيبة وقيل من قبل أن نبرأ الأرض ، وقيل من قبل أن نبرأ الأنفس وهو أولى لأنه أقرب مذكور إلى الضمير ، ولو قيل يرجع إلى الثلاثة أى من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه .

وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوطة مصنوعة وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربه وقاطرها ليس لها من نفسها إلا العدم ، فهى لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، لا تستطيع أن تأخذ من الخير إلا ما أعطها وتتق من الشر إلا ما واثاها ولا تهتدى إلى شئ من صالح دنيها وأخرها إلا بهداه ، وتصلح إلا بتوفيقه لها وإصلاحه إياها ، ولا تعلم إلا ما علمها ، ولا تتعدى ما ألهمها ، فهو الذى خلقها فسواها وألهمها مجورها وتقواها ، فأخبر سبحانه أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من النجور والتقوى خلافاً لمن يقول انها ليست مخلوقة ولمن يقول انها وإن كانت مخلوقة فليس خالقاً لأفعالها بل هى التي تخلق أفعالها وهما قولان لأهل الضلال والنعى .

ومعلوم انها لو كانت قديمة غير مخلوقة لكانت مستغنية بنفسها في وجودها وصفاتها وكالها وهذا من ابطال الباطل . فإن فقرها اليه سبحانه في وجودها وكالها وصلاحتها هو من لوازم ذاتها ليس معللا بعلته فإنه أمر ذاتي لها كما أن غنى ربها وفاطرها ومبدعها من لوازم ذاته ليس معللا بعلته فهو سبحانه الغني بالذات وهي الفقيرة اليه بالذات فلا يشاركه سبحانه في غناه مشارك كما لا يشاركه في قدمه وربوبيته وملكوته التام . وكاله المقدس مشارك ، فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهد على الابدان .

قال تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) وهذا الخطاب بالفقر اليه للأرواح والابدان ليس هو للابدان فقط ، وهذا الغنى التام لله وحده لا يشركه فيه غيره وقد أرشد الله سبحانه عباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله (فلولا إذا بلغت الخلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين) أي فلولا ان كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الابدان إذا وصلت إلى هذا الموضع أو لاتعدون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجزية بعملها .

وكما تقدم ذكره في هذا الجواب من أحكام الروح وشأنها ومستقرها بعد الموت فهو دليل على أنها مخلوقة مربوبة مدبرة ليست بقديمة .

وهذا الأمر أوضح من أن تساق الأدلة عليه ولولا ضلال من المتصوفة وأهل البدع ومن قصر فهمه في كتاب الله وستة رسوله فأتى من سوء الفهم لامن النص تكلموا في أنفسهم وأرواحهم بما دل على أنهم من أجهل الناس بها ، وكيف يمكن من له أدنى مسكة من عقل أن ينكر أمراً تشهد عليه به نفسه وصفاته وأفعاله وجوارحه وأعضاؤه بل تشهد به السموات والأرض والخليقة فله سبحانه في كل ماسواه آية بل آيات تدل على أنه مخلوق مربوب وأنه خالق وربه وبارؤه ومليكه ولو جحد ذلك فمه شاهد عليه .

فصل

وأما ما احتجت به هذه الطائفة فأما ما أتوا به من اتباع متشابه القرآن واعدول عن حكمه فهذا شأن كل ضلال ومبتدع .

فحكم القرآن من أوله إلى آخره يدل على أن الله تعالى خالق الأرواح ومبدعها .

وأما قوله تعالى (قل الروح من أمر ربي) فمعلوم قطعاً أنه ليس المراد هاهنا بالامر ب الذي هو أحد أنواع الكلام فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به ، وإنما المراد

بالأمر هاهنا الأمور وهو عرف مستعمل في لغة العرب وفي القرآن منه كثير كقوله تعالى (أتى أمر الله) أي أموره الذي قدره وقضاه وقال له كن فيكون ، وكذلك قوله تعالى (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك) أي أموره الذي أمر به من اهلاكهم ، وكذلك قوله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر) وكذلك الخلق يستعمل بمعنى الخلق كقوله تعالى للجنة أنت رحمتي فليس في قوله تعالى (قل الروح من أمر ربي) ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما ، وقد قال بعض السلف في تفسيرها جرى بأمر الله في أجساد الخلق وبقدرته استقر .

وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المستول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم ، وقد ثبت في الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن طلحة عن عبد الله قال بينا أنا أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حرة المدينة وهو متكئ على عسيب فررنا على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح ، وقال بعضهم لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء تكرهونه وقال بعضهم نسأله فقام رجل فقال يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعلت أنه يوحى إليه فقمت فلما تجمل عنه قال (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس .

وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب وقد تسكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة .

(فإن قيل) فقد قال أبو الشيخ حدثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم أبنا إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال بعثت قريش عقبه بن أبي معيط وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا لهم انه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبي وليس على ديننا ولا على دينكم ، قالوا فمن تبعه ؟ قالوا سفلتنا والضعفاء والعميد ومن لاخير فيه وأما أشراف قومه فلم يتبعوه ، فقالوا انه قد أظل زمان نبي يخرج وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل فأتوه فأسألوه عن ثلاث خصال تأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي صادق ، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب ، سلوه عن الروح التي نفع الله تعالى في آدم فان قال لكم هي من الله فقولوا كيف يعذب الله في النار شيئا هو

منه ؟ فسأل جبريل عنها فأنزل الله عز وجل (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) يقول : هو خلق من خلق الله ليس هو من الله . ثم ذكر باقي الحديث .

قبل مثل هذا الاسناد لا يحتج به فانه من تفسير السدى عن أبي مالك وفيه أشبه منكرة وسياق هذه القصة في السؤال من الصحاح والمسائيد كلها تخالف سياق السدى ، وقد رواها الأعمش والمغيرة بن مقسم عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ملا من اليهود وأنا أمشي معه فسألوه عن الروح قال فسكت فظننت أنه يوحى إليه فنزلت (ويسألونك عن الروح) يعني اليهود (قل الروح من أمر ربي وما أوتوا^(١) من العلم إلا قليلا) . وكذلك هي في قراءة عبد الله فقالوا كذلك نجد مثله في التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل . رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة .

(وروى) يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنها قال أتت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه عن الروح فلم يجبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشيء فأنزل الله عز وجل (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

فهذا يدل على ضعف حديث السدى وأن السؤال كان بمكة فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح في أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من اعلام الله له وما أنزله عليه .

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب فاما أن تكون من قبل الرواة أو تكون أقواله قد اضطربت فيها ونحن نذكر ذلك فقد ذكرنا رواية السدى عن أبي مالك عنه ، ورواية داود بن أبي هند عن عكرمة عنه تخالفها ، وفي رواية داود بن أبي هند هذه اضطراب فقال مسروق بن المرزبان وإبراهيم بن أبي طالب عن يحيى بن زكريا عنه أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم . الحديث .

(وقال) محمد بن نصر المروزي حدثنا اسحاق أنبأنا يحيى بن زكريا عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال قالت قريش لليهود أعطونا شيئا لسأل عنه هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فنزلت (ويسألونك عن الروح) الآية .

(١) هكذا قرأها عبد الله كما في كتب التفسير . وكان في الاصل : وما أوتيتم . على القراءة المشهورة .

وهذا يخالف الرواية الأخرى عنه وحديث ابن مسعود .

وعن ابن عباس رواية ثالثة قال هشيم حدثنا أبو بشر عن مجاهد عن ابن عباس قل الروح أمر من أمر الله عز وجل وخلق من خلق الله وصور مثل صور بني آدم وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح . وهذا يدل على أنها غير الروح التي في ابن آدم .

وعنه رواية رابعة قال ابن منده زوى عبد السلام بن حرب عن خصيف عن مجاهد عن ابن عباس (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) قد نزل من القرآن بمنزلة كن نقول كما قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) ثم ساق من طريق خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء الرقيم والغسلين والروح .

وقوله تعالى (وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه) .

وعنه رواية خامسة رواها جوير عن الضحاك عنه أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح فقال قال الله تعالى (قل الروح من أمر ربي) يعني خلقاً من خلقي (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) يعني لو سئلتهم عن خلق أنفسكم وعن مدخل الطعام والشراب ومخرجهما ما وصفتهم ذلك حق صفته وما اهتديتم لصفتها .

وعنه رواية سادسة روى عبد الغنى بن سعيد حدثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (ويسألونك عن الروح) وذلك أن قريشاً اجتمعت فقال بعضهم لبعض والله ما كان محمد يكذب ولقد أنشأ فينا بالصدق والأمانة فأرسلوا جماعة إلى اليهود فأسألوهم عنه وكانوا مستبشرين به ويكثرون ذكره ويدعون نبوته ويرجون نصرته موقنين بأنه سيهاجر إليهم ويكونون له أنصاراً فأسألوهم عنه فقالت لهم اليهود سلوه عن ثلاث ، سلوه عن الروح وذلك أنه ليس في التوراة قصته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح فأنزل الله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) يريد من خلق ربي عز وجل .

والروح في القرآن على عدة أوجه :

(أحدها) الوحي كقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) وقوله تعالى (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) وسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

(الثاني) القوة والثبات والنصرة التي يؤدي بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) .

(الثالث) جبريل كقوله تعالى (نزل به الروح الامين على قلبك) وقال تعالى (من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) وهو روح القدس قال تعالى (قل نزله روح القدس) .
(الرابع) الروح التي سأل عنها اليهود فاجيبوا بانها من امر الله وقد قيل انها الروح المذكورة في قوله تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون) وانها الروح المذكور في قوله (تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم) .

(الخامس) المسيح ابن مريم قال تعالى (انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه) واما ارواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن الا بالنفس قال تعالى (يا ايها النفس المطمئنة) وقال تعالى (ولا أقسم بالنفس اللوامة) وقال تعالى (ان النفس لامارة بالسوء) وقال تعالى (اخرجوا انفسكم) وقال تعالى (ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها) وقال تعالى (كل نفس ذائقة الموت) واما في السنة لجاءت بلفظ النفس والروح .
والمقصود ان كونها من امر الله لا يدل على قدمها وانها غير مخلوقة .

فصل

و اما استدلالهم باضافتها اليه سبحانه بقوله تعالى (ونفخت فيه من روحي) فينبغي ان يعلم ان المضاف الى الله سبحانه نوعان ، صفات لا تقوم بانفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر ، فهذه إضافة صفة الى الموصوف بها فعله وكلامه وإرادته وقدرته وحياته وصفات له غير مخلوقة وكذلك وجهه ويده سبحانه .

(والثاني) اضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح ، فهذه اضافة مخلوق الى خالقه ومصنوع الى صانعه لكنها إضافة تقتضي تخصيصا وتشريفا يميز به المضاف عن غيره كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكا له وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكة وخلقها لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده ، فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد والخاصة تقتضي الاختيار والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) و اضافة الروح اليه من هذه الإضافة الخاصة لامن للعامة ولامن باب إضافة الصفات فتأمل هذا الموضوع فإنه يخلصك من صلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس فان قيل فما تقولون في قوله تعالى (ونفخت فيه من روحي) فأضاف النفخ إلى نفسه وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى كما في قوله (خلقت بيدي) ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله صلى

الله عليه وآله وسلم فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلبك أسماء كل شيء . فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك وقد قال الله تعالى : (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي) فهو الذي سواه بيده وهو الذي نفخ فيه من روحه ؟ .

قيل هذا الموضوع الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدوم الروح ، وتوقف فيها آخرون ولم يفهموا مراد القرآن . فأما الروح المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا . وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم (التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها وكان النفخ مضافاً إلى الله أمراً وإذنًا وإلى الرسول مباشرة .
يبقى هنا أمران :

(أحدهما) أن يقال فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر فما وجه تسمية المسيح روح الله ؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فاخصية المسيح ؟ .

(الثاني) أن يقال فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح هو الذي نفخها فيه باذن الله كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه كما خلقه بيده ؟ قيل لعمرو الله انهما سؤالان مهان ! فأما الأول فالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الله الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه وهو روح خاص من بين سائر الأرواح وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار فإن الله سبحانه وكل بالرحم ملكا ينفخ الروح في الجنين فيكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته .

وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع فإن نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم ولا خلقة سائر النوع من أب وأم ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده ، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء خلق الله له بيده ونفخ فيه من روحه ، واسجد ملائكته له ، وتعليمه أسماء كل شيء فنفخه فيه من روحه يستلزم نافعاً ونفعاً ومنفوخاً منه فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله فمنها سرت النفخة في طينة آدم والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من

تلك الروح هذا هو الذي دل عليه النص . وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده أو أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم عليها السلام فهذا يحتاج إلى دليل . والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه أن اليد غير مخلوقة والروح مخلوقة والخلق فعل من أفعال الرب وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه ؟ وهذا مما لا يحتاج إلى دليل ، وهذا بخلاف النفخ في فرج مريم فإنه مفعول من مفعولاته وأضافه إليه لأنه باذنه وأمره فنفخه في آدم هل هو فعل له أو مفعول وعلى كل تقدير فالروح الذي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة وهي مادة روح آدم فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد .

المسألة الثامنة عشرة

وهي تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها

فهذه المسألة للناس فيها قولان معروفان حكاهما شيخ الإسلام وغيره . ومن ذهب إلى تقدم خلقها محمد بن نصر المروزي وأبو محمد بن حزم وحكاه ابن حزم لإجماعا . ونحن نذكر حجج الفريقين وما هو الأولى منها بالصواب .

قال من ذهب إلى تقدم خلقها على خلق البدن قال الله تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا لللائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) قالوا ثم للترتيب والمهلة فقد تضمنت الآية أن خلقها مقدم على أمر الله لللائكة بالسجود لآدم ومن المعلوم قطعاً أن أبداننا حادثة بعد ذلك فلم أنها الأرواح . قالوا ويدل عليه قوله سبحانه (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) قالوا وهذا الاستطاق والاشهاد إنما كان لأرواحنا إذ لم تكن الأبدان حيثئذ موجودة . ففي الموطأ (حدثنا) مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عنها فقال خلق الله آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون ، وخلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون فقال رجل يا رسول الله فقيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار . قال الحاكم هذا حديث على شرط مسلم

وروى الحاكم أيضاً من طريق هشام بن سعد^(١) عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة. أمثال الذر ، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور . ثم عرضهم على آدم فقال من هؤلاء يارب ؟ قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً منهم أعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يارب من هذا ؟ فقال هذا ابنك داود يكون في آخر الأمم قال كم جعلت له من العمر ؟ قال ستين سنة قال يارب زده من عمري أربعين سنة ، فقال الله تعالى إذا كتب ويحتم فلا يدل فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت قال أولم يبق من عمري أربعون سنة ؟ فقال أولم تجعلها لابنك داود ؟ قال فجد فجدت ذريته ونسب فذريت ذريته وخطيئته فخطت ذريته — قال هذا على شرط مسلم . ورواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح . ورواه الامام أحمد من حديث ابن عباس قال لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان أول من جعل آدم . وزاد محمد بن سعد ثم أكل الله لآدم الف سنة ولداود مائة سنة .

وفي صحيح الحاكم أيضاً من حديث أبي جعفر الرازي حدثنا الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى : (ولذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية قال جمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن إلى يوم القيامة فجعلهم أرواحاً ثم صورهم واستنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق (وأشهدهم على أنفسهم ألسنتهم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) قال فاني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) فلا تتركوا في شيئاً فاني أرسل اليكم رسلي يذكر ونسبكم عهدي وميثاقى وأنزل عليكم كتيبي ، فقالوا فنشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ، ورفع لهم أبوم آدم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة وغير ذلك ، فقال رب لوسويت بين عبادك ، فقال انى أحب أن أشكر ، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج ونحوها بميثاق أخبر بالرسالة والنبوة فذلك قوله (واذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) وهو قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطره الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وهو قوله تعالى (هذا نذير من النذر الأولى) وقوله تعالى (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفساقين) وكان روح عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عليها الميثاق فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فدخل من فيها وهذا اسناد صحيح .

(١) في الاصل : زيد . خطأ والحديث في المستدرک - ج ٢ ص ٣٢٥

(فقال) اسحاق بن راهويه حدثنا بغية بن الوليد قال أخبرني الزبيدي محمد بن الوليد عن راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن قتادة البصرى عن أبيه عن هشام بن حكيم بن حزام أن رجلا قال يارسول الله أتبتدأ الأعمال أم قد مضى القضاء ؟ فقال ان الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه فقال هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، فأهل الجنة ليسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ليسرون لعمل أهل النار .

(قال) اسحاق وأبانا النصر حدثنا أبو معشر عن سعيد المقبرى ونافع مولى الزبير عن أبي هريرة قال لما أراد الله أن يخلق آدم - فذكر خلق آدم - فقال له يا آدم أى يدى أحب إليك أن أريك ذريتك فيها ؟ فقال يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين فبسط يمينه فإذا فيها ذريته كلهم ما هو خالق إلى يوم القيامة الصحيح على هيئته والمبتلى على هيئته والانبيا على هيئتهم فقال ألا أعفيتهم كلهم ، فقال انى أحب ان أشكر . وذكر الحديث .

(وقال) محمد بن نصر حدثنا محمد بن يحيى حدثنا سعيد بن أبي مرزوق أخبرنا الليث بن سعد حدثني ابن عجلان عن سعد بن أبي سعيد المقبرى عن أبيه عن عبدالله بن سلام قال خلق الله آدم ثم قال بيديه فقبضهما فقال اختر يا آدم فقال اخترت يمين ربى وكلتا يديه يمين ، فبسطها فإذا فيها ذريته ، فقال من هؤلاء يارب ؟ قال من قبضت أن اخلق من ذريتك من أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة .

(قال) واخبرنا اسحاق حدثنا جعفر بن عون أبانا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة .

وحدثنا اسحاق وعمرو بن زرارة أخبرنا اسماعيل عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس فى قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية قال مسح ربك ظهر آدم فخرجت منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة نعمان هذا الذى رواه عرفة فأخذ ميثاقهم (الست بربكم قالوا بلى شهدنا) .

ورواه أبو جمره الضبي ومجاهد وحبيب بن أبى ثابت وأبو صالح وغيرهم عن ابن عباس . وقال اسحاق أخبرنا جرير بن منصور عن مجاهد عن عبدالله بن عمرو فى هذه الآية قال أخذهم كما يؤخذ المشط بالرأس .

(وحدثنا) حجاج بن ابن جريح عن الزبير بن موسى عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن الله ضرب منكبه اليمين فخرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء نقية فقال هؤلاء أهل الجنة ثم ضرب منكبه اليسر فخرجت كل نفس مخلوقة لنار سوداء فقال

هؤلاء أهل النار ، ثم أخذ عهده على الإيمان به والمعرفة له ولامره والتصديق به وبأمره من
بني آدم كلهم وأشهدهم على أنفسهم فأمنوا وصدقوا وعرفوا وأقروا .

(وذكر) محمد بن نصر من تفسير السدى عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة
الهمداني عن ابن مسعود عن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى
(وإذ أخذ ربك من بني آدم) الآية لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء مسح
صفحة ظهر آدم البيني فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ وكهيئة الذر فقال لهم ادخلوا الجنة
برحمتي ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال ادخلوا النار
ولا أبالي ، فذلك حيث يقول (وأصحاب اليمين) (وأصحاب الشمال) ثم أخذ منهم الميثاق
فقال (ألسنت بربكم قالوا بلى) فأعطاء طائفة طائمين وطائفة كارهين على وجه التقية فقال هو
والملائكة (شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من
قبل وكنا ذرية من بعدهم) فليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف أن الله ربه ، ولا مشرك إلا وهو يقول
إنا وجدنا آباءنا على أمة فذلك قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم) وقوله تعالى (وله
أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها) وقوله تعالى (فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم
أجمعين) قال يعني يوم أخذ عليهم الميثاق .

(قال اسحاق) وأخبرنا روح بن عباد حدثنا موسى بن عبيدة الرزدي قال سمعت محمد بن كعب
القرظي يقول في هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بني آدم) الآية أقروا له بالإيمان والمعرفة ،
الأرواح قبل أن يخلق أجسادها .

(قال) وحدثنا الفضل بن موسى عن عبد الملك عن عطاء في هذه الآية قال اخرجوا من صلب
آدم حين أخذ منهم الميثاق ثم ردوا في صلبه .

(قال) اسحاق وأخبرنا علي بن الأجلح عن الضحاك قال ان الله أخرج من ظهر آدم يوم
خلقه ما يكون إلى أن تقوم الساعة فأخرجهم مثل الذر فقال (ألسنت بربكم قالوا بلى) قالت
الملائكة (شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) ثم قبض قبضة يمينه فقال
هؤلاء في الجنة ، وقبض أخرى فقال هؤلاء في النار .

(قال) اسحاق وأخبرنا أبو عامر العقدي وأبو نعيم الملائق قال حدثنا هشام بن سعد عن يحيى
وليس بابن سعيد قال قلص لابن المسيب ما تقول في العزل ؟ قال إن شئت حدثتك حديثا هو
حق إن الله سبحانه لما خلق آدم أراه كرامة لم يرها أحدا من خلق الله ، أراه كل نسمة هو
خالقها من ذريته إلى يوم القيامة فن حدثك أن يزيد فيهم شيئا أو ينقص منهم فقد كذب
ولو كان لي سبعون ما باليت .

وفي تفسير ابن عيينة عن الربيع بن أنس عن أبي العالية (وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً) قال يوم أخذته الميثاق .

(قال اسحاق) فقد كانوا في ذلك الوقت مقرين وذلك أن الله عز وجل أخبر أنه قال (ألسنت بربكم قالوا بلى) والله تعالى لا يخاطب إلا من يفهم عنه المخاطبة ولا يجيب إلا من فهم السؤال ، فأجابتهم إياه بقولهم دليل على أنهم قد فهموا عن الله وعقلوا عنه استشهاده إياهم (ألسنت بربكم) فأجابوه من بعد عقل منهم للمخاطبة وفهم لها بأن (قالوا بلى) فأقروا له بالربوبية .

فصل

واحتجوا أيضاً بما رواه أبو عبد الله بن منده أخبرنا محمد بن صابر البخاري حدثنا محمد بن المنذر بن سعد الهروي حدثنا جعفر بن محمد بن هارون المصيصي حدثنا عتبة بن السكن حدثنا أوطاة بن المنذر حدثنا عطاء بن عجلان عن يونس بن حليس عن عمرو بن عبسة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألني عام فما تعارف منها ائتاف وما تناكر منها اختلف . فهذا بعض ما احتج به هؤلاء .

قال الآخرون الكلام معكم في مقامين : أحدهما ذكر الدليل على الأرواح أنها خلقت بعد خلق الأبدان ، الثاني الجواب عما استدلتتم به .

فأما المقام الأول فقد قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكروا نثى) وهذا خطاب للإنسان الذي هو روح وبدن فدل على أن جملة مخلوقة بعد خلق الأبوين وأصرح منه قوله (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله) الآية وهذا صريح في أن خلق جملة النوع الإنساني بعد خلق أصله .

فإن قيل فهذا لا ينق تقدم خلق الأرواح على أجسادها وإن خلقت بعد خلق أبي البشر كادلت عليه الآثار المتقدمة .

قيل سببين إن شاء الله تعالى أن الآثار المذكورة لا تدل على سبق الأرواح الأجساد سبقاً مستقراً ثابتاً . وغايتها أن تدل بعد صحتها وثبوتها على أن بارئها وفاطرها سبحانه صور النسم وقدر خلقها وآجالها وأعمالها واستخرج تلك الصور من مادتها ثم أعادها إليها ، وقدر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له ، ولا تدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً ثم استمرت موجودة حية عالمة ناطقة كلها في موضع واحد ثم ترسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة كما قاله

أبو محمد بن حزم ، فهل تحمل الآثار مالا طاقة لنا به ؟ نعم الرب سبحانه يخلق منها جملة بعد جملة على الوجه الذى سبق به التقدير أولافيجيء الخلق الخارجى مطابقا للتقدير السابق كشأنه تعالى فى جميع مخلوقاته فإنه قدر لها أقداراً وآجالاً وصفات وهيات ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير الذى قدره لها لاتزيد عليه ولا تنقص منه .

فالأثار المذكورة إنما تدل على إثبات القدر السابق وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة ، وأما مخاطبتهم واستنطاقهم وإقرارهم له بالرؤية وشهادتهم على أنفسهم بالعبودية فمن قاله من السلف فإنما هو بناء منه على فهم الآية والآية لم تدل على هذا بل دلت على خلافه .

وأما حديث مالك فقال أبو عمر هو حديث منقطع ، مسلم بن يسار لم يلق عمر بن الخطاب وبينهما فى هذا الحديث نعيم بن ربيعة وهو أيضاً مع هذا الإسناد لا يقوم به حجة ، ومسلم ابن يسار هذا مجهول قيل أنه مدنى وليس بمسلم بن يسار البصرى قال ابن أبي خيثمة قرأت على يحيى بن معين حديث مالك هذا عن زيد بن أبي أنيسة فكذب بيده على مسلم بن يسار « لا يعرف » .

ثم ساقه أبو عمر من طريق النسائى (أخبرنا) محمد بن وهب حدثنا محمد بن سلمة قال حدثنى أبو عبد الرحيم قال حدثنى زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة .

ثم ساقه من طريق سخيرة (حدثنا) أحمد بن عبد الملك بن واقد حدثنا محمد بن سلمة عن أبي عبد الرحيم عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد عن مسلم عن نعيم قال أبو عمرو زيادة من زاد فى هذا الحديث نعيم بن ربيعة ليست حجة أن الذى لم يذكره احفظ وإنما الزيادة من الحافظ المتقن .

وجملة القول فى هذا الحديث أنه حديث ليس إسناده بالقائم لأن مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعاً غير معروفين بحمل العلم ولكن معنى هذا الحديث قد صرح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه كثيرة ثابت يطول ذكرها من حديث عمر بن الخطاب وغيره وجماعة يطول ذكرهم .

ومراد أبو عمر الأحاديث الباطلة على القدر السابق فإنها هى التى ساقها بعد ذلك فذكر حديث عبد الله بن عمر فى القدر وقال فى آخره وسأله رجل من مزينة أوجوبتة فقال يا رسول

الله فقيم العمل ؟ فقال ان أهل الجنة ييسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ييسرون لعمل أهل النار .

قال وروى هذا المعنى في القدر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن علي بن أبي طالب وأبي بن كعب وعبد الله بن عباس وابن عمر وأبو هريرة وأبو سعيد وأبو سريحة الغفاري وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو وعمران بن حصين وعائشة وأنس بن مالك وسراقة ابن جشم وأبو موسى الأشعري وعبادة بن الصامت ، وأكثر أحاديث هؤلاء لها طرق شتى ثم ساق كثيرا منها بإسناده .

وأما حديث أبي صالح عن أبي هريرة فأنما يدل على استخراج الذرية وتمثلهم في سمور الذر وكان منهم حينئذ المشرق والمغرب وليس فيه أنه سبحانه خلق أرواحهم قبل الأجساد وأقرها بموضع واحد ثم يرسل كل روح من تلك الأرواح عند حدوث بدنها إليه ، نعم هو سبحانه يخص كل بدن بالروح التي قدر أن تكون له في ذلك الوقت ، وأما أنه خلق نفس ذلك البدن في ذلك الوقت وفرغ من خلقها وأودعها في مكان مهبطة عن بدنها حتى إذا أحدث بدنها أرسلها إليه من ذلك المكان فلا يدل شيء من الأحاديث على ذلك البتة لمن تأملها .

وأما حديث أبي بن كعب فليس هو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وغايته لو صح . ولم يصح . أن يكون من كلام أبي وهذا الإسناد يروى به أشياء منكرة جداً مرفوعة وموقوفة وأبو جعفر الرازي وثق وضعف ، وقال علي بن المديني كان ثقة وقال أيضاً كان يخطو وقال ابن معين هو ثقة وقال أيضاً يكتب حديثه إلا أنه يخطئ . وقال الامام أحمد ليس بقوي في الحديث وقال أيضاً صالح الحديث وقال الفلاس سيء الحفظ وقال أبو زرعة يهيم كثيراً وقال ابن جبان ينفرد بالناكير عن المشاهير .

وما ينكر من هذا الحديث قوله فكان روح عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عليها الميثاق فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فدخل في فيها ومعلوم ان الروح الذي أرسل إلى مريم ليس هو روح المسيح بل ذلك الروح نفخ فيها لحملت بالمسيح قال تعالى (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرأ سويا ، قالت انى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا) فروح المسيح لا يخاطبها عن نفسه بهذه المخاطبة قطعاً وفي بعض طرق حديث أبي جعفر هذا أن روح المسيح هو الذي خاطبها وهو الذي أرسل إليها .

وها هنا أربع مقامات :

(أحدها) أن الله سبحانه استخرج صورهم وأمثالهم فيز شقيهم وسعيدهم ومعافهم من

مبتلاهم .

(الثاني) أن الله سبحانه أقام عليهم الحجّة حينئذ وأشهدهم برؤيته واستشهد عليهم

ملائكته .

(الثالث) أن هذا هو تفسير قوله تعالى (ولذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) .

(الرابع) أنه أقر تلك الأرواح كلها بعد إخراجها بمكان وفرغ من خلقها وإنما يتجدد

كل وقت لرسال جملة منها بعد جملة إلى أبدانها .

فأما المقام الأول فالآثار متظاهرة به مرفوعة وموقوفة .

وأما المقام الثاني فإنما أخذ من أخذه من المفسرين من الآية وظنوا أنه تفسيرها وهذا قول

جمهور المفسرين من أهل الأثر ، قال أبو إسحاق جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذر

التي أخرجها فيها تعقل به كما قال (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) وقد سخر مع

داود الجبال تسبح معه والطيور .

(وقال) ابن الأنباري مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج

ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم في صور الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم

مصنوعون فاعترفوا بذلك وقبلوا وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم

كما جعل للجبل عقلا حين خوطب وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد والنخلة حتى سمعت وانقادت

حين دهيت .

(وقال) الجرجاني ليس بين قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن الله مسح ظهر آدم

فأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد

أخذهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية لذريته بعضهم من بعض وقوله تعالى (إن تقولوا

يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أى عن الميثاق المأخوذ عليهم فإذا قالوا ذلك كانت

للملائكة شهوداً عليهم بأخذ الميثاق ، قال وفي هذا دليل على التفسير الذى جاءت به الرواية

من أن الله تعالى قال للملائكة اشهدوا فقالوا شهدنا ، قال وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق

إنما أخذ على الأرواح دون الأجساد ، إن الأرواح هى التي تعقل وتفهم ولها الثواب وعليها

العقاب والأجساد أموات لاتعقل ولا تفهم ، قال وكان إسحاق بن راهويه يذهب إلى هذا

المعنى وذكر أنه قول أبي هريرة قال إسحاق وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبيل الأجساد

استنطقهم وأشهدهم ، قال الجرجاني واحتجوا بقوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء) والأجساد قد بليت وضلت في الأرض والأرواح تزرق وتفرح ، وهي التي تلد وتالم وتفرح وتحزن وتعرف وتسكر ويان ذلك في الأحلام موجود أن الإنسان يصبح وأثر لذة الفرح وألم الحزن باق في نفسه مما تلاقى الروح دون الجسد ، قال وحاصل الفائدة في هذا الفصل أنه سبحانه قد أثبت الحججة على كل النفوس من يبلغ ومن لم يبلغ بالمشاق الذي أخذه عليهم وزاد على من بلغ منهم الحججة بالآيات والدلائل التي نصها في نفسه وفي العالم وبالرسل المنفذة اليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ بالمثلاث المنقولة إليهم أخبارها غير أنه عز وجل لا يطالب أحداً منهم من الطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحججة وركب فيهم من القدرة وآتاهم من الأدلة . وبين سبحانه ما هو عامل في البالغين الذين أدركوا الأمر والنهي ، وحجب عنا علم ما قدره في غير البالغين إلا أنا نعلم أنه عدل لا يجوز في حكمه ، وحكيم لا تفاوت في صنعه ، وقادر لا يسأل عما يفعل له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

فصل

و نازع هؤلاء غيرهم في كون هذا معنى الآية وقالوا معنى قوله (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريبتهم) أي أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطفاً في أصلاب الآباء إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود ، وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم فليس من أحد إلا وفيه من صنعة ربه ما يشهد على أنه بآيته وناقذ الحكم فيه ، فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل ما يرون ويشاهدون إلى التصديق به كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته كما قال في غير هذا الموضع (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يريدهم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا نحن كفره كما تقول كما شهدت جوارحي بقولك تريد قد عرفته فكان جوارحي لو استشهدت وفي وسعها أن تتطقت لشهدت ، ومن هذا اعلامه وتبينته أيضاً (شهد الله أن لا إله إلا هو) يريد اعلم وبين فأشبه ذلك شهادة من شهد عند الحكماء وغيرهم . هذا كلام ابن الأنباري .

وزاد الجرجاني بياناً لهذا القول فقال حاكماً عن أصحابه أن الله لما خلق الخلق وفضله فيهم بما هو كائن وما لم يكن بعد ما هو كائن كاللئال إذ علمه بكونه مانع من غير كونه . شائع في مجاز الغربية أن يوضع ما هو منتظر بعدما لم يقع بعد موقع الواقع لسبق علمه بوقوعه كما قال عز وجل في مواضع من القرآن كقوله تعالى (ونادى أصحاب النار) (ونادى أصحاب الجنة) (ونادى أصحاب الأعراف) قال فيكون تأويل قوله (وإذا أخذ ربك) وإذا يأخذ ربك ، وكذلك قوله

(وأشهدهم على أنفسهم) أى ويشهدهم بما ركبهم فيهم من العقل الذى يكون به الفهم ويجب به الثواب والعقاب ، وكل من ولد وبلغ الحنث وعقل الضر والنفع وفهم الوعد والوعيد والثواب والعقاب صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق فى التوحيد بما ركب فيه من العقل وأراه من الآيات والدلائل على حدوده وأنه لا يجوز أن يكون قد خلق نفسه وإذالم يجوز ذلك فلا بد له من خالق هو غيره ليس كمثل . وليس من مخلوق يبلغ هذا المبلغ ولم يقدم فيه مانع من فهم إلا اذا حز به أمر يفزع إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء ويشير إليها بأصبعه علما منه بأن خالقه تعالى فوقه وإذا كان العقل الذى منه الفهم والافهام ووديا إلى معرفة ما ذكرنا ودالا عليه فكل من بلغ هذا المبلغ فقد أخذ عليه العهد والميثاق وجاز أن يقال له قد أقر وأذعن وأسلم كما قال الله عز وجل (والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها) .

(قال) واحتجوا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم رفع القلم عن ثلاث عن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى ينتبه ، وقوله عز وجل (لنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) ثم قال تعالى (وحملها الانسان) الأمانة ها هنا عهد وميثاق فانتاع السموات والأرض والجبال من حمل الأمانة لأجل خلوها من العقل الذى يكون به الفهم والإفهام وحمل الإنسان إياها لما كان العقل فيه ، قال وللعرب فيها ضروب نظم فمنها قوله :

ضمن القنان لفقعس بثباتها أن القنان لفقعس لا يأتلى

والقنان جبل فذكر أنه قد ضمن لفقعس وضمائه لها انهم كانوا اذا حز بهم أمر من هزيمة أو خوف لجأوا إليه فجعل ذلك كالضمان لهم ومنه قول النابغة :

كأجارف الجولان هليل ربه وجوران منها خاشع متضائل^(١)

وأجارف الجولان جبالها وجوران الأرض التي إلى جانبها ، وقال هذا القائل إن
فى قوله تعالى (أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا

^(١) كذا . والبيت كما فى الديوان واللسان والتاج ومعجم البلدان هكذا :

بكى حارث الجولان من فقد ربه وجوران منها خاشع متضائل

قال ياقوت : الحارث قرية من قرى حوران من نواحي دمشق يقال لها حارث الجولان ،

وقال الجوهري الجولان جبل بالشام وحارث قلة من قلة فى قول النابغة حيث قال . . .
وذكر البيت . وفى التاج ويروى من هلك ربه .

من قبل وكنا ذرية من بعدهم) دليلا على هذا التأويل لانه عز وجل أعلم أن هذا الاخذ للعهد عليهم لثلاثا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين والغفلة هاهنا لا تخلو من أحد وجهين اما أن تكون عن يوم القيامة أو عن أخذ الميثاق ، فأما يوم القيامة فلم يذكر سبحانه في كتابه أنه أخذ عليهم عهدا وميثاقا بمعرفة البعث والحساب وإنما ذكر معرفته فقط ، وأما أخذ الميثاق فالاطفال والأسقاط ان كان هذا العهد مأخوذا عليهم كما قال المخالف فهم لم يبلغوا بعد أخذ هذا الميثاق عليهم مبلغا يكون منهم غفلة عنه فيجدونه وينكرونه فتى تكون هذه الغفلة منهم وهو عز وجل لا يؤاخذهم بما لم يكن منهم ، وذكر ما لا يجوز ولا يكون محال . وقوله تعالى (أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فلا يخلو هذا الشرك الذى يؤاخذون به أن يكون منهم أنفسهم أو من آباؤهم فان كان منهم فلا يجوز أن يكون ذلك الا بعد البلوغ وثبوت الحججة عليهم اذ الطفل لا يكون منه شرك ولا غيره وان كان من غيرهم فالامة مجمعة على أن (لا تزر وازرة وزر أخرى) كما قال عز وجل فى الكتاب وليس هذا بمخالف لما روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته فأخذ عليهم العهد ، لانه صلى الله عليه وآله وسلم اقتصر قول الله عز وجل فجاء مثل نظمه فوضع الماضى من اللفظ موضع المستقبل . قال وهذا شبيه القصة بقصة قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به) فجعل سبحانه ما أنزل على الانبياء من الكتاب والحكمة ميثاقاً أخذته من أهمهم بعدهم يدل على ذلك قوله تعالى (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) ثم قال للأمم (أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقرنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فجعل سبحانه بلوغ الامم كتابه المنزل على أنبيائهم حجة عليهم كأخذ الميثاق عليهم وجعل معرفتهم به اقرارا منهم .

قلت وشبيه به أيضا قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا) فهذا ميثاقه الذى أخذه عليهم بعد ارسال رسله اليهم بالإيمان به وتصديقه ، ونظيره قوله تعالى (والذين يوفون بعهد الله ولا يتقضون الميثاق) وقوله تعالى (ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) فهذا عهده اليهم على السنة ورسله ، ومثله قوله تعالى لبنى اسرائيل (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) ومثله (واذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) وقوله تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا) فهذا ميثاق أخذه منهم بعد بعثهم كما أخذ من أهمهم بعد انذارهم

وهذا الميثاق الذي لعن سبحانه من نقضه وعاقبه بقوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعنناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) فانما عاقبهم بنقضهم الميثاق الذي أخذه عليهم على السنة رسله وقد صرح به في قوله تعالى (واخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) ولما كانت هذه الآية ونظيرها في سورة مدنية خاطب بالتذكير بهذا الميثاق فيها أهل الكتاب فانه ميثاق أخذه عليهم بالإيمان به وبرسله ، ولما كانت هذه آية الأعراف في سورة مكية ذكر فيها الميثاق والاشهاد العام لجميع المكلفين ممن أقر بربوبيته ووحدايته وبطلان الشرك وهو ميثاق وإشهاد تقوم به عليهم الحججة وينقطع به العذر وتحل به العقوبة ويستحق بمخالفته الإهلاك فلا بد أن يكونوا ذاكرين له عارفين به وذلك ما فطرهم عليه من الاقرار بربوبيته وأنه ربهم وفاطرهم وانهم مخلوقون من ربهم ثم أرسل اليهم رسله يذكرهم بما في فطرهم وعقولهم ويعرفونهم حقه عليهم وأمره ونهيه ووعدده ووعيده .

ونظم الآية انما يدل على هذا من وجوه متعددة :

(أحدها) أنه قال (واذا أخذ ربك من بنى آدم) ولم يقل آدم ، وبنو آدم غير آدم .
(الثاني) أنه قال (من ظهورهم) ولم يقل ظهر وهذا يدل بدحض من كل أو بدل اشتمال وهو أحسن .

(الثالث) أنه قال (ذرياتهم) ولم يقل ذريته .

(الرابع) أنه قال (وأشهدهم على أنفسهم) أى جعلهم شاهدين على أنفسهم فلا بد أن يكون الشاهد ذا كرامات شهبه وهو انما يذكر شهادته بعد خروجه الى هذه الدار لا يذكر شهادته قبلها .

(الخامس) أنه سبحانه اخبر أن حكمة هذا الاشهاد اقامة الحججة عليهم لثلاثا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، والحججة انما قامت عليهم بالرسول والفرطة التي فطروا عليها كما قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لثلاثا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) .

(السادس) تذكيرهم بذلك لثلاثا يقولوا يوم القيامة (انا كنا عن هذا غافلين) ومعلوم أنهم غافلون بالاجراج لهم من صلب آدم كلهم واشهادهم جميعا ذلك الوقت فهذا لا يذكره أحد منهم .

(السابع) قوله تعالى (أو تقولوا انما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فذكر حكمتين في هذا التعريف والاشهاد ، احدهما ان لا يدعوا الغفلة ، والثانية ان لا يدعوا التقليد فالعافل لاشعور له والمقلد متبع في تقليده لغيره .

(الثامن) قوله تعالى (لئن لم يكن كما بما فعل المبطلون) أى لو عذبهم بمحوردم وشركهم

لقالوا ذلك وهو سبحانه انما يهلككم لمخالفة رسوله وتكذيبهم فلو اهلككم بتقليد آياتهم في شركهم من غير اقامة الحججة عليهم بالرسول لاهلككم بما فعل المبطلون واهلككم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كانوا عليه . وقد اخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون وانما يهلككم بعد الاعذار والانذار .

(التاسع) انه سبحانه اشهد كل واحد على نفسه انه ربه وخالقه واحتج عليهم بهذا الاشهاد في غير موضع من كتابه كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خالق السموات والأرض ليقولن الله فأنى يؤفكون) اى فكيف يصرفون عن التوحيد بعد هذا الاقرار منهم ان الله ربهم وخالقهم ، وهذا كثير في القرآن فهذه هى الحججة التى أشهدهم على أنفسهم بمضمونها واذكرتهم بهارسله بقوله تعالى (أفى الله شك فاطر السموات والأرض) فانه تعالى انما ذكرهم على السنة رسله بهذا الاقرار والمعرفة ولم يذكرهم قط باقرار سابق على ايجادهم ولا أقام به عليهم حجة .

(العاشر) أنه جعل هذا آية وهى الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها بحيث لا يتخلف عنها المدلول وهذا شأن آيات الرب تعالى فانها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به فقال تعالى (وكذلك نفصل الآيات) اى مثل هذا التفصيل والتبيين تفصل الآيات لعلهم يرجعون من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر الى الإيمان ، وهذه الآيات التى فصلها هى التى بينها فى كتابه من أنواع مخلوقاته وهى آيات أفضىة وحسية آيات فى نفوسهم وذواتهم وخلقهم وآيات فى الاقطار والنواحي بما يحدته الرب تبارك وتعالى مما يدل على وجوده ووحديته وصدق رسله وعلى المعاد والقيامة ومن أبينها ما أشهد به كل واحد على نفسه من أنه ربه وخالقه ومبدعه وأنه مربيوب مخلوق مصنوع حادث بعد أن لم يكن ومحال أن يكون حدث بلاحدث أو يكون هو المحدث لنفسه فلا بد له من موجد أوجده ليس كمثل شئ . وهذا الإقرار والشاهدة فطرة فطروا عليها ليست بمكتسبة وهذه الآية وهى قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) مطابقة لقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم كل مولود يولد على الفطرة ولقوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون متبين اليه) .

ومن المفسرين من لم يذكر الا هذا القول فقط كالزمخشري ، ومنهم من يذكر إلا القول الاول فقط ومنهم من حكى القولين كابن الجوزى والواحدى والمأوردى وغيرهم .

قال الحسن بن يحيى الجرجاني فان اعترض معترض فى هذا الفصل بحديث يروى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وأخذ عليهم العبد ثم ردهم فى ظهره وقال إن هذا مانع من جواز التأويل الذى ذهب اليه لامتناع ردهم فى الظهر

إن كان أخذ الميثاق عليهم بعد البلوغ وتمام العقل ، قيل له ان معنى ثم ردهم في ظهره ثم ردهم في ظهره كما قلنا إن معنى أخذ ربك يأخذ ربك فيكون معناه ثم يردهم في ظهره بوقاتهم لانهم إذا ماتوا ردوا إلا الارض للدفن وآدم خلق منها ورد فيها فاذا ردوا فيها فقد ردوا في آدم ، وفي ظهره اذ كان آدم خلق منها وفيها رد وبعض الشيء من الشيء وفيما ذهبتم اليه من تأويل هذا الحديث على ظاهره تفاوت بينه وبين ما جاء به القرآن في هذا المعنى إلا أن يرد تأويله إلى ما ذكرنا لأنه عز وجل قال (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) ولم يذكر آدم في القصة إنما هو هنا مضاف اليه لتعريف ذريته أنهم أولاده وفي الحديث أنه مسح ظهر آدم فلا يمكن رد ما جاء في القرآن وما جاء في الحديث إلى الاتفاق إلا بالتأويل الذي ذكرناه .

قال الجرجاني وأنا أقول ونحن إلى ما روى في الآية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما ذهب اليه أهل العلم من السلف الصالح أمثل وله أقبل وبه آنس والله ولي التوفيق لما هو أولى وأهدى ، على أن بعض أصحابنا من أهل السنة قد ذكر في الرد على هذا القائل معنى يحتمل ويسوغ في النظم الجارى وبجاز العربية بسهولة وإمكان من غير تعسف ولا استكراه وهو أن يكون قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) مبتدأ خبر من الله عز وجل عما كان منه في أخذ العهد عليهم وإذ تقتضى جوابا يجعل جوابه قوله تعالى (قالوا بلى) وانقطع هذا الخبر بتمام قصته ثم ابتدأ عز وجل خبراً آخر بذكر ما يقوله المشركون يوم القيامة فقالوا شهدنا بمعنى نشهد كما قال الخطيئة :

شهد الخطيئة حين يلقى ربه أن الوليد أحق بالعذر

بمعنى يشهد الخطيئة يقول تعالى نشهد أنكم ستقولون يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أى عما هم فيه من الحساب والمناقشة والمواخذة بالكفر ثم أضاف اليه خبراً آخر فقال (أو تقولوا) بمعنى وأن تقولوا لأن أو بمعنى واو النسق مثل قوله تعالى (ولا تطع منهم أباً أو كفوراً) فتأويله ونشهد أن تقولوا يوم القيامة (إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) أى أنهم أشركوا وحملونا على مذهبهم في الشرك في صبابنا فجزينا على مذاهبهم واقتدينا بهم فلا ذنب لنا إذ كنا مقتدين بهم والذنب في ذلك لهم قالوا (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) يدل على ذلك قولهم (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى حملهم ايانا على الشرك ، فتكون القصة الأولى خبراً عن جميع المخلوقين بأخذ الميثاق عليهم ، والقصة الثانية خبر عما يقول المشركون يوم القيامة من الاعتذار .

وقال فيما ادعاه المخالف أنه تفاوت فيما بين الكتاب والخبر لاختلاف ألفاظهما فيهما قولاً يجب قبوله بالنظر والعبر التي تأيدها لمخالفته فقال ان الخبر عن رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم ان الله مسح ظهر آدم ، أفاد زيادة خبر كان في القصة التي ذكر الله تعالى في الكتاب بعضها ولم يذكر كلها ولو أخبر صلى الله عليه وآله وسلم بسوى هذه الزيادة التي أخبر بها بما عسى أن يكون قد كان في ذلك الوقت الذي أخذ فيه العهد بما لم يضمه الله كتابه لما كان في ذلك خلاف ولا تفاوت بل كان زيادة في الفائدة . وكذلك الألفاظ إذا اختلفت في ذاتها كان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب ذلك تناقضا كما قال عز وجل في كتابه في خلق آدم فذكر مرة أنه خلق من تراب ومرة أنه خلق من حامسون ، ومرة من طين لازب ، ومرة من صلصال كالنفخار . فهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها أيضاً في الأحوال مختلفة أن الصلصال غير الحماة والحماة غير التراب إلا أن مرجعها كلها في الأصل إلى جوهر واحد وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال .

فقوله سبحانه وتعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم أن الله مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذريته معنى واحد في الأصل إلا أن قوله صلى الله عليه وآله وسلم مسح ظهر آدم زيادة في الخبر عن الله عز وجل ومسحه عز وجل ظهر آدم واستخراج ذريته منه مسح لظهور ذريته واستخراج ذرياتهم من ظهورهم كما ذكر تعالى لاناقد علنا أن جميع ذرية آدم لم يكونوا من صلبه لكن لما كان الطبق الأول من صلبه ثم الثاني من صلب الأول ثم الثالث من صلب الثاني جاز أن ينسب ذلك كله إلى ظهر آدم لأنهم فرعه وهو أصلهم .

وكما جاز أن يكون ما ذكر الله عز وجل أنه استخرجه من ظهور ذرية آدم من ظهر آدم جاز أن يكون ما ذكر صلى الله عليه وآله وسلم أنه استخرجه من ظهر آدم من ظهور ذريته إذ الأصل والفرع شيء واحد وفيه أيضا أنه عز وجل لما أضاف الذرية إلى آدم في الخبر احتمال أن يكون الخبر عن الذرية وعن آدم كما قال عز وجل (فظلت أعناقهم لها خاضعين) والخبر في الظاهر عن الأعناق والنعمة للأسماء المكتبة فيها وهو ^(١) مضاف إليها كما كان آدم مضافا إليه هناك وليس جميعا بالمقصودين في الظاهر بالخبر ولا يحتمل أن يكون قوله خاضعين للأعناق لأن وجه جمعها خاضعات ومنه قول الشاعر :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

فالصدر مذكر وقوله شرقت أنث لإضافة الصدر إلى القناة .

(١) أي النعمة .

فصل

فهذا بعض كلام السلف والخلف في هذه الآية وعلى كل تقدير فلا تدل على خلق الارواح قبل الاجساد خلقا مستقرا وانما غايتها أن تدل على اخراج صورهم وامثالهم في صور الذر واستنطاقهم ثم ردهم الى أصلهم ان صح الخبر بذلك والذي صح انما هو اثبات القدر السابق وتقسيمهم الى شقي وسعيد . وأما استدلال ابى محمد بن حزم بقوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فالأبى هذا الاستدلال بظاهريته لترتيب الأمر بالسجود لآدم على خلقنا وتصويرنا والخطاب للجملة المركبة من البدن والروح وذلك متأخر عن خلق آدم ولهذا قال ابن عباس (ولقد خلقناكم) يعنى آدم (ثم صورناكم) لذريته . ومثال هذا ما قاله مجاهد (خلقناكم) يعنى آدم و (صورناكم) فى ظهر آدم وإنما قال (خلقناكم) بلفظ الجمع وهو يريد آدم كما تقول ضربناكم وإنما ضربت سيدهم .

واختار أبو عبيد في هذه الآية قول مجاهد لقوله تعالى بعد (ثم قلنا للملائكة اسجدوا) وكان قوله تعالى للملائكة اسجدوا قبل خلق ذرية آدم وتصويرهم فى الارحام وشم توجب التراخى والترتيب فن جعل الخلق والتصوير فى هذه الآية لا لولاد آدم فى الارحام يكون قد راعى حكم شم فى الترتيب إلا أن يأخذ بقول الاخفش فانه يقول ثم هاهنا فى معنى الواو . قال الزجاج وهذا خطأ لا يبيزه الخليل وسيدييه وجميع من يوثق بعلمه . قال أبو عبيد وقد بينه مجاهد حين قال ان الله تعالى خلق آدم وصورهم فى ظهره ثم أمر بعد ذلك بالسجود . قال وهذا بين فى الحديث وهو أنه أخرجهم من ظهره فى صور الذر .

قلت والقرآن يفسر بعضه بعضا ونظير هذه الآية قوله تعالى (ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) فواقع الخلق من تراب عليهم وهو لايبهم آدم إذ هو أصلهم والله سبحانه يخاطب الموجودين والمراد آباؤهم كقوله تعالى (ولإذ قلتم يا موسى إن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) وقوله تعالى (ولإذ قلتم يا موسى إن نصبر على طعام واحد) الآية وقوله تعالى (ولإذ قلتم نفسا فادارأتم فيها) وقوله تعالى (ولإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) وهو كثير فى القرآن يخاطبهم والمراد به آباؤهم فهكذا قوله (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) .

وقد يستطرد سبحانه من ذكر الشخص إلى ذكر النوع كقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) فالخلق من سلاله من طين آدم والمجموع نطفة فى قرار مكين ذريته .

وأما حديث خلق الأرواح قبل الأجساد ، بالني عام فلا يصح إسناده ففيه حجة بن السكن قال الدارقطني متروك ، وأرطاة بن المنذر قال ابن عدى بعض أحاديثه غلط .

فصل

وأما الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها فمن وجوه :

(أحدها) أن خلق أبي البشر وأصلهم كان هكذا فإن الله سبحانه أرسل جبريل فقبض قبضة من الأرض ثم خمرها حتى صارت طينا ثم صوره ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوره فلما دخلت الروح فيه صار لها ودما حيا ناطقا ، ففي تفسير أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما فرغ عز وجل من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس ملكا على سماء الدنيا وكان من الخزان قبله من الملائكة يقال لهم الجن وإنما سموا الجن لأنهم خزان أهل الجنة وكان إبليس مع ملكه خازنا فوقع في صدره وقال ما أعطاني الله هذا إلا لمزيد لي وفي لفظ لمزية لي على الملائكة فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة (اني جاعل في الأرض خليفة) قالوا ربنا وما يكون حال الخليفة وما يضمنون في الأرض قال الله تكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا قالوا ربنا (أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) يعني من شأن إبليس فبعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض إني أعوذ بالله منك أن تقبض مني فرجع ولم يأخذ وقال رب إنما عاذت بك فأعذتها فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فبعث ملك الموت . فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط فلم يأخذ من مكان واحد فأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ولذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به قبل الرب عز وجل حتى عاد طينا لازبا واللازب هو الذي يلزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة (اني خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) فخلق الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت بيدي ولم أتكبر أنا عنه فخلقته بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة فمرت به الملائكة ففرعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعوا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة فذلك حين يقول (من صلصال كالفخار) ويقول لأمر ما خلقت ا ودخل من فيه فخرج من دبره فقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فان ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكه فلما بلغ الحين الذي يريد الله جل ثناؤه أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة

إذا نفضت فيه من روحى فأوجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله فقال له الله يرحمك ربك ، فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام قبل أن يبلغ الروح رجليه فنفض عجاجاً إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول (خلق الإنسان من عجل) وذكر باقي الحديث .

(وقال) يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب حدثنا ابن زيد قال لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعراً شديداً وقالوا ربنا لم خلقت هذه النار ؟ ولأى شيء خلقتها ؟ قال لمن عصاني من خلقي .

ولم يكن لله يومئذ خلق إلا الملائكة والأرض ليس فيها خلق إنما خلق آدم بعد ذلك وقرأ قوله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) قال عمر بن الخطاب يارسول الله ليت ذلك الحين ، ثم قال وقالت الملائكة وبأى علينا دهر نمصيك فيه ؟ لا يرون له خلقاً غيرهم قال لا ! إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة . وذكر الحديث قال ابن اسحاق فيقال والله أعلم خلق الله آدم ثم وضعه ينظر إليه أربعين عاماً قبل أن ينفخ فيه الروح حتى عاد صلصالاً كالفخار ولم تمسسه نار فيقال والله أعلم لما انتهى الروح إلى رأسه عطس فقال الحمد لله . وذكر الحديث .

والقرآن والحديث والآثار تدل على أنه سبحانه نفخ فيه من روحه بعد خلق جسده ، فن تلك النفخة حدثت فيه الروح ولو كانت روحه مخلوقة قبل بدنه مع جملة أرواح ذريته لما عجب الملائكة من خلقه ولما تعجبت من خلق النار وقالت لأى شيء خلقتها ؟ وهى ترى أرواح بنى آدم فيهم المؤمن والكافر والطيب والحبيث .

ولما كانت أرواح الكفار كلها تبعاً لإبليس بل كانت الأرواح الكافرة مخلوقة قبل كفره فان الله سبحانه إنما حكم عليه بالكفر بعد خلق بدن آدم وروحه ولم يكن قبل ذلك كافراً فكيف تكون الأرواح قبله كافرة ومؤمنة وهو لم يكن كافراً إذ ذاك ؟ وهل حصل الكفر للأرواح إلا بتزيينه وإغوائه فالأرواح الكافرة إنما حدثت بعد كفره إلا أن يقال كانت كلها مؤمنة ثم ارتدت بسببه والذي احتجوا به على تقديم خلق الأرواح بخلاف ذلك .

وفي حديث أبي هريرة في تخليق العالم الاخبار عن خلق أجناس العالم تأخر خلق آدم إلى يوم الجمعة ولو كانت الأرواح مخلوقة قبل الاجساد لسكانت من جملة العالم المخلوق في ستة أيام فلما لم يخبر عن خلقها في هذه الأيام علم أن خلقها تابع لخلق الذرية وان خلق آدم وحده هو الذى وقع في تلك الأيام الستة وأما خلق ذريته فعلى الوجه المشاهد المعين .

ولو كان للروح وجود قبل البدن وهي حية عالمة ناطقة لسكانت ذاكرة لذلك في هذا العالم شاعرة به ولو بوجه ما .

ومن الممتع أن تكون حية عالمة ناطقة عارفة بربها وهي بين ملا من الأرواح ثم تنتقل إلى هذا البدن ولا تشعر بحالها قبل ذلك بوجه ما .

وإذا كانت بعد المفارقة تشعر بحالها وهي في البدن على التفصيل وتعلم ما كانت عليه ها هنا مع أنها اكتسبت بالبدن أموراً عاقبتا عن كثير من كمالها فلان تشعر بحالها الأول وهي غير معوقة هناك بطريق الأولى ، إلا أن يقال تعلقها بالبدن واشتغالها بتدبيره منعها من شعورها بحالها الأول ، فيقال هب أنه منعها من شعورها به على التفصيل والكمال فهل يمنعها عن ادنى شعور بوجه ما بما كانت عليه قبل تعلقها بالبدن ، ومعلوم أن تعلقها بالبدن لم يمنعها عن الشعور بأول أحوالها وهي في البدن فكيف يمنعها من الشعور بما كان قبل ذلك .

وأيضاً فإنها لو كانت موجودة قبل البدن لسكانت عالمة حية ناطقة عاقلة فلما تعلقت بالبدن سلبت ذلك كله ثم حدث لها الشعور والعلم والعقل شيئاً فشيئاً وهذا لو كان لكان أعجب الأمور أن تكون الروح كاملة عاقلة ثم تعود ناقصة ضعيفة جاهلة ثم تعود بعد ذلك إلى عقلها وقوتها فأين في العقل والنقل والقطرة ما يدل على هذا ؟ وقد قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) فهذه الحال التي أخرجنا عليها هي حالنا الاصلية والعلم والعقل والمعرفة والقوة طارىء علينا حادث فينا بعد أن لم يكن ولم نكن نعلم قبل ذلك شيئاً البتة إذ لم يكن لنا وجود نعلم ونعقل به .

وأيضاً فلو كانت مخلوقة قبل الاجساد وهي على ما هي الآن من طيب وخبث وكفر وإيمان وخير وشر لكان ذلك ثابتاً لها قبل الاعمال وهي إنما اكتسبت هذه الصفات والهيئات من أعمالها التي سعت في طلبها واستمادت عليها بالبدن فلم تكن لتصف بتلك الهيئات والصفات قبل قيامها بالابدان التي بها عملت تلك الاعمال .

وإن كان قدر لها قبل إيجادها ذلك ثم خرجت إلى هذه الدار على ما قدر لها فنحن لانتكر الكتاب والقدر السابق لها من الله ، ولو دل دليل على أنها خلقت جملة ثم أودعت في مكان حية عالمة ناطقة ثم كل وقت تبرز إلى أبدانها شيئاً فشيئاً لكننا أول قائل به ، فآله سبحانه على كل شيء قدير ولكن لا نخبر عنه خلقاً وأمرأ إلا بما أخبر به عن نفسه على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يخبر عنه بذلك وإنما أخبر بما في الحديث الصحيح أن خلق ابن آدم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح فالملك وحده يرسل إليه

فينفخ فيه فاذا نفخ فيه كان ذلك سبب حدوث الروح فيه ولم يقل يرسل الملك إليه بالروح فيدخلها في بدنه وإنما أرسل إليه الملك فأحدث فيه الروح بتفخته فيه لا أن الله سبحانه أرسل إليه الروح التي كانت موجودة قبل ذلك بالزمان الطويل مع الملك ، ففرق بين أن يرسل إليه ملك ينفخ فيه الروح وبين أن يرسل إليه روح مخلوقة قائمة بنفسها مع الملك ، وتأمل ما دل عليه النص من هذين المعنيين ومالله التوفيق .

المسألة التاسعة عشرة

وهي ما حقيقته النفس هل هي جزء من أجزاء البدن أو عرض من أعراضه أو جسم مساكن له مودع فيه أو جوهر مجرد؟ وهل هي الروح أو غيرها؟ وهل الامارة واللوامة والمطمئنة نفس واحدة لها هذه الصفات أم هي ثلاث أنفس؟ .

فالجواب أن هذه مسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف واضطربت أقوالهم فيها وكثر فيها خطوهم وهدى الله أتباع الرسول أهل سنته لما اختلفوا فيه من الحق بأذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم فذكر أقوال الناس وما لهم وما عليهم في تلك الأقوال ونذكر الصواب بحمد الله وعونه .

قال أبو الحسن الأشعري في مقالاته « اختلف الناس في الروح والنفس والحياة وهل الروح هي الحياة أو غيرها وهل الروح جسم أم لا ، ؟ فقال النظام الروح (هي - (١)) جسم وهي النفس وزعم أن الروح حي بنفسه وأنكر أن تكون الحياة والقوة معنى غير الحي القوي . وقال آخرون الروح عرض .

وقال قائلون منهم جعفر بن حرب لاندرى للروح جوهر أو عرض (كذا قال - (٢)) واعتلوا في ذلك بقوله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) ولم يخبر عنها ما هي لأنها جوهر ولا عرض . قال : وأظن جعفرًا أثبت (٣) أن الحياة غير الروح أثبت (٣) أن الحياة عرضا .

وكان الجبائي يذهب إلى أن الروح جسم وأنها غير الحياة والحياة عرض ويعتل بقول أهل اللغة خرجت روح الإنسان وزعم أن الروح لا تجوز عليها الأعراض .

(١) من مقالات الأشعري ومنه صححنا بعض الاغلاط في هذه العبارة .

(٢) هذا من كلام المؤلف ليس في المقالات .

(٣) في المقالات . ثبت .

(وقال) قائلون ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبايع الأربعة ولم يرجعوا من قولهم (اعتدال - (١)) إلا إلى المعتدلين ولم يثبتوا في الدنيا شيئاً إلا الطبايع الأربعة التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .

(وقال) قائلون أن الروح معنى خامس غير الطبايع الأربعة وأنه ليس في الدنيا إلا الطبايع الأربعة (٢) والروح واختلفوا في (أعمال - (١)) الروح فثبتها بعضهم طباعاً وثبتها بعضهم اختياراً . (وقال) قائلون الروح الدم الصافي الخالص من الكدر والعفونات وكذلك قالوا في القوة . (وقال) قائلون الحياة هي الحرارة الغريزية وكل هؤلاء الذين حكينا أقوالهم (٣) في الروح من أصحاب الطبايع يثبتون أن الحياة هي الروح .

وكان الأصم لا يثبت للحياة والروح شيئاً غير الجسد ويقول ليس أعقل إلا الجسد الطويل العريض العميق الذي أراه وأشاهده ، وكان يقول النفس هي هذا البدن بعينه لإغبر ، وإنما جرى عليها هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد بحقيقة الشيء لا على أنها معنى غير البدن .

وذكر عن أرسططاليس أن النفس معنى مرتفع عن الوقوع تحت (التدبير والنشوء والبلى غير دائرة - (٤)) وأنها جوهر بسيط منبث في العالم كله من الحيوان على جهة الأعمال له والتدبير ، وأنه لا تجوز عليه صفة قلة ولا كثرة . قال وهي على ما وصفت من انبساطها في هذا العالم غير منقسمة الذات والبنية وأنها في كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير .

(وقال) آخرون بل النفس معنى موجود ذات حدود وأركان وطول وعرض وعمق وأنها غير مفارقة في هذا العالم لغيرها مما يجري عليه حكم الطول والعرض والعمق وكل واحد منهما يجمعهما صفة الحد والنهاية (وهذا قول طائفة من الثنوية يقال لهم المتأنيبة - (٥)) . وقالت طائفة أن النفس موصوفة (٦) بما وصفها هؤلاء الذين قدمنا ذكرهم من معنى

(١) من المقالات .

(٢) زاد في المقالات ، التي هي الحرارة والبرودة . والرطوبة واليبوسة ، .

(٣) في المقالات . قولهم .

(٤) من المقالات وكان في الأصل ، تحت النسق واللون .

(٥) من المقالات .

(٦) في المقالات . توصف .

الحدود والنهايات إلا أنها غير مفارقة لغيرها بما لا يجوز أن يكون موصوفاً بصفة الحيوان (وهؤلاء الديصانية - (١١) وحكى الحريري عن جعفر بن مبشر أن النفس جوهر ليس هو هذا الجسم وليس بجسم لكنه معنى بآب (١٢) الجوهر والجسم .

(وقال) آخرون النفس معنى غير الروح والروح غير الحياة والحياة عنده عرض وهو أبو الهذيل ، وزعم أنه قد يجوز أن يكون الإنسان في حال نومه مسلوب النفس والروح دون الحياة ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) .

(وقال) جعفر بن حرب النفس عرض من الأعراض يوجد في هذا الجسم وهو أحد الآلات التي يستعمل بها الإنسان على الفعل كالصحة والسلامة وما أشبهها وأنها غير موصولة بشيء من صفات الجواهر والأجسام . هذا ما حكاه الأشعري .

وقالت طائفة النفس هي النسيم الداخل والخارج بالنفس قالوا والروح عرض وهو الحياة فقط وهو غير النفس وهذا قول القاضي أبو بكر بن الباقلاني ومن اتبعه من الأشعرية .

وقالت طائفة ليست النفس جسماً ولا عرضاً وليست النفس في مكان ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ولا لون ولا بعض ولا هي في العالم ولا خارج ولا مجانبة له ولا مباينة . وهذا قول المشائين وهو الذي حكاه الأشعري عن أرسطو ليس ، وزعموا أن تعلقها بالبدن لا بالحلول فيه ولا بالمجاورة ولا بالمساكنة ولا بالاتصاق ولا بالمقابلة وإنما هو التدبير له فقط واختار هذا المذهب البسنجي ومحمد بن النعمان الملقب بالمقيد ومعمّر بن عباد الغزالي وهو قول ابن سينا وأتباعه وهو أوردى المذاهب وأبطلها وأبعدها من الصواب .

(قال) أبو محمد بن حزم وذوهم سائر أهل الإسلام والمثلل المقررة بالمعاد إلا أن النفس جسم طويل عرض عميق ذات مكان جثة متحيزة مصرفة للجسد قال وبهذا تقول ، قال والنفس والروح اسمان مترادفان لمعنى واحد ومعناها واحد .

وقد ضبط أبو عبد الله بن الخطيب مذاهب الناس في النفس فقال : وما يشير إليه كل إنسان بقوله : إننا ما أن نكون جسماً أو عرضاً سارياً في الجسم أو لاجسماً ولا عرضاً سارياً فيه ، أما القسم الأول وهو أنه جسم فذلك الجسم إما أن يكون هذا البدن وإما أن يكون جسماً مشاركاً لهذا البدن وإما أن يكون خارجاً عنه ، وأما القسم الثالث وهو أن نفس الإنسان

(١١) في المقالات . بين .

(١٢) من المقالات .

عبارة عن جسم خارج عن هذا البدن فهذا لم يقله أحد ، وأما القسم الأول وهو أن الإنسان عبارة عن هذا البدن والهيكلي المخصوص فهو قول جمهور الخلق وهو المختار عند أكثر المتكلمين .

(قلت) هو قول جمهور الخلق الذين عرف الرازي أقوالهم من أهل البدع وغيرهم من المضلين وأما أقوال الصحابة والتابعين وأهل الحديث فلم يكن لها بها شعور البتة ولا يعتقد أن لهم في ذلك قولاً على عادته في حكاية المذاهب الباطلة في المسألة والمذهب الحق الذي دل عليه القرآن والسنة وأقوال الصحابة لم يعرفه ولم يذكره وهذا الذي نسب إلى جمهور الخلق من أن الإنسان هو هذا البدن المخصوص فقط وليس وراءه شيء هو من أبطال الأقوال في المسألة بل هو أبطأ من قول ابن سينا وأتباعه ، بل الذي عليه جمهور العقلاء أن الإنسان هو البدن والروح معاً وقد يطلق اسمه على أحدهما دون الآخر بقرينة .

فإناس لهم أربعة أقوال في مسمى الإنسان ، هل هو الروح فقط ، أو البدن فقط ، أو مجموعهما ، أو كل واحد منهما ، وهذه الأقوال الأربعة لهم في كلامه هل هو اللفظ فقط ، أو المعنى فقط ، أو مجموعهما ، أو كل واحد منهما ، فالخلاف بينهم في الناطق ونطقه .

(قال) الرازي وأما القسم الثاني وهو أن الإنسان عبارة عن جسم مخصوص موجود في داخل هذا البدن فالقائلون بهذا القول اختلفوا في تعيين ذلك الجسم على وجوه :
(الأول) أنه عبارة عن الأخلط الأربعة التي منها يتولد هذا البدن .
(والثاني) أنه السم .

(والثالث) أنه الروح اللطيف الذي يتولد في الجانب الأيسر من القلب وينفذ في الشريانات إلى سائر الأعضاء .

(والرابع) أنه الروح الذي يصعد في القلب إلى الدماغ ويتكيف بالكيفية الصالحة لقبول قوة الحفظ والفكرة والذكر .

(والخامس) أنه جزء لا يتجزأ في القلب .

(والسادس) أنه جسم مخالف بالمهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف حتى متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والتار في اللحم . فإدامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفاعلة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى ذلك الجسم اللطيف مشابكاً لهذه الأعضاء وأفاهما هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية .

وإذا فسدت هذه الاعضاء بسبب استيلاء الاخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح .

وهذا القول هو الصواب في المسألة وهو الذى لا يصح هيبه وكل الأقوال سواء باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ونحن نسوق الأدلة عليه على نسق واحد .

(الدليل الأول) قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) نفي الآية ثلاثة أدلة الإخبار بتوفيقها وإمسكها وإرسالها .

(الرابع) قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم ينجون عذاب الهون) إلى قوله تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) .

وفيها أربعة أدلة :

(أحدها) بسط الملائكة أيديهم لتناولها .

(الثاني) وصفها بالإخراج والخروج .

(الثالث) الإخبار عن عذابها في ذلك اليوم .

(الرابع) الإخبار عن مجيئها إلى ربها . فهذه سبعة أدلة .

(الثامن) قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم ييمسكم فيه ليقتضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم) إلى قوله تعالى (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) وفيها ثلاثة أدلة :

(أحدها) الإخبار بتوفى الأنفس بالليل .

(الثاني) بعثها إلى أجسادها بالنهار .

(الثالث) توفى للملائكة له عند الموت فهذه عشرة أدلة .

(الحادى عشر) قوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنى) وفيها ثلاثة أدلة :

(أحدها) وصفها بالرجوع .

(الثاني) وصفها بالدخول .

(الثالث) وصفها بالرضا .

واختلف السلف هل يقال لها ذلك عند الموت أو عند البعث أو في الموضعين ؟ على ثلاثة أقوال ، وقد روى في حديث مرفوع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأنى بكر الصديق أما أن الملك سيقولها لك عند الموت . قال زيد بن أسلم بشرت بالجنة عند الموت ويوم الجمع وعند البعث . وقال أبو صالح (ارجعنى إلى ربك راضية مرضية) هذا عند الموت (فادخلنى فى عبادى وادخلنى جنتى) قال هذا يوم القيامة . فهذه أربعة عشر دليلا .

(الخامس عشر) قوله صلى الله عليه وآله وسلم إن الروح إذا قبض تبعه البصر . ففيه

دليلان :

(أحدهما) وصفه بأنه يقبض .

(الثاني) أن البصر يراه .

(السابع عشر) ما رواه النسائي حدثنا أبو داود عن عثمان بن حماد عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة أن أباه قال رأيت فى المنام كأنى أجد على جبهة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته بذلك فقال إن الروح ليلقى الروح فأقنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هكذا . قال عثمان برأسه إلى خلقه . فوضع جبهته (على جبهة - ⁽¹⁾) النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبر أن الأرواح تتلاقى فى المنام وقد تقدم قول ابن عباس تلتقى أرواح الأحياء والأموات فى المنام فيتسالمون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى .

(الثامن عشر) قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى حديث بلال إن الله قبض أرواحكم وودها

اليكم حين شاء . ففيه دليلان وصفها بالقبض ، والرد .

(العشرون) قوله صلى الله عليه وآله وسلم نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة وفيه

دليلان .

(أحدهما) كونها طائرا .

(الثاني) تعلقها فى شجر الجنة وأكلها على اختلاف التفسيرين .

(الثاني والعشرون) قوله أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث

⁽¹⁾ سقط من الاصل وهو ثابت فى الحديث .

شامت وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش فاطلع إليهم ربك اطلاعة فقال أى شيء تريدون ؟
الحديث وقد تقدم وفيه ستة أدلة :

(أحدها) كونها مودعة في جوف طير .

(الثانى) أنها تسرح في الجنة .

(الثالث) أنها تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها .

(الرابع) أنها تأوى إلى تلك القناديل أى تسكن إليها .

(الخامس) أن الرب تعالى عاطبها واستنطقها فأجابته وغاطبته .

(السادس) أنها طلبت الرجوع إلى الدنيا فعلم أنها بما يقبل الرجوع . (فإن قيل) هذا

كله صفة الطير لاصفة الروح (قيل) بل الروح للمودعة في الطير قصد ، وعلى الرواية التى
رجعها أبو عمر ، وهى قوله « أرواح الشهداء كطير » ينفي السؤال بالكلية .

(التاسع والعشرون) قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى حديث طلحة بن عبيد الله أردت

ملى بالغابة فأدركنى الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حزام فسمعت قراءة من القبر

ما سمعت أحسن منها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذاك عبد الله ألم تعلم أن الله

قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة فإذا كان الليل ردت

إليهم أرواحهم فلا تزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانها التى كانت . وفيه

أربعة أدلة سوى ما تقدم :

(أحدها) جعلها فى القناديل .

(الثانى) انتقالها من حيز إلى حيز .

(الثالث) تكلمها وقراءتها فى القبر .

(الرابع) وصفها بأنها فى مكان .

(الثالث والثلاثون) حديث البراء بن عازب وقد تقدم سياقه وفيه عشرون دليلاً :

(أحدها) قول ملك الموت لنفسه (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك براضية مرضية)

وهذا الخطاب لمن يتم ويمتثل .

(الثانى) قوله أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان .

(الثالث) قوله فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السماء .

- (الرابع) قوله فلا يدعونها في يده طرفة عين حتى يأخذوها منه .
(الخامس) قوله حتى يكفنها في ذلك الكفن ويمنطوها بذلك الخنوط . فأخبر أنها تكفن وتمنط .
- (السادس) قوله ثم يصعد بروحه إلى السماء .
(السابع) قوله ويوجد منها كأطيب نفحة مسك وجدت .
(الثامن) قوله فتفتح له أبواب السماء .
(التاسع) قوله ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهي إلى الرب تعالى .
(العاشر) قوله فيقول تعالى ردوا عبي إلى الأرض .
(الحادي عشر) قوله فتدروحه في جسده .
(الثاني عشر) قوله فيروح الكافر فتفرق في جسده فيجذبها فتقطع منها المروق والمصب .
(الثالث عشر) قوله ويوجد لروحه كأتين ريح وجدت على وجه الأرض .
(الرابع عشر) قوله فيقذف بروحه عن السماء وتطرح طرعا فهوى إلى الأرض .
(الخامس عشر) قوله فلا يمرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب؟ وما هذا الروح الخبيث ؟
- (السادس عشر) قوله فيجلسان ويقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فإن كان هذا للروح فظاهر ، وإن كان للبدن فهو بعد رجوع الروح إليه من السماء .
(السابع عشر) قوله فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان .
(الثامن عشر) قوله أارجعوه فأروه ماذا أعددت له من الكرامة . فيرى مقعده من الجنة أو النار .
- (التاسع عشر) قوله في الحديث إذا خرجت روح المؤمن صلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض ، فالملائكة تصلى على روحه وبني آدم يصلون على جسده .
(العشرون) قوله فينظر إلى مقعده من الجنة أو النار حتى تقوم الساعة والبدن قد تمزق وتلاشى وإنما الذي يرى المقعدين الروح .

فصل

(الرابع والخمسون) حديث أنى موسى تخرج نفس المؤمن أطيب من ريح المسك فتطلق بها الملائكة الذين يتوفونه فتلقاهم ملائكة من دون السماء فيقولون هذا فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت . بمحاسن عمله . فيقولون مرحباً بكم وبه فيقبضونها منهم فيصعد به من الباب الذى كان يصعد منه عمله فيشرق فى السموات وهو كبرهان الشمس حتى ينتهى بها إلى العرش ، وأما الكافر فاذا قبض انطلق بروحه فيقولون من هذا ؟ فيقولون فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت . لمساوى أعماله . فيقولون لامرحباً لامرحباً ردوه فيرد إلى أسفل الأرض إلى النرى ففيه عشرة أدلة :

- (أحدها) خروج نفسه .
- (الثانى) طيب ريحها .
- (الثالث) انطلاق الملائكة بها .
- (الرابع) تحية الملائكة لها .
- (الخامس) قبضهم لها .
- (السادس) صعودهم بها .
- (السابع) لإشراق السموات لضوئها .
- (الثامن) انتهاؤها إلى العرش .
- (التاسع) قول الملائكة من هذا ؟ وهذا سؤال عن عين وذات قائمة بنفسها .
- (العاشر) قوله ردوه إلى أسفل الأرضين .

فصل

(الرابع والستون) حديث أنى هريرة إذا خرجت روح المؤمن تلقاه ملكان فيصعدانه إلى السماء فيقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعميرته وذكر المسك ثم يصعد به إلى ربه عز وجل فيقول ردوه إلى آخر الاجلين ففيه ستة أدلة :

- (أحدها) قوله تلقاه ملكان .
- (الثانى) قوله فيصعدانه إلى السماء .
- (الثالث) قول الملائكة روح طيبة جاءت من قبل الأرض .

- (الرابع) صلاتهم عليها .
- (الخامس) طيب ريحها .
- (السادس) الصعود بها إلى الله عز وجل .

فصل

(الحادى والسبعون) حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن المؤمن تحضره الملائكة فإذا كان للرجل الصالح قالوا أخرجى أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب أخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج فيخرج بها حتى ينتهى بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا؟ فيقال فلان ابن فلان فيقال مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قال أخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث أخرجى ذميمة وأبشرى بجميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها حتى تخرج فينتهى بها إلى السماء فيقال من هذا؟ فيقال فلان ابن فلان فيقال لمرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء فترسل إلى الأرض ثم تصير إلى القبر . وهو حديث صحيح وفيه عشرة أدلة :

(أحدها) قوله كانت في الجسد الطيب ، وكانت في الجسد الخبيث . فها هنا حال ومحل .

(الثانى) قوله أخرجى حميدة .

(الثالث) قوله وأبشرى بروح وريحان ، فهذا بشارة بما تصير إليه بعد خروجها .

(الرابع) قوله فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء .

(الخامس) قوله فيستفتح لها .

(السادس) قوله ادخلى حميدة .

(السابع) قوله حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله تعالى .

(الثامن) قوله لنفس الفاجر ارجعى ذميمة .

(التاسع) فإنه لا تفتح لك أبواب السماء .

(العاشر) قوله فترسل إلى الأرض ثم تصير إلى القبر .

فصل

(الحادى والثمانون) قوله صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح جنود مجنونة فما تعارفت منها اتلفت وما تناكرت منها اختلف . فوصفها بأنها جنود مجنونة والجنود ذوات قائمة بنفسها ووصفها بالتعارف والتناكر ومحال أن تكون هذه الجنود أعراساً أو تكون لداخل العالم ولا خارجه ولا بمض لها ولا كل .

(الثانى والثمانون) قوله فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه على الأرواح تتلاقى وتتشامم كما تشام الخيل . وقد تقدم .

(الثالث والثمانون) قوله فى حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنها أن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يومين وما رأى أحدهما صاحبه .

(الرابع والثمانون) الآثار التى ذكرناها فى خلق آدم وأن الروح لما دخل فى رأسه عطس فقال الحمد لله فلما وصل الروح إلى هيبته نظر إلى ثمار الجنة فلما وصل إلى جوفه اشتوى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه وأنها دخلت كارهة وتخرج كارهة .

(الخامس والثمانون) الآثار التى فيها لإخراج الرب تعالى النفس وتمييز شقيهم من سعيدهم وتفاوتهم حيثئذ فى الإشراق والظلمة وأرواح الأنبياء فيهم مثل السرج . وقد تقدم .

(السادس والثمانون) حديث تميم الدارى أن روح المؤمن إذا صعد بها إلى الله خر ساجداً بين يديه وأن الملائكة تتلقى الروح بالبشرى وأن الله تعالى يقول للملك الموت انطلق بروح عبدى فضمه فى مكان كذا وكذا . وقد تقدم .

(السابع والثمانون) الآثار التى ذكرناها فى مستقر الأرواح بعد الموت واختلاف الناس فى ذلك وفى ضمن ذلك الاختلاف إجماع السلف على أن للروح مستقراً بعد الموت وإن اختلف فى تعيينه .

(الثامن والثمانون) ما قد علم بالضرورة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء به وأخبر به الأمة أنه تنبت أجسادهم فى القبور فإذا نفخ فى الصور رجعت كل روح إلى جسدها فدخلت فيه فانشقت الأرض عنه فقام من قبره .

وفى حديث الصور أن إسرأفيل عليه السلام يدعو الأرواح فتأتيه جميعاً أرواح المسلمين نوراً والآخرى مظلمة فيجمعها جميعاً فيعلقها فى الصور ثم ينفخ فيه فيقول الرب جل جلاله وعزتى ليرجعن كل روح إلى جسده فتخرج الأرواح من الصور مثل النحل قد ملأت ما بين

السماء والأرض فيأتي كل روح إلى جسده فيدخل ويأمر الله الأرض فتنشق عنهم فيخرجون سراعاً إلى ربهم ينسلون مهطعين إلى الداعي يسمعون المنادى من مكان قريب فإذا هم قيام ينظرون .

وهذا معلوم بالضرورة ان الرسول أخبر به وان الله سبحانه لا ينشئ لهم أرواحاً غير أرواحهم التي كانت في الدنيا بل هي الأرواح التي اكتسبت الخير والشر أنشأ أبدانها نشأة أخرى ثم ردها إليها .

(التاسع والثمانون) ان الروح والجسد يختصمان بين يدي الرب عز وجل يوم القيامة . قال علي بن عبد العزيز حدثنا أحمد بن يونس حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي سعد (١) البقال عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ماتزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد فيقول الروح يارب إنما كنت روحاً منك جعلتني في هذا الجسد فلا ذنب لى . ويقول الجسد يارب كنت جسداً خلقتني ودخل في هذا الروح مثل النار فيه ، كنت أقوم وبه كنت أقعد وبه أذهب وبه أجيء لا ذنب لى . قال فيقال أنا أفضى بينكما أخبراني عن أعمى ومقعد دخلا حائطاً فقال المقعد للاعمى لاني أرى ثمرا فلو كانت لى رجلان لتناول فقال الاعمى أنا أحملك على رقبتى لحمه فتناول من الثمر فأكلا جميعا فعلى من الذنب ؟ قالاهما جميعا فقال قضيتما على أنفسكما .

(التسعون) الأحاديث والآثار الدالة على عذاب القبر ونعيمه إلى يوم البعث فعلم أن الجسد تلاشى واضمحل وان العذاب والنعيم المستمرين إلى يوم القيامة إنما هو على الروح .

(الحادى والتسعون) أخبار الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح عن الشهداء انهم لما سئلوا ما تريدون ؟ قالوا نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى تقتل فيك مرة أخرى فهذا سؤال وجواب من ذات حية عالمة ناطقة تقبل الرد إلى الدنيا والدخول في أجساد خرجت منها وهذه الأرواح سئلت وهي تسرح في الجنة والأجساد قد مزقها البلى .

(الثانى والتسعون) ماثبت عن سليمان الفارسى وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم أن أرواح المؤمنين في برزخ تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار في سجين . وقد تقدم .

(الثالث والتسعون) رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأرواح الناس عن يمين آدم ويساره ليلة الاسراء . فرآها متحيزة بمكان معين .

(١) في الأصل : أبو سعيد . خطأ . وهو أبو سعد سعيد بن المرزبان . قال في التقریب . ضعيف مدلس .

(الرابع والتسعون) رؤيته أرواح الأنبياء في السموات وسلامهم عليه وترحيبهم به كما أخبر به ، وأما أبدانهم في الأرض .

(الخامس والتسعون) رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم أرواح الأطفال حول إبراهيم الخليل عليه السلام .

(السادس والتسعون) رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم أرواح المعذبين في البرزخ بأنواع العذاب في حديث سمرة الذي رواه البخاري في صحيحه ، وقد تلاشت أجسادهم واضمحلت وإنما كان الذي رآه أرواحهم ونسبهم يفعل بها ذلك .

(السابع والتسعون) إخباره سبحانه عن الذين قتلوا في سبيله أنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم فرحون مستبشرون بأخوانهم . وهذا للأرواح قطعاً لأن الأبدان في التراب تنظر عود أرواحها إليها يوم البعث .

(الثامن والتسعون) ما تقدم من حديث ابن عباس رضی الله عنهما ، ونحن نسوقه ليعتد به كم فيه من دليل على بطلان قول الملاحدة وأهل البدع في الروح . وقد ذكرنا إسناده فيما تقدم ، قال بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم قاعداً تلا هذه الآية (ولورى إذ الظالمون في غمرات الموت) الآية ثم قال والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة ينتظان ما بين الحافقين كأن وجوههم الشمس فينظر اليهم ما يرى غيرهم وإن كنتم ترون أنه ينظر إليكم مع كل ملك منهم أكتافان وحنوط فإن كان مؤمناً بشروه بالجنة وقالوا اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله وجنته فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير لك من الدنيا وما فيها

فلا يزالون يبشرونه فهم أطفب به وأرأف من الوالدة بولدها ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل يموت الأول فالأول ويبرد كل عضو الأول فالأول ويهون عليهم وإن كنتم ترونه شديداً حتى تبلغ ذقته قلبه أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم فيبتدرونها كل ملك منهم أيهم يقبضها فيتولى قبضها ملك ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) فيتلقاها بأكتافان بيض ثم يحتضنها إليه فلهو أشد لزوماً من المرأة لولدها ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك فيستششقون ريحاً طيباً ويتباشرون بها ويقولون مرحباً بالريح الطيبة والروح الطيب اللهم صل عليه روحاً وصل على جسد خرجت منه ، قال فيصعدون بها فتفوح لهم ريحاً أطيب من المسك فيصلون عليها ويتباشرون بها وتفتح لهم أبواب السماء ويصلى عليها كل ملك في كل سماء تمر بهم حتى تنتهي بين يدي الجبار جل جلاله فيقول الجبار عز وجل مرحباً بالنفس

الطبية ادخلوها الجنة وأرورها مقدها من الجنة وأعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم ثم اذهبوا بها إلى الأرض فإني قضيت أُنَى منها خلقتهم وفيها أعيدم ومنها أخرجهم تارة أخرى . فوالذي نفس محمد بيده لمى أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول أين تذهبون بي ؟ إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه ؟ فيقولون إنا مأمورون بهذا فلا بد لك منه . فيبطلون به على قدر فراغهم من غسله وأكفائه فيدخلون ذلك الروح بين الجسد وأكفائه . فتأمل كم في الحديث من موضع يشهد ببطلان قول المبطلين في الروح .

(التاسع والتسعون) ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم عن عبد الرحمن ابن اليلساني عن عبد الله بن عمر ^(١) رضى الله عنهما قال إذا توفي المؤمن بعث إليه ملكان برحمان من الجنة وخرقة تقبض فيها فتخرج كأطيب رائحة وجدها أحد فقط بأفنه حتى يؤتى به الرحمن جل جلاله فتسجد الملائكة قبله ويسجد بعمدهم ثم يدعى ميكائيل عليه السلام فيقال اذهب بهذه النفس فاجعلها مع أنفس المؤمنين حتى أسألك عنها يوم القيامة .

وقد تظاهرت الآثار عن الصحابة أن روح المؤمن تسجد بين يدي العرش في وفاة النوم ووفاة الموت ، وأما حين قدمها على الله فأحسن تحيتها أن تقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام .

(وحدثني) القاضى نور الدين بن الصائغ قال كانت لى خالة وكانت من الصالحات العابدات قال عدتها في مرض موتها فقالت لى الروح إذا قدمت على الله ووقفت بين يديه ما تكون تحيتها وقولها له ؟ قال فعظمت على مسألتها وفكرت فيها ثم قلت تقول اللهم أنت السلام ومنك للسلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام . قال فلما توفيت رأيتها في المنام فقالت لى جزاك الله خيراً لقد دهشت فما أدرى ما أقوله ثم ذكرت تلك الكلمة التي قلت لى فقلتها .

فصل

(المائة) ما قد اشترك في العلم به عامة أهل الأرض من لقاء أرواح الموتى وسؤالهم لهم وإخبارهم بإيام بأمر خفية عليهم فأروها عيانا وهذا أكثر من أن يتكلف إيراده .
وأعجب من هذا (الوجه الحادى والمائة) أن روح النائم يحصل لها في المنام آثار فتصبح يواها على البدن عيانا وهى من تأثير للروح في الروح كما ذكر القميروانى في (كتاب البستان) عن بعض السلف .

(١) في نسخة . ابن عمرو .

(قال) كان لي جار يشتم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما فتناولته وتناولني فانصرفت إلى منزلي وأنا مغمووم حزين فتمت وتركت العشاء فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فقلت يا رسول الله فلان يسب أصحابك قال من أصحابي؟ قلت أبو بكر وعمر فقال خذ هذه المدينة فاذبح بها فأخذتها فأضجته وذبحته ورأيت كأن يدي أصابها من دمه فالتقيت المدينة وأهويت يدي إلى الأرض لأمسحها فالتبته وأنا أسمع الصراخ من نحو داره فقلت ما هذا الصراخ؟ قالوا فلان مات فجأة فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه فإذا خط موضع الذبح.

وفي (كتاب المنامات) لابن أبي الدنيا عن شيخ من قريش قال رأيت رجلا بالشام قد اسود نصف وجهه وهو يعطيه فسألته عن ذلك؟ فقال قد جعلت لله على أن لا يسألني أحد عن ذلك إلا أخبرته به كنت شديد الوقعة في علي بن أبي طالب رضي الله عنه فينا أنا ذات ليلة نائم إذ أتاني آت في منامي فقال لي أنت صاحب الوقعة في؟ ففرضت شق وجهي فأصبحت وشق وجهي أسود كما ترى.

(وذكر) مسعدة عن هشام بن حسان عن واصل مولى أبي عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة قالت كنت عند عائشة رضي الله عنها فأتتها امرأة مشتملة على يدها فجعل النساء يولمن بها، فقالت ما أتيتك إلا من أجل يدي إن أي كان رجلا سمعها واني رأيت في المنام خياضا عليها رجال معهم آنية يسقون من أتاها فرأيت أبي قلت أين أمي؟ فقال انظري فنظرت فإذا أمي ليس عليها إلا قطعة خرقة فقال انها لم تصدق قط إلا ابتلك الخرقة وشحمة من بقرة ذبحوها فتلك الشحمة تذاب وتطرى بها وهي تقول واعطشاه! قالت فأخذت انا من الآنية فسقيتها فوديت من فوق من سقاها أيبس الله يده فأصبحت يدي كاترين.

(وذكر) الحارث بن أسد الحاسبي واصبغ وخلف بن القاسم وجماعة عن سميد بن مسلة قال بيننا امرأة عند عائشة إذ قالت بايتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن لا أشرك بالله شيئا ولا أسرق ولا أزني ولا أقتل ولدي ولا آتي بيهتان أقربيه من بين يدي ورجلي ولا أعصي في معروف فوفيت لربي ووقالي ربي فواته لا يعذبني الله فأتانا في اللطم ملك فقال لها كلا انك تبرجين، وزينتك تبدين وخيرك تكندين (١) وجارك تؤذين، وزوجك تعصين. ثم وضع أصابعه الخمس على وجهها وقال خمس بخمس ولو زدت زدناك فأصبحت وأثر الأصابع في وجهها.

(١) الكبود: كفران النعمة، والبخل: قاموس.

(وقال) عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك سمعت مالكا يقول إن يعقوب بن عبد الله ابن الأشج كان من خيار هذه الأمة نام في اليوم الذي استشهد فيه فقال لأصحابه انى قد رأيت أمرا ولاخبرته انى رأيت كأتى أدخلت الجنة فسقيت لبنا فاستبأه فقاء الابن واستشهد بعد ذلك . قال أبو القاسم وكان في غزوة في البحر بموضع لابن فيه ، وقد سمعت غير مالك يذكره ويذكر أنه معروف فقال انى رأيت كأتى ادخل الجنة فسقيت فيها لبنا فقال له بعض القوم أقسمت عليك لما تقيأت فقاء لبنا يصلد أى يبرق . وما في السفينة لبن ولا شاة قال ابن قتبية قوله يصلد أى يبرق يقال صلد اللبن ومنه يصلد ومنه حديث عمر أن الطيب سقاء لبنا نخرج من الطائفة أبيض يصلد .

(وكان) نافع القارىء إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك فقيل له كلما قدمت تتطيب فقال ما أمس طيبا ولا أقربه ولكن رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وهو يقرأ فى فن ذلك الوقت يشم من في هذه الرائحة .

(وذكر) مسعدة في كتابه في الرؤيا عن ربيع بن الرقاشى قال أتانى رجلان فقعدا إلى فاغتبا رجلان فنهيتهما فأتانى أحدهما بعد فقال انى رأيت في المنام كأن زنجيا أتانى بطبق عليه جنب خنزير لم أر الحما قط أسمن منه فقال لى كل فقلت آكل لحم خنزير ؟ فتهددنى فأكلت فأصبحت وقد تغير فى فلم يزل يجد الريح فى فمه شهرين .

(وكان) العلاء بن زياد له وقت يقوم فيه فقال لاهله تلك الليلة لى أجد فترة فاذا كان وقت كذا فأيقظونى فلم يفعلوا قال فأتانى آت فى منامى فقال قم يا علاء بن زياد اذكر الله يذكرك وأخذ بشعرات فى مقدم رأسى فقامت تلك الشعرات فى مقدم رأسى فلم تزل قائمة حتى مات . قال يحيى بن بسطام فلقد غسلناه يوم مات وانهن لقيام فى رأسه .

(وذكر) ابن أبي الدنيا عن أبي حاتم الرازى عن محمد بن على قال كنا بمكة فى المسجد الحرام قعودا فقام رجل نصف وجهه أسود ونصفه أبيض فقال يا أيها الناس اعتبروا بى فانى كنت أتناول للشيخين وأشتبهما فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ أتانى آت فرفع يده فلطم وجهى وقال لى ياعدو الله يا فاسق ألسنت نسب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فأصبحت وأنا على هذه الحالة .

(وقال) محمد بن عبد الله ^(١) المهلبى رأيت فى المنام كأتى فى رجة بنى فلان وإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم جالس على أكمة ومعه أبو بكر وعمر واقف قدامه فقال له عمر

يارسول الله ان هذا يشتمني ويشتم ابا بكر فقال جىء به يا ابا حفص فأتى برجل فإذا هو للعمانى وكان مشهوراً بسبهما فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم أضجمه فأضجمه ثم قال اذبحه فذبحه ، قال فما نهنى إلا صياحه فقلت ما لي لا أخبره ؟ عسى أن يتوب فلما تقربت من منزله سمعت بكاء شديداً فقلت ما هذا البكاء ؟ فقالوا العمانى ذبح البارحة على سريريه قال فدوت من عنقه فإذا من أذنه إلى أذنه طريقة حمراء كادم المحصور .

(وقال) القيروانى أخبرنى شيخ لنا من أهل الفضل قال أخبرنى أبو الحسن المطلبى امام مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال رأيت بالمدينة عجبا ! كان رجل يسب ابا بكر وعمر رضى الله عنهما فينا نحن يوما من الأيام بعد صلاة الصبح إذ أقبل رجل وقد خرجت عيناه وسالتنا على خديه فسألناه ماقتصك ؟ فقال رأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى بين يديه ومعه أبو بكر وعمر فقالا يارسول الله هذا الذى يؤذينا ويسينا ! فقال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أمرك بهذا ياأبا قيس ؟ فقلت له على وأشرت عليه فاقبل على على بوجهه ويده وقد ضم أصابعه وبسط السبابة والوسطى وقصد بها إلى عيني فقلت إن كنت كذبت ففقد الله عينيك وأدخل أصبعيه فى عيني فانتهت من نوى وأنا على هذه الحال فسكان يبكى يخبر الناس وأعلن بالتوبة .

(قال) القيروانى وأخبرنى شيخ من أهل الفضل قال أخبرنى فقيه قال كان عندنا رجل يكثر الصوم ويسرده ولكنه كان يؤخر الفطر فرأى فى المنام كأن أسودين آخذين بضبعيه وثيابه إلى تتور حمى ليلقياه فيه قال فقلت لها على ماذا ؟ فقالا على خلافك لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه أمر بتعجيل الفطر وأنت تؤخره . قال فأصبح وجهه قد اسود من وهج النار فكان يمشى متبرقماً فى الناس .

وأعجب من هذا الرجل يرى فى المنام وهو شديد العطش والجوع والألم أن غيره قدسقاء وأطعمه أوداواه بدواه فيستيقظ وقد زال عنه ذلك كله وقد رأى الناس من هذا عجائب .

وقد ذكر مالك عن أبي الرجال عن عمرة عن عائشة أن جارية لها سحرتها وأن سديا دخل عليها وهى مريضة فقال إنك سحرت ؛ قالت ومن سحرتى ؟ قال جارية فى حجرها صبى قد بال عليها . فدعت جارتها فقالت حتى أغسل بولافى ثوبى ، فقالت لها أسعرتى ؟ قالت نعم ؛ قالت وما دعاك إلى ذلك ؟ قالت أردت تعجيل العتق فأمرت أخاها أن يبيعها من الأعراب بمن يسره ملكها فباعها ثم ان عائشة رأت فى منامها أن اغتسل من ثلاثة آبار يمد بعضها بمصاً فاستسقى لها فاعتسقت فبرأت .

(وكان) سماك بن حرب قد ذهب بصره فرأى إبراهيم الخليل في المنام فسح على عينيه وقال اذهب إلى الفرات فتغمس فيه ثلاثاً . فضل فأبصر .

(وكان) إسماعيل بن بلال الحضرمي قد عمى فأتى في المنام فقيل له قل يا قريب يا مجيب يا سميع الدعاء بالطيف بمن يشاء رد على بصري ؛ فقال الليث بن سعد أنا رأيتك قد عمى ثم أبصر .

(وقال) عبيد الله بن أبي جعفر اشكتك شكوى لجهدت منها فكنت أقرأ آية الكرسي فمت فإذا رجلان قائمان بين يدي فقال أحدهما لصاحبه أن يقرأ آية فيها ثلاثمائة وستون رحمة أفلا يصيب هذا المسكين فيها رحمة واحدة ؟ فاستيقظت فوجدت خفة .

(قال) ابن أبي الدنيا اعتلت امرأة من أهل الحير والصلاح بوجع المعدة فرأت في المنام قائلاً يقول لها لا إله إلا الله المظلي وشراب الورد . فشرته فأذهب الله عنها ما كانت تجرد .

(قال) وقالت أيضاً رأيت في المنام كافي أقول السناء والصل وماء الخمر الأسود شفاء لوجع الأوراك ؛ فلما استيقظت أتتني امرأة تشكو وجعاً بوركها فوصفت لها ذلك فاستغفرت به .

(وقال) جالينوس السبب الذي دعاني إلى فصد العروق الضواري أني أمرت به في منامى مرتين قال كنت إذ ذاك غلاماً قال وأعرف إنساناً شفاه الله من وجع كان به في جنبه بفصد العرق الضارب لرؤيا رآها في منامه .

(وقال) ابن الحراز كنت أعالج رجلاً مموذاً فغاب عني ثم لقيته فسألته عن حاله فقال رأيت في المنام إنساناً في زي ناسك متوكفاً على عصا وقف على وقال انت رجل مموذ ؟

فقلت نعم ، فقال عليك بالكبياء والجنجيين . فأصبحت فسألته عنهما فقيل لي الكبياء المصطكي والجنجيين الورد المرني بالمسل فاستعملتهما أياماً فبرأت ، فقلت له : ذلك جالينوس .

والوقائع في هذا الباب أكثر من أن تذكر . قال بعض الناس إن أصل الطب من المنامات ولا ريب أن كثيراً من أصوله مستند إلى الرؤيا ، كما أن بعضها عن التجارب وبعضها عن

القياس وبعضها عن الهام ؛ ومن أراد الوقوف على ذلك فيلنظر في (تاريخ الأبطال) وفي (كتاب البستان للقيرواني) وغير ذلك .

فصل

(الوجه الثاني بعد المائة) قوله تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء) وهذا دليل على أن المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء ، وهذا التفتيح هو تفتيحها لأرواحهم

عند الموت كما تقدم في الاحاديث المستفيضة أن السماء تفتح لروح المؤمن حتى ينهى بها إلى بين يدي الرب تعالى .

وأما الكافر فلا تفتح لروحه أبواب السماء ولا تفتح لجسده أبواب الجنة .

فصل

(الوجه الثالث بعد المائة) قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم يا بلال ما دخلت الجنة إلا سمعت خشخشتك بين يدي فم ذاك ؟ قال ما أحدثت في ليل أو نهار إلا نوضأت واصلت ركعتين . قال بهما ، ومعلوم أى الذى سمع خشخشته بين يديه هو روح بلال ، وإلا فجسده لم ينقل إلى الجنة .

(الوجه الرابع بعد المائة) الاحاديث والآثار التي في زيارة القبور والسلام على أهلها ومخاطبتهم والاختبار عن معرفتهم بزوارهم وزدحم عليهم السلام . وقد تقدمت الإشارة إليها .

(الوجه الخامس بعد المائة) شكاية كثير من أرواح الموقل إلى أقرابهم وغيرهم أموراً مؤذية فيجدونها كما شكوه فيزبلونها .

(الوجه السادس بعد المائة) لو كانت الروح عبارة عن عرض من أعراض البدن أو جوهر مجرد ليس بجسم ولا حال فيه لكان قول القائل خرجت وذهبت وقتت وجئت وقعدت وتحركت ودخلت ورجعت ونحو ذلك كله أقوالاً باطلة لأن هذه الصفات بمتعة الثبوت في حق الاعراض والمجردات ، وكل عاقل يعلم صدق قوله وقول غيره ذلك فالتدح في ذلك قدح في أظهر المعلومات من باب السفطة (لا يقال) حاصل هذا الدليل التمسك بالفاظ الناس وإطلاقاتهم وهي تحتل الحقيقة والمجاز فلعل مرادهم دخل جسمي وخرج . لانا إنما استدلتنا بشهادة العقل والفطرة بمعنى هذه الالفاظ فكل أحد يشهد عقله وحسه بأنه هو الذى دخل وخرج وانتقل لا مجرد بدنه فمشاهدة الحس والعقل بمعنى هذه الالفاظ وإضافتها إلى الروح أصلاً وإلى البدن تبعاً من أصدق الشهادات والاعتقاد على ذلك لاعلى مجرد الاطلاق اللفظي .

(الوجه السابع بعد المائة) أن البدن مركب ومحل لتصرف النفس فكان دخول البدن وخروجه وانتقاله جاريماً مجرد دخول مركبه من فرسه ودابته فلو كانت النفس غير قابلة للدخول والخروج والانتقال والحركة والسكون لكان ذلك بمنزلة دخول مركب الإنسان إلى الدار وخروجه منها دون دخوله هو ، وهذا معلوم البطلان بالضرورة ، وكل أحد يعلم أن نفسه

وروحه هي التي دخلت وخرجت واتقلت وصرفت البدن وجعلته تعاملها في الدخول والخروج فهو لها بالأصل واللبدين بالتبع لكنه لبدن بالمشاهدة وللروح بالعلم والمقل .

(الوجه الثامن بعد المائة) أن النفس لو كانت كما يقوله من يقول أنها عرض لكان الإنسان كل وقت قد يبدل مائة ألف نفس أو أكثر ، والإنسان إنما هو إنسان بروحه ونفسه لا يبدنه وكان الإنسان الذي هو الإنسان غير الذي هو قبله بلحظة وبعده بلحظة ، وهذا من نوع الهوس ولو كانت الروح مجردة ، وتعلقها بالبدن بالتدبير فقط لا بالمساكنة والمداخلة لم يمتنع أن ينقطع تعلقها بهذا البدن وتعلق بغيره كما يجوز انقطاع تدبير المدير لبيت أو مدينة عنها ويتعلق بتدبير غيرها وعلى هذا التدبير فصيّر شاكين في أز هذه النفس التي لزيد هي النفس الأولى أو غيرها ؟ وهل زيد هو ذلك الرجل أم غيره وعاقل لا يجوز ذلك فلو كانت الروح هرضاً أو أمراً مجرداً لحصل الشك المذكور .

(الوجه التاسع بعد المائة) أن كل أحد يقطع أن نفسه موصوفة بالعلم والفكر والحب والبغض والرضا والسخط وغيرها من الأحوال النفسانية ويعلم أن الموصوف ليس بذلك عرضاً من أعراض بدنه ولا جوهرأ مجرداً منفصلاً عن بدنه غير مجاور له ويقطع ضرورة بأن هذه الإدراكات لا تدخل في بدنه كما يقطع بأنه إذا سمع وأبصر وشم وذاق ولمس وتحرك وسكن فتلك أمور قائمة به مضافة إلى نفسه ، وأن جوهر النفس هو الذي قام به ذلك كله لم يتم بمجرد ولا بعرض بل قام بتمحيض داخل العالم منتقل من مكان إلى مكان يتحرك ويسكن ويخرج ويدخل وليس إلا هذا البدن والجسم السارى فيه المشابك له الذي لولاه لكان منزلة الجماد .

(الوجه العاشر بعد المائة) ان النفس لو كانت مجردة وتعلقها بالبدن تعلق فقط كتملق الملاح بالسفينة والجمال بحمله لا يمكنها ترك تدبير هذا البدن واشتغالها بتدبير بدن آخر كما يمكن الملاح والجمال ذلك ، وفي ذلك تجويز نقل النفوس من أبدان إلى أبدان . ولا يقال أن النفس انحدرت بدنها فامتنع عليها الانتقال أو أنها لها عشق طبيعي وشوق ذاتي إلى تدبير هذا البدن فلهذا السبب امتنع انتقالها . لانا نقول الاتحاد ما لا يتحيز بالمتحيز محال ، ولأنها لو انحدرت به لبطلت ببطلانه ولأنها بعد الاتحاد إن بقيا فهما اثنان لا واحد ، وإن عندما معا وحدث ثالث فليس من الاتحاد في شيء ، وإن بقي أحدهما وعدم الآخر فليس باتحاد أيضاً . وأما عشق النفس الطبيعي للبدن فالنفس إنما تعشقه لأنها تتناول الذات بواسطة ، وإذا كانت الأبدان متساوية في حصول مطلوبها كانت نسبتها اليها على السواء ، فقولكم ان النفس

العينة عاشقة للبدن المعين باطل . ومثال ذلك العطشان إذا صادف آنية متساوية كل منها يحصل غرضه امتنع عليه أن يعشق واحداً منها بعينه دون سائرهما .

(الوجه الحادى عشر بعد المائة) ان نفس الإنسان لو كانت جوهرًا مجردًا لادخل العالم ولا خارجه ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة عنه ولا مباينة له ولا مجانبة لكان يعلم بالضرورة أنه موجود بهذه الصفة لأن علم الانسان بنفسه وصفاتها أظهر من كل معلوم وأن عليه بما عداه تابع لعلمه بنفسه ، ومعلوم قطعاً ان ذلك باطل فان جماهير أهل الأرض يعلمون أن لإثبات هذا الموجود محال في العقول شاهداً وغائباً فمن قال ذلك في نفسه وربّه فلا نفسه عرف ولا ربه عرف .

(الوجه الثانى عشر بعد المائة) ان هذا البدن المشاهد محل لجميع صفات النفس وإدراكاتها الكلية والجزئية ومحل للقدره على الحركات الإرادية فوجب أن يكون الحامل لتلك الإدراكات والصفات هو البدن وماسكن فيه . أما ان يكون محلها جوهرًا مجردًا لادخل العالم ولا خارجه فباطل بالضرورة .

(الوجه الثالث عشر بعد المائة) أن النفس لو كانت مجردة عن الجسمية والتعجز لا تمتنع أن يتوقف فعلها على ماسة محل الفعل لأن ما لا يكون متعجزاً يمتنع أن يصير ماساً للمتعجز ، ولو كان الأمر كذلك لكان فعلها على سبيل الاختراع من غير حاجة إلى حصول ماسة وملاقة بين الفاعل وبين محل الفعل فكان الواحد منا يقدر على تحريك الاجسام من غير أن يماسها أو يماس شيئاً يماسها فان النفس عند كم كما كانت قادرة على تحريك البدن من غير أن يكون بينها وبينه ماسة كذلك لا تمتنع قدرتها على تحريك جسم غيره من غير ماسة له ولا لما يماسه وذلك باطل بالضرورة ، فعلم أن النفس لا تقوى على التحريك إلا بشرط أن تماس محل الحركة أو تماس ما يماسه وكل ما كان يماسه للجسم أو لما يماسه فهو جسم . فان قيل يجوز أن يكون تأثير النفس في تحريك بدنها الخاص غير مشروط بالماسة وتأثيرها في تحريك غيره موقوف على حصول الماسة بين بدنها وبين ذلك الجسم ، فالجواب انه لما كان قبول البدن لتصرفات النفس لا يتوقف على حصول الماسة بين النفس وبين البدن وجب أن تكون الحال كذلك في غيره من الاجسام لأن الاجسام متساوية في قبول الحركة ، ونسبة النفس إلى جميعها سواء لانها إذا كانت مجردة عن الجسمية وعلاقت الجسمية كانت نسبة ذاتها إلى السهل بالسوية ومتى كانت ذات الفاعل نسبتها إلى السهل بالسوية والقوايل نسبتها إلى ذلك الفاعل بالسوية كان التأثير بالنسبة إلى السهل على السواء فاذا استغنى الفاعل عن ممانحة محل الفعل في حق البعض وجب أن يستغنى في حق الجميع ، وإن افتقر إلى الماسة في البعض

وجب افتقاره في الجميع ، فإن قيل النفس عاشقة لهذا البدن دون غيره فكان تأثيرها فيه أقوى من تأثيرها في غيره . قيل هذا العشق الشديد يقتضى أن يكون تعلقها بالبدن أكثر وتصرفها فيه أقوى فلما أن يتغير مقتضى ذاتها بالنسبة إلى هذه الاجسام فذلك محال . وهذا دليل في غاية القوة .

(الوجه الرابع عشر بعد المائة) أن العقلاء كلهم متفقون على أن الإنسان هو هذا الحي الناطق المتفدى النامى الحساس المتحرك بالإرادة وهذه الصفات نوعان صفات لبدنه و صفات لروحه ونفسه الناطقة ، فلو كانت الروح جوهرًا مجردًا لادخل العالم ولاخارجه ولامتصله به ولا منفصلة عنه لكان الإنسان لادخل العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه أو كان بعضه في العالم وبعضه لادخل العالم ولاخارجه ، وكل عاقل يعلم بالضرورة بطلان ذلك وأن الإنسان بجملة داخل العالم وبدنه وروحه ، وهذا في البطلان يضاهى قول من قال أن نفسه قديمة غير مخلوقة فجعلوا نصف الانسان مخلوقاً ونصفه غير مخلوق (فان قيل) نحن نسلم أن الانسان كما ذكرتم إلا أنا تثبت جوهرًا مجرداً يدبر الانسان الموصوف بهذه الصفات .

قلنا فذلك الجوهر الذى أثبتتموه مغاير للانسان أو هو حقيقة الإنسان ؟ ولا بدلكم من أحد الامرين ، فان قلتم هو غير الإنسان رجعت كلامكم إلى أنكم أثبتتم للانسان مدبراً غيره سميتموه نفساً ، وكلامنا الآن إنما هو في حقيقة الانسان لاني مدبره فان مدبر الإنسان وجميع العالم العلوى والسفلى هو الله الواحد القهار .

(الوجه الخامس عشر بعد المائة) أن كل عاقل إذا قيل له ما الإنسان ؟ فانه يشير إلى هذه البنية وما قام بها لا يخطر بباله أمر مغاير لها مجرد ليس في العالم ولا خارجه والعلم بذلك ضرورى لا يقبل شكاً ولا تشكيكاً .

(الوجه السادس عشر بعد المائة) أن عقول العالمين قاضية بأن الخطاب متوجه إلى هذه البنية وما قام بها وساكنها ، وكذلك المدح والذم والثواب والعقاب والترغيب والترهيب ، ولو أن رجلاً قال للأموه والمنهى والممدوح والمذموم والمخاطب والعاقل جوهر مجرد ليس في العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه لأضحك العقلاء على عقله ولا طبقوا على تكذيبه ، وكل ما شهدت بدائه العقول وصرائحها ببطلانه كان الاستدلال على ثبوته استدلالاً على صحة وجود المحال . وبالله التوفيق .

فصل

فان قيل قد ذكرتم الأدلة الدالة على جسميتها وتحيزها فما جوابكم عن أدلة المنازعين لكم في ذلك؟ فانهم استدلوا بوجوه .

(أحدها) اتفاق العقلاء على قولهم الروح والجسم والنفس والجسم فيجعلونها شيئاً غير الجسم فلو كانت جسماً لم يكن لهذا القول معنى .

(الثاني) وهو أقوى ما يحتجون به أنه من المعلوم أن في الموجودات ما هو غير قابل للقسمة كالنقطة والجوهر الفرد بل ذات واجب الوجود فوجب أن يكون العلم بذلك غير قابل للقسمة؛ فوجب أن يكون الموصوف بذلك العلم وهو محله غير قابل للقسمة وهو النفس فلو كانت جسماً لكانت قابلة للقسمة . ويقرر هذا الدليل على وجه آخر وهو أن محل العلوم الكلية لو كان جسماً أو جسمانياً لانتقسمت تلك العلوم لأن الحال في المنقسم (١) ، وانقسام تلك العلوم مستحيل .

(الثالث) أن الصور العقلية الكلية مجردة بلاشك وتجردها إما أن يكون بسبب المأخوذ عنه أو بسبب الأخذ، والأول باطل لأن هذه الصور إنما أخذت عن الأشخاص الموصوفة بالمقادير المختلفة والأوضاع العينية، فثبت أن تجردها إنما هو بسبب الأخذ لها والقوة العقلية المسماة بالنفس .

(الرابع) أن القوة العاقلة تقوى على أفعال غير متناهية ، فانها تقوى على إدراكات لا تنهاى والقوة الجسمانية لا تقوى على أفعال غير متناهية لأن القوة الجسمانية تنقسم بانقسام محلها فالذى يقوى عليه بعضها يجب أن يكون أقل من الذى يقوى عليه الكل ، فالذى يقوى عليه الكل يزيد على الذى يقوى عليه البعض أضعافاً متناهية والزائد على المتناهى بمتناه متناه .

(الخامس) أن القوة العاقلة لو كانت حالة في آلة جسمانية لوجب أن تكون القوة العاقلة دائمة الإدراك لتلك الآلة أو بمتعة الإدراك لها بالكلية وكلاهما باطل . لأن إدراك القوة العاقلة لتلك الآلة إن كان عين وجودها فهو محال ، وإن كان صورة مساوية لوجودها وهي حالة في القوة العقلية الحالة في تلك الآلة لزم اجتماع صورتين متماثلتين وهو محال ، وإذا بطل هذا ثبت أن القوة العاقلة لو أدركت آلتها لكان إدراكها عبارة عن نفس حصول تلك الآلة عند القوة العاقلة فيجب حصول الإدراك دائماً إن كفى هذا القدر في حصول

(١) كذا ولعله سقط منقسم .

الادراك وإن لم يكف امتنع حصول الادراك في وقت من الأوقات إذ لو حصل في وقت دون وقت لكان بسبب أمر زائد على مجرد حضور صورة الآلة .

(السادس) أن كل أحد يدرك نفسه وإدراك الشيء عبارة عن حضور ماهية المعلوم عند العالم فإذا علمنا أنفسنا فهو إما أن يكون لأجل حضور ذواتنا لذواتنا أو لأجل حضور صورة مساوية لذواتنا في ذواتنا ، والقسم الثاني باطل وإلا لزم اجتماع المثليين فثبت انه لا معنى لعلمنا بذاتنا الاحضور ذاتنا عند ذاتنا وهذا انما يكون اذا كانت ذاتنا قائمة بالنفس غنية عن المحل لانها لو كانت حالة في محل كانت حاضرة عند ذلك المحل فثبت ان هذا المعنى إنما يحصل إذا كانت النفس قائمة بنفسها غنية عن محل تحمل فيه .

(السابع) ما احتج به أبو البركات البغدادي وأبطل ما سواه فقال لانك أن الواحد منا يمكنه أن يتخيل بجرا من زئبق وجبلا من ياقوت وشموساً وأقاراً فهذه الصور الخيالية لا تكون معدومة لأن قوة التخيل تشير إلى تلك الصور وتميز بين كل صورة وغيرها وقد يقوى ذلك التخيل إلى أن يصير كالمشاهد المحسوس ، ومعلوم أن العدم المحض والنفي الصرف لا يثبت ذلك ونحن نعم بالضرورة ان هذه الصور ليست موجودة في الأعيان فثبت أنها موجودة في الأذهان ، فنقول محل هذه الصورة إما أن يكون جسماً أو حالاً في الجسم أو لاجسماً ولا حالاً في الجسم . والقسمان الأولان باطلان لأن صورة البحر والجل صورة عظيمة . والدماغ والقلب جسم صغير وانطباع العظيم في الصغير محال فثبت أن محل هذه الصورة الخيالية ليس بجسم ولا جسماني .

(الثامن) لو كانت القوة العقلية جسدانية لضعفت في زمان الشيخوخة دائماً وليس كذلك .

(التاسع) ان القوة العقلية غنية في أفعالها عن الجسم وما كان غنيا في فعله عن الجسم وجب أن يكون غنيا في ذاته عن الجسم . بيان الأول أن القوة العقلية تدرك نفسها ومن المحال أن يحصل بينها وبين نفسها آلة متوسطة أيضاً ، وتدرك إدراكها لنفسها وليس هذا الإدراك بآلة . وأيضاً فانها تدرك الجسم الذي هو آلتها وليس بينها وبين آلتها آلة أخرى ، وبيان الثماني من وجهين :

(أحدهما) أن القوى الجسمانية كالناظرة والسامعة والخيال والروم لما كانت جسمانية يقدر عليها إدراك ذواتها وإدراكها لكونها مدركة لذواتها وإدراكها لتلك الأجسام الحاملة لها ، فلو كانت القوة العاقلة جسمانية لتعذر عليها هذه الأمور الثلاثة .

(الثاني) أن مصدر الفعل هو النفس فلو كانت النفس متعلقة في قوامها ووجودها بالجسم لم تحصل تلك الأفعال إلا بشركة من الجسم ، ولما ثبت أنه ليس كذلك ثبت أن القوة العقلية غنية عن الجسم .

(العاشر) أن القوة الجسمانية تشكل بكثرة الأفعال ولا تقوى على القوى بعد الضعف وسببه ظاهر فإن القوى الجسمانية بسبب مزاولة الأفعال تتعرض موادها للتحلل والذبول وهو يوجب الضعف ، وأما القوة العقلية فانها لا تضعف بسبب كثرة الأفعال وتقوى على القوى بعد الضعف فوجب أن لا تكون جسمانية .

(الحادى عشر) أنا إذا حكمنا بأن السواد مضاد للبياض وجب أن يحصل في الدهن ماهية السواد والبياض والبداهة حاكمة بأن اجتماع السواد والبياض والحرارة والبرودة في الاجسام محال فلما حصل هذا الاجتماع في القوة العقلية وجب أن لا تكون قوة جسمانية .

(الثانى عشر) أنه لو كان محل الإدراكات جسما وكل جسم منقسم لا محالة لم يمنع أن يقوم ببعض أجزاء الجسم علم بالشيء وبالبعض الآخر منه جهل وحيثئذ فيكون الانسان في الحال الواحد عالما بالشيء وجاهلا به .

(الثالث عشر) أن المسادة الجسمانية إذا حصلت فيها نقوش مخصوصة فان وجود تلك النقوش فيها يمنع من حصول نقوش غيرها ، وأما النقوش العقلية فبالضد من ذلك لان النفس إذا كانت خالية من جميع العلوم والإدراكات فانه يصعب عليها التعلم فاذا تعلمت شيئا صار حصول تلك العلوم معيناً على سهولة غيرها ، فالنقوش الجسمانية متغيرة متناهية والنقوش العقلية متعاقبة متعاوضة .

(الرابع عشر) ان النفس لو كانت جسما لكان بين إرادة العبد تحريك رجله وبين تحريكها زمان على قدر حركة الجسم وتمله ، فان النفس هي المحركة للجسد والمهدلحركته فلو كان المحرك للرجل جسما فإما أن يكون حاصلا في هذه الأجزاء أو جاثيا اليها ، فان كان جاثيا إليها احتاج إلى مدة ولا بد ، وإن كان حاصلا فيها فنحن إذا قطعنا تلك العضلة التي تكون بها الحركة لم يبق منها في العضو المتحرك شيء فلو كان ذلك المتحرك حاصلا فيه لبق منه شيء في ذلك العضو .

(الخامس عشر) لو كانت النفس جسما لكانت منقسمة واصبح عليها أن يعلم بعضها كما يعلم كلها فيكون الانسان عالما ببعض نفسه جاهلا بالبعض الآخر وذلك محال .

(السادس عشر) لو كانت النفس جسما لوجب أن يتقل البدن بدخولها فيه لان شأن

الجسم الفارغ إذا ملاءه غيره أن يتقل به كالزق الفارغ والامر بالعكس فأخف ما يكون البدن إذا كانت فيه النفس وأثقل ما يكون إذا فارقتة .

(السابع عشر) لو كانت النفس جسماً لكانت على صفات سائر الاجسام التي لا يتخلوشى منها من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والنعومة والخشونة والسواد والبياض وغير ذلك من صفات الاجسام وكيفياتها . ومعلوم أن الكيفيات النفسانية إنما هي الفضائل والذائل لانتلك الكيفيات الجسمانية فالنفس ايمت جسماً .

(الثامن عشر) انها لو كانت جسماً لوجب أن يقع تحت جميع الحواس أو تحت حاسة منها أو حاستين أو أكثر ، فان انزى الاجسام كذلك منها ما يدرك بجميع الحواس ومنها ما يدرك بأكثرها ومنها ما يدرك بحاستين منها أو واحدة . والنفس بريئة من ذلك كله . وهذه الحججة التي احتج بها جهم على طائفة من الملاحدة حين أنكروا الخالق سبحانه وقالوا لو كان موجوداً لوجب أن يدرك بحاسة من الحواس فعارضهم بالنفس وأن تم المعارضة إذا كانت جسماً وإلا لو كانت جسماً لجاز إدراكها ببعض الحواس .

(التاسع عشر) لو كانت جسماً لكانت ذات طول وعرض وعمق وسطح وشكل وهذه للقادير والابعاد لا تقوم إلا بآداة ومحل . فان كانت مادتها ومحلها نفساً لزم اجتماع نفسيين ، وإن كان غير نفس كانت النفس مركبة من بدن وصورة وهى فى جسد مركب من بدن وصورة فيكون الانسان انسانين .

(العشرون) ان من خاصة الجسم أن يقبل التجزى والجزء الصغير منه ليس كالكبير ولو قبلت التجزى فكل جزء منها إن كان نفساً لزم أن يكون الانسان نفوس كثيرة لانفس واحدة ، وإن لم يكن نفساً لم يكن المجهوع نفساً كما أن جزء الماء إن لم يكن ماء لم يكن بمجموعه ماء .

(الحادى والعشرون) أن الجسم محتاج فى قوامه وحفظه وبقائه إلى النفس ولهذا يضمحل ويتلاشى لما تفارقه ، ولو كانت جسماً لكانت محتاجة إلى نفس أخرى وهلم جرا ويتسلسل الامر وهذا المحال إنما لزم من كون النفس جسماً .

(الثانى والعشرون) لو كانت جسماً لكان اتصالها بالجسم إن كان على سبيل المداخلة لزم تداخل الاجسام ، وإن كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان الانسان الواحد جسمين متلاصقين أحدهما يرى والآخر لا يرى .

فهذا كل ما موته به هذه الطائفة المبطله من منخقة وموقوذة ومرتدية ونحن نجيبهم عن ذلك كله فصلاً بفصل بحول الله وقوته ومعونته .

فصل

فأما قولهم ان العقلاء متفقون على قولهم الروح والجسم والنفس والجسم وهذا يدل على تغايرهما . فالجواب أن يقال ان مسمى الجسم في اصطلاح المتفلسفة والمتكلمين أعم من مسماه في لغة العرب وعرف أهل العرف فان الفلاسفة يطلقون الجسم على قابل الابعاد الثلاثة خفيفا كان أو ثقيلا مرثيا كان أو غير مرثى فيسمون الهواء جسما والتار جسما والماء جسما وكذلك الدخان والبخار والكوكب ، ولا يعرف في لغة العرب تسمية شيء من ذلك جسما التة هذه لغتهم وأشعارهم ، وهذه النقول عنهم في كتب اللغة ، قال الجوهري قال أبو زيد الجسم الجسد وكذلك الجسان والجثمان . قال الأصمعي الجسم والجسان الجسد والجثمان الشخص وقد جسم الشيء أى عظم فهو عظيم جسيم وجسام بالضم .

ونحن اذا سمينا النفس جسما فانما هو باصطلاحهم وعرف خطاهم وإلا فليست جسما باعتبار وضع اللغة ، ومقصودنا بكونها جسما لثبات الصفات والأفعال والأحكام التي دل عليها الشرع والعقل والحس من الحركة والانتقال والصعود والنزول ومباشرة النعم والعذاب واللذة والألم وكونها تحبس وترسل وتقبض وتدخل وتخرج ، فلذلك أطلقنا عليها اسم الجسم بحقيقا لهذه المعاني وإن لم يطلق عليها أهل اللغة اسم الجسم فالكلام مع هذه الفارقة المبطل في المعنى لا في اللفظ فقول أهل التخاطب الروح والجسم هو بهذا المعنى .

فصل

وأما الشبهة الثانية . فهي أقوى شبههم التي بها يصلون وعليها يعولون وهي مبجلة على أربع مقدمات .

(احداها) ان في الوجود ما لا يقبل التسمية بوجه من الوجوه .

(الثانية) انه يمكن العلم به .

(الثالثة) ان العلم به غير منقسم .

(الرابعة) انه يجب أن يكون محل العلم به كذلك إذ لو كان جسما لكان منقسما .

وقد نازعهم في ذلك جمهور العقلاء وقالوا لم تقيموا دليلا على أن في الوجود ما لا يفضل القسمة الحسبة ولا الوهمية وإنما بأيديكم دعاو لاحقيقة لها وإنما أنبتموه من واجب الوجود وهو بناء على أصلكم الباطل عند جميع العقلاء من أهل الللل وغيرهم من انكار ماهية الرب

تعالى وصفاته وانه وجود مجرد لا صفة له ولا ماهية وهذا قول باينتم به العقول وجميع الكتب المنزلة من السماء وإجماع الرسل ونفيتهم به علم الله وقدرته ومشيدته وسمعه وبصره وعلوه على خلقه ونفيتهم به خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وسميتموه توحيدا وهو أصل كل تعطيل .

(قالوا) والنقطة التي استدلتتم بها هي من أظهر ما يبطل دليلكم فانها غير منقسمة وهي حالة في الجسم المنقسم فقد حل في المنقسم ما ليس بمنقسم . ثم إن مشبتي الجوهر الفرد وهم جمهور المتكلمين ينازعونكم في هذا الأصل ويقولون الجوهر حال في الجسم بل هو مركب منه فقد حل في المنقسم ما ليس بمنقسم ولا يمكن تتميم دليلكم إلا بنفى الجوهر الفرد ، فان قلمت النقطة عبارة عن نهاية الخط وفنائه وعدمه فهي أمر عدى . بطل استدلالكم بها ، وإن كانت أمراً وجودياً فقد حلت في المنقسم فيبطل الدليل على التقديرين .

(قالوا) أيضاً فلم لا يكون العلم حالاً في محله لا على وجه النوع والسريان فان حلول كل شيء في محله بحسبه فحلول الحيوان في الدار نوع ، وحلول العرض في الجسم نوع ، وحلول الخط في الكتاب نوع ، وحلول الدهن في السمس نوع وحلول الجسم في العرض نوع ، وحلول الروح في البدن نوع ، وحلول العلوم والمعارف في النفس نوع .

(قالوا) وأيضاً فالوحدة حاصلة فان كانت جوهرها فقد ثبت الجوهر الفرد بطل دليلكم فانه لا يتم إلا بنفيه ، وإن كان عرضاً وجب أن يكون لها محل ، فجلها إن كان منقسماً فقد جاز قيام غير المنقسم بالمنقسم فهو الجوهر وبطل الدليل . فان قلمت الوحدة أمر عدى لا وجود له في الخارج فكذلك أثبتتم به وجود ما لا ينقسم كلها أمور عدمية لا وجود لها في الخارج فان واجب الوجود الذي أثبتموه أمر عدى بل مستحيل الوجود .

(قالوا) وأيضاً فالإضافات عارضة لا أقسام مثل الفوقية والتحتية والمالكية والملوكية فلو انقسم الحال بانقسام محله لزم انقسام هذه الإضافات فكان يكون حقيقة الفوقية والتحتية ربع وثمان وهذا لا يقبله العقل .

(قالوا) وأن القوة الوهمية والفكرية جسمانية عند زعيمكم ابن سينا فيلزم أن يحصل لها أجزاء وأبعاد وذلك محال لأنها لو انقسمت لكان كل واحد من أبعادها إن كان مثلها كان الجزء مساوياً للكل وإن لم يكن مثلها لم تكن تلك الأجزاء كذلك .

وأيضاً فإن الوهم لا معنى له إلا كون هذا صديقاً وهذا عدواً وذلك لا يقبل القسمة .

(قالوا) وأن الوجود أمر زائد على الماهيات عندكم فلو لزم انقسام الحال لاقسام محله

لزم انقسام ذلك الوجود بانقسام محله . وهذا الوجه لا يلزم من جعل وجود الشيء غير ماهيته .

(قالوا) وأيضاً فطبائع الأعداد ماهيات مختلفة ، فالمفهوم من كون العشرة عشرة مفهوم واحد وماهية واحدة ، فذلك الماهية إما أن تكون عارضة لكل واحد من تلك الآحاد وهو محال ، وإما أن تنقسم بانقسام تلك الآحاد وهو محال ، لأن المفهوم من كون العشرة عشرة لا يقبل القسمة . نعم العشرة تقبل القسمة لاعتباريتها . قالوا فقد قدم ما لا ينقسم بالمقسم .

(قالوا) وأيضاً فالكيفيات المختصة بالكميات كالاستدارة والنقوش ونحوهما عند الفلاسفة أعراض موجودة في شبه الاستدارة ، إن كان عرضاً فأما أن يكون بتمامه قائماً ، وإما أن يكون بكل واحد من الأجزاء وهو محال ، وأما أن ينقسم ذلك العرض بانقسام الأجزاء ويقوم بكل جزء من أجزاء الخط جزء من أجزاء ذلك العرض وهو محال ، لأن جزأه إن كان استدارة لزم أن يكون جزء العائرة دائرة ، وإن لم يكن استدارة فعند اجتماع الأجزاء إن لم يحدث أمر زائد وجب أن لا تحصل الاستدارة وإن حدث أمر زائد فإن كان منقسماً عاد التقسيم وإن لم ينقسم كان الحال غير منقسم ومحلّه منقسماً .

(قلت) وهذا لا يلزمهم فإن لهم أن يقولوا ينقسم بانقسام محله تبعاً له كسائر الأعراض القائمة بمحالتها من البياض والسواد ، وأما ما لا ينقسم كالطول فشرط حصوله اجتماع الأجزاء والمعلق على الشرط منتف بانتفائه .

(قالوا) وإن هذه الأجسام ممكنة بذواتها وذلك صفة عرضية لها خارجة عن ماهيتها فإن لم تنقسم بانقسام محلها بطل الدليل ، وإن انقسمت عاد المحذور المذكور من مساواة الجزء للكل والتسلسل .

(قلت) وهذه أيضاً لا يلزمهم لأن الامكان ليس أمر يدل على قبول الممكن للوجود والعدم وذلك القبول من لوازم ذاته ليس صفة عارضة له ولكن الذهن بمجرد هذا القبول عن القابل فيكون عروضة الماهية بتجريد الذهن ، وأما قضية مشاركة الجزء للكل فلا امتناع في ذلك كسائر الماهيات البسيطة ، فإن جزأها مساو لكلها في الحد والحقيقة كالماء والتراب والهواء وإنما الممتنع أن يساوى الجزء للكل في الكم لا في نفس الحقيقة .

والمعول في إبطال هذه الشبهة على أن العلم ليس بصورة حالته في النفس وإنما هو نسبة وإضافة بين العلم والمعلوم كما نقول في الإبصار أنه ليس بانطباع صورة مساوية للبصر في القوة الباصرة وإنما هو نسبة وإضافة بين القوة الباصرة والمبصر وعامة شبههم التي أوردوها

في هذا الفصل مبينة على انطباع صورة المعلوم في القرة العالمة ثم بنوا على ذلك أن انقسام مالا ينقسم في المنقسم محال .

وقولهم محل العلوم الكلية لو كان جسما أو جسمانيا لانقسمت تلك العلوم لأن الحال في المنقسم منقسم لم يذكروا جسمه هذه المقدمة دليلا ولا شبهة وإنما بأيديهم مجرد الدعوى وليست بديهية حتى تستغنى عن الدليل وهي مينة على أن العلم بالشيء عن حصول صورة مسارية لماهية المعلوم في نفس العالم وهذا من أبطل الباطل للوجوه التي نذكرها هناك .

وأيضاً فلو سلنا لكم ذلك كان من أظهر الأدلة على بطلان قولكم فإن هذه الصورة إذا كانت حالة في جوهر النفس الناطقة فهي صورة جزئية حالة في نفس جزئية تقارنها سائر الاعراض الحالة في تلك لنفس الجزئية فإذا اعتبرنا تلك الصورة مع جملة هذه الواحق لم تكن صورة مجردة بل مقرونة بلواحق وعوارض وذلك يمنع كليتها .

(فان قلت) المراد بكونها كلية أنا إذا حذفنا عنها تلك الواحق واعتبرناها من حيث هي هي كانت كلية قلنا لكم فإذا جاز هذا فلم لا يجوز أن يقال هذه الصورة حالة في مادة جسمانية مخصوصة بمقدار معين وبكل معين إلا أنا إذا حذفنا عنها ذلك واعتبرناها من حيث هي هي كانت بمنزلة تلك الصورة التي فعلنا بها ذلك فالمعين في مقابلة المعين المطلق المأخوذ من حيث هو في مقابلة محله المطلق ، وهذا هو المعقول الذي شهدت به العقول الصحيحة والميزان الصحيح ، فظهر أن هذه الشبهة من أفسد الشبه وأبطلها ، وإنما أتى القوم من الكليات فإنها هي التي خربت دورهم وأفسدت نظرهم ومناظرهم فإنهم جردوا أموراً كلية لا وجود لها في الخارج ثم حكموا عليها بأحكام الموجودات وجعلوها ميزانا وأصلا للموجودات .

فإذا جردوا صور المعلومات وجعلوها كلية جردنا نحن محلها وجعلناها كليا . وان أخذوا جزئية معينة فحطها كذلك ؛ فالكلية في مقابلة الكلي والجزئي في مقابلة الجزئي .

على أنا نقول ليس في الذهن كلي وإنما في الذهن صورة معينة مشخصة منطبعة على سائر أفرادها ، فان سميت كلية بهذا الاعتبار فلا مشاحة في الألفاظ وهي كلية وجزئية باعتبارين .

فصل

قولكم في الوجه الثالث أن الصور العقلية الكلية مجردة وتجردها إنما هو بسبب الآخذها وهو القوة العقلية . جوابه أن يقال ما الذي تريدون بهذه الصورة العقلية الكلية ؟ أتريدون به أن المعلوم حصل في ذات العالم أو أن العلم به حصل في ذات العالم ، فالأول ظاهر الاحالة

والثاني حق الا أنه لا يفيدكم شيئاً لأن الامر الكلى المشترك بين الاشخاص الإنسانية هو الإنسانية لا العلم بها والإنسانية لا وجود لها في الخارج كلية والوجود في الخارج للبعينات فقط والعلم تابع للمعلوم فكما أن المعلوم معين فالعلم به معين لكنه صورة منطبقة على أفراد كثيرة ، فليس في الذهن ولا في الخارج صورة غير منقسمة البتة ، وكم قد غلط في هذا الموضع طوائف من العقلاء لا يحصيهم إلا الله تعالى ، فالصورة الكلية التي يشبثونها ويرعمون أنها حالة في النفس فهي صورة شخصية موصوفة بعوارض شخصية ، فبأن هذه الصورة العقلية حالة في جوهر ليس بجسم ولا جسماني فاما غير مجردة عن العوارض (فان قلتتم) مرادنا بكونها مجردة النظر اليها من حيث هي هي مع قطع النظر عن تلك العوارض .
قيل لكم فلم لا يجوز أن تكون الصورة الحالة في المحل الجسماني منقسمة وإنما تكون مجردة إذا نظرنا اليها من حيث هي هي بقطع النظر عن عوارضها .

فصل

قولكم في الرابع أن العقلية تقوى على أفعال غير متناهية ولا شيء من القوى الجسمانية كذلك . فجاوبه انا لانسلم أنها تقوى على أفعال غير متناهية .
وقولكم أنها تقوى على إدراكات لا تنتهي هي والإدراكات أفعال . مقدمتان كاذبتان فإن إدراكاتها ولو بلغت ما بلغت فهي متناهية فلو كان لها بكل نفس ألف ألف إدراكات نهايت إدراكاتها فهي قطعاً تنتهي في الإدراكات والمعارف إلى حد لا يمكنها أن تزيد عليه شيئاً كما قال تعالى (وفوق كل ذي علم علم) إلى أن ينتهي العلم إلى من هو بكل شيء عليم ، فهو الله الذي لا إله إلا هو وحده ، وذلك من خصائصه التي لا يشاركه فيها سواه .
(فان قلتتم) لو انتهى إدراكها إلى حد لا يمكنها المزيد عليه لزم انقلاب الشيء من الإمكان الذاتي ، قلنا فهذا بعينه لو صح دل على أن القوة الجسمانية تقوى على أفعال غير متناهية ، وذلك يوجب سقوط الشبهة وبطلانها .
وأيضاً فإن قوة التخيل والتفكير والتذكر تقوى على استحضار المخيلات والمذكرات إلى غير نهاية مع أنها عندكم قوة جسمانية .
(فان قلتتم) لانسلم أنها تقوى على ما لا يتناهي قيل لكم هكذا يقول خصومكم في القوة للعاقلة سواه .

وأما كذب المقدمة الثانية فإن الإدراك ليس بفعل فلا يلزم من تنهاى فعلها تنهاى إدراكها وقد صرحتم بأن الجوهر العقلي قابل لصورة المعلوم لأنها فاعل لها ، والشيء الواحد لا يكون

فاعلا وقابلا عندكم ، وقد صرحتم بأن الأجسام يتمتع عليها أفعال لانهاية لها ولا يتمتع عليها مجهولات وانفعالات لانتهائى ، وقد أورد ابن سينا على هذه الشبهة سؤالاً فقال أليس النفس الملكية المباشرة لتحريك الفلك قوة جسمانية مع أن الحركات الفلكية غير متناهية ؟ وأجاب عنه بأنها وإن كانت قوة جسمانية إلا أنها تستمد الكمال من العقل المفارق فلهذا السبب قدرت على أفعال غير متناهية .

فنقول فإذا كان الأمر عندك كذلك فلم لا يجوز أن يقال النفس الناطقة تستمد الكمال والقوة من فاطرها ومذئبها الذى له القوة جميعاً فلا جرم تقوى مع كونها جسمانية على مالا يتناها فإذا قلت بذلك وافقت الرسل والعقل ودخلت مع زمرة المسلمين وفارقت العصبة المبطلين .

فصل

(قولكم فى الخامس) لو كانت القوة العاقلة حالة فى آلة جسمانية لوجب أن تكون دائمة الإدراك لتلك الآلة أو متممة الإدراك لها فهو مبنى على أصلكم الفاسد أن الإدراك عبارة عن حصول صورة مساوية المدرك فى القرّة المدركة ، ثم لو سلمنا لكم ذلك الأصل لم يقدم شيئاً فإن حصول تلك الصورة يكون شرطاً لحصول الإدراك ، فأما أن يقول أو يقال أن الإدراك عين حصول تلك الصورة فهذا لا يقوله عاقل ، فلم لا يجوز أن يقال للقوة العقلية حالة فى جسم مخصوص ، ثم أن القوة الناطقة قد تحصل لها حالة إضافية تسمى بالشعور والإدراك فحينئذ تصير القوة العاقلة مدركة لتلك الآلة ، وقد لا توجد تلك الحالة الإضافية فتصير غافلة عنها ، وإذا كان هذا ممكناً سقطت تلك الشبهة رأساً : ثم نقول أمدعون أنا إذا عقلنا شيئاً فإن الصورة الحاضرة فى العقل مساوية لتلك المعقول من جميع الوجوه والاعتبارات ولا يجب حصول هذه المساواة من جميع الوجوه ؟ فالأول لا يقوله عاقل وهو أظهر من أن يحتاج لفساده وإذا علم أنه لا يجب المساواة من جميع الوجوه لم يلزم من حدوث صورة أخرى فى القلب أو الدماغ اجتماع المثليين .

وأيضاً فالقوة العاقلة حالة فى جوهر القلب أو الدماغ ، والصورة الحادثة حالة فى القوة العاقلة ، فأحدى صورتين محل للقوة العاقلة ^(١) وأيضاً فنحن إذا رأنا المسافة الطويلة والبعد الممتد فهل يتوقف هذا الابصار على ارتسام صورة المرئى فى عين الرأى أو لا يتوقف ؟ فإن توقف لزوم اجتماع المثليين لأن القوة الباصرة عندكم جسمانية فهى فى محل له حجم ومقدار فإذا حصل

فيه حجم المرئي ومقداره لرم اجتماع المثليين ، وإذا جاز هناك فلم لا يجوز مثله في مستلثنا ؟ وإن كان إدراك الشيء لا يتوقف على حصول صورة المرئي في الرائي بطل قولكم أن إدراك القلب والدماغ يتوقف على حصول صورة القلب والدماغ في القوة العاقلة .

وأيضاً فقولكم لو كانت القوة العقلية حالة في جسم لوجب أن تكون دائماً الإدراك لذلك الجسم لكن إدراكنا لقلبنا ودماغنا غير دائم فهذا إنما يلزم من يقول أنها حالة في القلب أو الدماغ وأما من يقول أنها حالة في جسم مخصوص وهو النفس وهي مشابهة للبدن فهذا الإلزام غير وارد عليه فإنه يقول النفس جسم مخصوص والإنسان أبدأ عالم بأنه جسم مخصوص ولا يزول ذلك عن عقله إلا إذا عرضت له الغفلة فسقطت الشبهة التي عرّلتها عليها على كل تقدير .

فصل

(قولكم في السادس) أن كل أحد يدرك نفسه ، والإدراك عبارة عن حصول ماهية المعلوم عند العالم وهذا إنما يصح إذا كانت النفس غنية عن المحل إلى آخره .

جوابه أن ذلك مبنى على الأصل المتقدم وهو أن العلم عبارة عن حصول صورة مساوية للملوم في نفس العالم ، وهذا باطل من وجوه كثيرة مذكورة في مسألة العلم ، حتى لو سلم ذلك فالصورة المذكورة شرطاً في حصول العلم لأنها نفس العلم .

وأيضاً فهذه الشبهة مع ركاكة ألفاظها وفساد مقدماتها متقوضة فإنا إذا أخذنا حجراً أو خشبة قلنا هذا جوهر قائم بنفسه ، فذاته حاضرة عند ذاته فيجب في هذه الجمادات أن تكون عالمة بذواتها .

وأيضاً فجميع الحيوانات مدركة لذراتها فلو كان كون الشيء مدركاً لذاته تقتضى كون ذاته جوهرراً مجرداً لزم كون نفوس الحيوانات بأسرها جواهر مجردة وأتم لا تقولون بذلك .

فصل

(قولكم في السابع) الواحد منا يتخيل بجرأ من زئبق وجبلا من ياقوت إلى آخره وهو شبهة أبو البركات البغدادي ، فشبهة داخضة جداً فإنها مبنية على أن تلك المتخللات أمور موجودة وأنها منطبعة في النفس الناطقة انطباع النفس في محلّه ومعلوم قطعاً أن هذه المتخللات لاحقة لما في ذاتها وإنما الذهن يفرضها تقديراً وليست منطبعة في النفس فإن العلوم الخارجية لا يتطبع صورها في النفس فكيف بالخيالات المعدومة ؟ فهذه مندحضة ولا يمنع من وقوع

التمييز بين الاعدام المضافة فإن العقل يميز بين عدم السمع وعدم البصر وعدم الشم وغير ذلك ولا يلزم من هذا التمييز كون هذه الاعدام موجودة ، بل يميز بين أنواع المستحيلات التي لا يمكن وجودها البتة . ثم نقول إذا عقل حلول الأشكال والمقادير فيما كان مجرداً عن الحجمية والمقدار من كل الوجوه أفلا يعقل حلول العلم بالشكل العظيم والمقدار العظيم في الجسم الصغير؟ وأيضاً فإذا كان عدم الانطباق من جميع الوجوه لا يمنع من حلول الصورة والشكل في الجوهر المجرد فعدم انطباق العظيم على الصغير أولى أن لا يمنع من حلول الصورة العظيمة في المحل الصغير . وأيضاً فإن سلفكم من الأوائل أقاموا الدليل على أن انطباق الصورة الحاملة في الجوهر المجرد محال وذكروا له وجوها .

فصل

(قولكم في الثامن) لو كانت القوة العقلية جسدانية اضعفت في زمن الشيخوخة وليس كذلك جوابه من وجوه :

(الوجه الاول) لم يجوز أن يقال القدر المحتاج إليه من صحة البدن في كمال القدرة العقلية مقدار معين ، وأما كمال حال البدن في الصحة فانه غير معتبر في كمال حال القوة العقلية ، وإذا احتل ذلك لم يبعد أن يقال ذلك القدر المحتاج إليه باق إلى آخر الشيخوخة فبقى العقل إلى آخرها .

(الوجه الثاني) أن الشيخ لعله إنما يمكنه أن يستمر في الإدراكات العقلية على الصحة أن عقله يبقى ببعض الأعضاء التي يتأخر الفساد والاستحالة إليها فاذا انتهى إليها الفساد والاستحالة فسد عقله وإدراكه .

(الوجه الثالث) أنه لا يمتنع أن يكون بعض الامزجة أوفق لبعض القوى ، فلعل مزاج الشيخ أوفق للقوة العقلية فهذا السبب أقوى فيه القوة العاقلة .

(الوجه الرابع) أن المزاج إذا كان في غاية القوة والشدّة كانت سائر القوى قوية فتكون القوة الشهوانية والفضيية قوية جداً وقوة هذه القوى تمنع العقل من الاستكمال ، فإذا حصلت الشيخوخة وحصل الضعف حصل بسبب الضعف ضعف في هذه القوى المانعة للعقل من الاستكمال وحصل في العقل أيضاً ضعف ولكن بعد ما حصل في العقل من الضعف حصل ذلك في أضداده فينجبر نقصان من أحد الجانبين بالنقصان من الجانب الآخر فيقع الاعتدال .

(الوجه الخامس) أن الشيخ حفظ العلوم والتجارب الكثيرة ومارس الأمور ودربها

وكثرت تجاربه ، وهذه الاحوال تعينه على رجوه الفكر وقوة النظر فقام ^(١) التقصان الحاصل بسبب ضعف البدن والقوى .

(الوجه السادس) أن كثرة الأفعال بسبب حصول الملل والراحة فصارت الزيادة الحاصلة بهذا الطريق جابراً للتقصان الحاصل بسبب اختلال البدن .

(الوجه السابع) أنه قد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال يهرم ابن آدم وتشب فيه خصتان الحرص وطول الأمل . والواقع شاهد لهذا الحديث مع أن الحرص والأمل من القوى الجسمانية والصفات الخيالية ثم أن ضعف البدن لم يوجب ضعف هاتين الصفتين فعمل أنه لا يلزم من اختلال البدن وضعفه ضعف الصفات البدنية .

(الوجه الثامن) أنا نرى كثيراً من الشيوخ يصيرون إلى الخرف وضعف العقل بل هذا هو الأغلب ويدل عليه قوله تعالى (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً) فالشيخ في أرذل عمره يصير كالطفل أو أسوأ حالاً منه وأما من لم يحصل له ذلك فإنه لا يرد إلى أرذل العمر .

(الوجه التاسع) أنه لا تلازم بين قوة البدن وقوة النفس ولا بين ضعفه وضعفها فقد يكون الرجل قوى البدن ضعيف النفس جباناً خواراً وقد يكون ضعيف البدن قوى النفس فيكون شجاعاً مقداماً على ضعف بدنه .

(الوجه العاشر) أنه لو سلم لكم ما ذكرتم لم يدل على كون النفس جوهرًا مجرداً لا داخل العالم ولا خارجه ولا هي في البدن ولا خارجه عنه لأنها إذا كانت جسماً صافياً مشرقاً سماوياً مخالفاً للأجسام الأرضية لم تقبل الانحلال والذبول والتبدل كما تقبله الأجسام المتحلة الأرضية فلا يلزم من حصول الانحلال والذبول في هذا البدن حصولها في جوهر النفس .

فصل

(قولكم في التاسع) أن القوة العقلية غنية في أفعالها عن الجسم وما كان غنياً عن الجسم في أفعالها كان غنياً عنه في ذاته إلى آخره . جوابه أن يقال لا يلزم من ثبوت حكم في قوة جسمانية ثبوت مثل ذلك الحكم في جميع القوى الجسمانية وليس معكم غير الدعوى المجردة والقياس القاسد .

^(١) كذا ولعله فقام مقام .

وأيضاً فالصور والأعراض محتاجة إلى عملها وليس احتياجها إلى تلك المحال إلا مجرد ذواتها ولا يلزم من استقلالها بهذا الحكم استغناؤها في ذواتها عن تلك المحال فلا يلزم من كون الشيء مستقلاً باقتضاء حكم من الأحكام أن يكون مستثنياً في ذاته عن المحال والله أعلم .

فصل

(قولكم في العاشر) أن القوة الجسمانية تتكلم بكثرة الأفعال ولا تقوى على القوى بعد الضعف إلى آخره جوابه أن القوة الخيالية جسمانية ثم إنها تقوى على تخيل الأشياء العظيمة مع تخيلها الأشياء الحقيرة فإنها يمكنها أن تتخيل الشعلة الصغيرة حال ما تخيل الشمس والقمر . وأيضاً فإن الابصار القوية القاهرة تمنع ابصار الأشياء الضعيفة ، فكذلك نقول العقول العظيمة العالية تمنع تفعل المعقولات الضعيفة فان المستغرق في معرفة جلال رب الأرض والسموات وأسمائه وصفاته يتمتع عليه في تلك الحال الفكر في ثبوت الجوهر الفرد وحقيقته .

فصل

(قولكم في الحادى عشر) انا إذا حكمتنا بأن السواد مضاد للبياض وجب أن يحصل في الذهن ماهية السواد والبياض معاً والبداهة حاكمة بأن اجتماعهما في الجسم محال . جوابه أن هذا مبنى على أن من أدرك شيئاً فقد حصل في ذات المدرك صورة مساوية للمدرك ، وهذا باطل واستدلنا لكم على صحته بانطباع الصورة في المرآة باطل فان المرآة لم ينطبع فيها شيء البتة كما يقوله جمهور العقلاء من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم والقول بالانطباع باطل من وجوه كثيرة ثم نقول إذا كنتم قد قلتم ان المتطبع في النفس عند إدراك السواد والبياض رسومهما ومثالها لاحتقيتهما فلم لا يجوز حصول رسوم هذه الأشياء في المادة الجسمانية ؟

فصل

(قولكم في الثانى عشر) أنه لو كان محل الإدراكات جسماً وكل جسم منقسم لم يمنع أن يقوم ببعض أجزاء الجسم علم بالشيء ، وبالأجزاء الأخر منه جهل به فيكون الإنسان عالماً بالشيء جاهلاً به في وقت واحد . جوابه أن هذه التشبيه منتقضة على أصولكم فإن الشهوة والغضب والتخيل من الأحوال الجسمانية عندكم ومحلها منقسم فلزمكم أن تجوزوا قيام الشهوة والغضب بأحد الجزأين وضدهما بالأجزاء الأخر فيكون مشتبهاً للشيء نافرأ عنه غضبان عليه غير غضبان في وقت واحد .

فصل

(قولكم في الثالث عشر) ان المادة الجسمانية إذا حصلت فيها نقوش مخصوصة امتنع فيها حصول مثلها والنفوس البشرية بصد ذلك . إلى آخره .

(جوابه) ان غاية هذا أن يكون قياسا ممتازا بغير جامع وذلك لا يفيد الظن فضلا عن اليقين فان النقوش العقلية هي العلوم والادراكات والنقوش الجسمانية هي الاشكال والصور ولا ريب أن العلوم مخالفة بمخاطبتها للصور والاشكال ولا يلزم من ثبوت حكم في نوع من أنواع الماهيات ثبوته فيما يخالف ذلك النوع .

فصل

(قولكم في الرابع عشر) لو كانت النفس جسما لكان بين تحريك المحرك رجله وبين إرادته للحركة زمان . إلى آخره .

(جوابه) ان النفس مع الجسد لا تخلو من ثلاثة أحوال ، إما أن تكون لابسة لجميعة من خارج كالثوب ، أو تكون في موضع واحد كالقلب والدماغ أو تكون سارية في جميع أجزاء الجسد . وعلى كل تقدير من هذه التقادير فتحريكها لما تريد تحريكه يكون مع إرادتها لذلك بلا زمان كأدراك البصر لما يلاقيه وإدراك السمع والشم والذوق ، وإذا قطع العضو لم ينقطع ما كان من جسم النفس متجلا لذلك العضو سواء كانت لابسة له من داخل أو من خارج بل تفارق العضو الذي بطل حسه في الوقت وتمتاض عنه بلا زمان ويكون مفارقتها لذلك العضو كنفارقة الهواء للأناء إذا ملئ ماء . وأما إن كانت النفس ساكنة في موضع واحد من البدن لم يلزم أن تبين مع العضو المقطوع . وأما إن كانت لابسة للبدن من خارج لم يلزم أن يكون بين إرادتها لتحريكه ونفس التحريك زمان بل يكون فعلها حينئذ في تحريك الأعضاء كفعل المغناطيس في الحديد وإن لم يلاصقه .

ثم نقول هذا الهديان الذي شغلتم به الزمان وارد عليكم بعينه فانها عندكم غير متصلة بالبدن ولا منفصلة عنه ولا داخلة فيه ولا خارجة عنه فيلزمكم مثل ذلك .

فصل

(قولكم في الخامس عشر) لو كانت جسما لكانت منقسمة واصلح عليها أن تعلم بعضها وتجهل بعضها فيكون الانسان عالما ببعض نفسه جاهلا بالبعض الآخر .

(جوابه) أن هذه الشبهة مركبة من مقدمتين تلازمية واستثنائية والمنع واقع في كلا المقدمتين أو لإحدهما فلانسلم أنها لو كانت جسما لصح أن تعلم بعضها وتجهل بعضها فان النفس بسيطة غير مركبة من هذه العناصر ولا من الأجزاء المختلفة فتى شعرت بذاتها شعرت بجهلها . فهذا منع المقدمة التلازمية .

وأما الاستثنائية فلانسلم أنها لا يصح أن تعلم بعضها حال غفلتها عن البعض الآخر ولم تذكروا على بطلان ذلك شبهة فضلا عن دليل ، ومن العلوم أن الإنسان قد يشعر بنفسه من بعض الوجوه دون كلها ويتفاوت الناس في ذلك فمنهم من يكون شعوره بنفسه أتم من غيره بدرجات كثيرة وقد قال تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) فهؤلاء نسوا نفوسهم لامن جميع الوجوه بل من الوجه الذي به مصالحها وكآلهها وسعادتها وإن لم ينسوها من الوجه الذي منه شهوتها وحظها وإرادتها فأنساهم مصالح نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها ، وهيوبها ونقائصها أن يزيلوها ويحتملونها وكآلهما الذي خلقت له أن يعرفوه ويطلبوه ، فهم جاهلون بمحقق أنفسهم من هذه الوجوه وإن كانوا عالمين بها من وجوه آخر .

فصل

(قولكم في السادس عشر) لو كانت النفس جسما لوجب ثقل البدن بدخولها فيه لأن من شأن الجسم إذا زدت عليه جسما آخر أن يثقل به .

فهذه شبهة في غاية الثقله والمحتج بها أنقل وليس كل جسم زيد عليه جسم آخر ثقله فهذه الخشبة تكون ثقيلة فاذا زيد عليها جسم النار خفت جدا . وهذا الظرف يكون ثقيلًا فاذا دخله جسم الهواء خف . وهذا إنما يكون في الأجسام الثقال التي تطلب المركز والوسط بطبعها وهي تتحرك بالطبع اليه ، وأما الأجسام التي تتحرك بطبعها إلى العلو فلا يعرض لها ذلك بل الأمر فيها بالضد من تلك الأجسام الثقال بل إذا أضيفت إلى جسم ثقيل أكسبته الخفة وقد أخذ هذا المعنى بعضهم فقال :

ثقلت زجاجات أتننا فرغا حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت وكذا الجسم تخف بالأرواح

فصل

(قولكم في السابع عشر) لو كانت النفس جسما لكانت على صفات سائر الأجسام التي لا تحظر منها من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والنعومة والخشونة

إلى آخره . شبهة فاسدة وحجة داخضة فانه لايجب اشتراك الاجسام في جميع الكيفيات والصفات وقد فاوت الله سبحانه بين صفاتها وكيفياتها وطبائعها منها ما يرى بالبصر ويلس باليد ، ومنها ما لا يرى ولا يلس ، ومنها ما له لون ومنها ما لا لون له ، ومنها ما يقل الحرارة والبرودة ، ومنها ما يقبله ، على أن للنفس من الكيفيات المختصة بها ما لا يشاركها فيها البدن ولها خفة وثقل وحرارة وبرودة ويبس ولين بحسبها وأنت تجد الانسان في غاية الثقالة وبدنه نحيل جداً وتجد في غاية الخفة وبدنه ثقيل وتجد نفساً لينة وادعة ونفساً يابسة قاسية ، ومن له حس سليم يشم رائحة بعض النفوس كالجيفة المنتنة ورائحة بعضها أطيب من ريح المسك ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا مر في طريق بقي أثر رائحته في الطريق ويعرف أنه مر بها وتلك رائحة نفسه وقلبه ، وكانت رائحة عرقه من أطيب شيء وذلك تابع لطيب نفسه وبدنه وأخبر وهو أصدق البشر أن الروح عند المفارقة يوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض أو كأستن ریح جيفة وجدت على وجه الأرض . ولولا الزكام الغالب لشم الحاضرون ذلك على أن كثيراً من الناس يجد ذلك وقد أخبر به خير واحد ويكفي فيه خير الصادق المصدوق ، وكذلك أخبر بأن أرواح المؤمنين مشرقة وأرواح الكفار سود .

وبالجملة فكيفيات النفوس أظهر من أن ينكرها إلا من هو من أجهل الناس بها .

فصل

(قولكم في الثامن عشر) لو كانت النفس جسماً لوجب أن تقع تحت جميع الحواس أو تحت حاسة منها . إلى آخره .

لجوابه منع اللزوم فانكم لم تذكروا عليه شبهة فضلاً عن دليل ، ومنع اتقاء اللازم فان الروح تدرك بالحواس فتلس وترى وتشم لها الرائحة الطيبة والخبثية كما تقدم في النفوس المستفيضة ولكن لانشاهد نحن ذلك ، وهذا الدليل لا يمكن عن يصدق الرجل أن يحتاج به فان الملك جسم ولا يقع تحت حاسة من حواسنا ، وكذلك الجن والشياطين أجسام لطاف لا تقع تحت حاسة من حواسنا ، والاجسام متفاوتة في ذلك متفاوتاً كثيراً ، فمنها ما يدرك ما كثر الحواس ، ومنها ما لا يدرك بأكثرها ، ومنها ما يدرك بحاسة واحدة ، ومنها ما لا ندركه نحن في الغالب وإن أدرك في بعض الاحوال لسكونه لم يخلق لنا إدراكه أو لمنايع يمنع من إدراكه أو للطفه عن إدراك حواسنا ، فاعدم اللون من الاجسام لم يدرك بالبصر كالهواء والنار في عنصرها ، وما عدم الرائحة لم يدرك بالشم كالنار والحصى والزجاج ، وما عدم الجملة لم يدرك باللمس كالهواء الساكن .

وأيضاً فالروح هي المدركة لمدارك هذه الحواس بواسطة آلياتها فالنفس هي الحاسة المدركة وإن لم تكن محسوسة فالأجسام والأعراض محسوسة والنفس محسوسة بها ، وهي القابلة لأعراضها المتعاقبة عليها من الفضائل والردائل كقبول الأجرام لأعراضها المتعاقبة عليها ، وهي المتحركة باختيارها المحركة للبدن قسراً وقهراً . وهي مؤثرة في البدن متأثرة به تألم وتلذذ وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتتم وتبأس وتحب وتكره وتذكر وتنسى وتصمد وتنزل وتعرف وتنكر ، وآثارها من أدل الدلائل على وجودها كما أن آثار الخالق سبحانه دالة على وجوده وعلى كماله فان دلالة الأثر على مؤثره ضرورية .

وتأثيرات النفوس بعضها في بعض أمر لا ينكره ذو حس سليم ولا عقل مستقيم ولا سيما عند تجردها نوع تجرد عن العلائق والعوائق البدنية فإن قواها تتضاعف وتزيد بحسب ذلك ولا سيما عند مخالفة هواها وحملها على الأخلاق العالية من العفة والشجاعة والعدل والسخاء وتجنبها سفاسف الأخلاق وردائها وسافلها فان تأثيرها في العالم يقوى جداً تأثيراً يعجز عنه البدن وأعراضه أن تنظر^(١) إلى حجر عظيم فتشقه أو حيوان كبير فتلتفه أو إلى نعمة فتزيلها وهذا أمر قد شاهدته الأمم على اختلاف أجناسها وأديانها وهو الذي سمي إصابة العين فيضيفون الأثر إلى العين وليس لها في الحقيقة وإنما هو النفس المتكيفة بكيفية ردية سميعة ، وقد تكون بواسطة نظر العين وقد لانكون بل يوصفه الشيء من بعيد فتكيف عليه نفسه بتلك الكيفية فتفسده وأنت ترى تأثير النفس في الأجسام صفرة وحمرة وارتعاشاً بمجرد مقابلتها لها وقوتها وهذه وأضعافها آثار خارجة عن تأثير البدن وأعراضه فالبدن لا يؤثر إلا فيما لا فاه وماسه تأثيراً مخصوصاً ولم تنزل الأمم تشهد تأثير الهمم الفعالة في العالم وتستعين بها وتحذر أثرها وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يغسل العائن مغابته ومواقع القدر منه ثم يصب ذلك الماء على المعين فانه يزيل عنه تأثير نفسه فيه وذلك بسبب أمر طبعي اقتضته حكمة الله سبحانه فان النفس الأمانة لها بهذه المواضع تعلق والف والأرواح الحبيثة الخارجية تساعدها وتآلف هذه المواضع غالباً للنسابة بينها وبينها فاذا غسلت بالماء طفت تلك النارية منها كما يطفأ الحديد المحمى بالماء فاذا صب ذلك الماء على المصاب طفا عنه تلك النارية التي وصلت إليه من العائن وقد وصف الأطباء الماء الذي يطفأ فيه الحديد لآلام وأوجاع معروفة وقد جرب الناس من تأثير الأرواح بعضها في بعض عند تجردها في المنام مجازب تفوت الحصر وقد نبهنا على بعضها فيما مضى فعالم الأرواح عالم آخر أعظم من عالم الأبدان وأحكامه وآثاره

(١) لعله كان تنظر إذ العبارة لا تستقيم بلفظ ان .

أعجب من آثار الأبدان بل كل ما في العالم من الآثار الانسانية فانما هي من تأثير النفوس بواسطة البدن فالنفوس والأبدان يتعاونان على التأثير تعاون المشتركين في الفعل وتفرد النفس بآثار لا يشاركها فيها البدن ولا يكون للبدن تأثير لا تشاركه فيه النفس .

فصل

(قولكم في التاسع عشر) لو كانت النفس جسماً لكانت ذات طول وعرض وعمق وشكل وسطح وهذه المقادير لا تقوم إلا بمادة . إلى آخره .

(جوابه) أنا نقول قولكم هذه المقادير لا تقوم إلا بمادة قلنا وكان ماذا والنفس لها مادة خلقت منها وجعلت على شكل معين وصورة معينة .

(قولكم) مادتها ان كانت نفساً لزم اجتماع نفسين وإن كانت غير نفس كانت مركبة من بدن وصورة .

(قلنا) مادتها ليست نفساً كما أن مادة الإنسان ليست إنساناً ومادة الجن ليست جنّاً ومادة الحيوان ليست حيواناً .

(قولكم) يلزم كرن النفس مركبة من بدن وصورة . مقدمة كاذبة وإنما يلزم كون النفس مخلوقة من مادة ولها صورة معينة وهكذا نقول سواء ولم تذكروا على بطلان هذا شبهة فضلاً عن حجة ظنية أو قطعية .

فصل

(قولكم في الوجه العشرين) أن خاصة الجسم أن يقبل التجزى وأن الجزء الصغير منه ليس كالسكبير فلو قبلت التجزى فكل جزء منها ان كان نفساً لزم أن يكون للإنسان نفوس كثيرة وإن لم يكن نفساً لم يكن المجموع نفساً .

(جوابه) إن أردتم أن كل جسم يقبل التجزى في الخارج فكذب ظاهر فان الشمس والقمر والكواكب لا تقبل ذلك ولا يلزم أن كل جسم يصح عليه التجزى والتبعض في الخارج ، أما على قول نفاة الجوهر الفرد فظاهر وأما على قول مثبتيه فانه عندهم جوهر متحيز لا يصح عليه قبول الانقسام ، سلنا أنها تقبل الانقسام فأى شيء يلزم من ذلك ؟

(قولكم) إن كان كل جزء من تلك الاجزاء نفساً لزم اجتماع نفوس كثيرة في الإنسان .

(قلنا) إنما يلزم ذلك لو انقسمت النفس بالفعل إلى نفوس كثيرة وهذا محال .

(قولكم) وإن لم يكن كل جزء نفساً لم يكن المجموع نفساً . مقدمة كاذبة منتقضة فكما ماهية ثبت لها حكم عند اجتماع أجزائها فإن ذلك الحكم كاهية البيت والإنسان والعشرة وغيرها .

فصل

(قولكم في الوجه الحادى والعشرين) أن الجسم يحتاج في قوامه وبقائه وحفظه إلى نفس أخرى ويلزم التسلسل .

(جوابه) أنه يلزم من افتقار البدن إلى نفس تحفظه افتقار النفس إلى نفس تحفظها وهل ذلك إلا بمجرد دعوة كاذبة مستندة إلى قياس قد تبين بطلانه فإن كل جسم لا يصير إلى نفس تحفظه كأجسام المعادن وجسم الهواء والماء والنار والتراب وأجسام سائر الجادات .
(فان قلت) ان هذه ليست أحياء ناطقة بخلاف النفس فانها حية ناطقة .

(قلنا) حينئذ يبقى الدليل هكذا أى كل جسم حتى ناطق يحتاج في حفظه وقيامه إلى نفس تقوم به ، وهذه دعوى مجردة وهى كاذبة فإن الجن والملائكة أحياء ناطقون وليسوا مفتقرين في قيامهم إلى أرواح أخر تقوم بهم .

(فان قلت) وكلامنا معكم في الجن والملائكة فانهم ليسوا بأجسام متحيزة .
(قلنا) الكلام مع من يؤمن باق و ملائكته وكتبه ورسله . وأما من كفر بذلك فالكلام معه في النفس ضائع ، وقد كفر بفطر النفس ومبدعها وملائكته وما جاءت به رسله وكان تاركاً مادد عليه العيان مع دلائل الإيمان فان الآثار المشهودة في العالم من تأثيرات الملائكة والجن باذن ربهم لا يمكن إنكارها ، وهى موجودة بنفسها ، ولا تقدر عليها القوى البشرية .

فصل

(قولكم في الثانى والعشرين) لو كانت جسام السكان اتصالحا بالبدن إن كان على سبيل المداخلة لوم تداخل الأجسام وإن كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان للانسان الواحد جسمان متلاصقان أحدهما يرى والآخر لا يرى .
جوابه من وجوه :

(أحدهما) أن تداخل الأجسام المحال أن يتداخل جسمان كئيفان أحدهما في الآخر بحيث يكون حيزهما واحداً وأما أن يدخل جسم لطيف في كئيف يسرى فيه فهذا ليس بمحال .
(الثانى) أن هذا باطل بصور كثيرة منها دخول الماء في العود والسحاب ودخول النار في الحديد ودخول الغذاء في جميع أجزاء البدن ودخول الجن في المصروع فالروح للطاقتها لا يمتنع عليها مشاركة البدن والدخول في جميع أجزائه .

(الثالث) أن حيز النفس البدن وحيزه مكانه المنفصل عنه وهذا ليس بتداخل بمتبع فإذا تارقت صار لها حيز آخر غير حيزه وحينئذ فلا يتداخلان بل يصير لكل منهما حيز يخصه ، وبالجمله فدخل الروح في البدن اللطف من دخول الماء في الترى والدهن في البدن، فهذه الشبهة الفاسدة لا يعارض بها ما دل عليها نصوص الوحى والأدلة العقلية . وبالله التوفيق .

المسألة العشرون

وهى هل النفس والروح شئ واحد أو شيان متغايران ؟ فاختلف الناس في ذلك .
(فن قائل) ان مساهما واحد وهم الجمهور .
(ومن قائل) انهما متغايران . ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته فنقول النفس تطلق على أمور :

(أحدها) الروح قال الجوهري النفس الروح يقال خرجت نفسه قال أبو خراش :
نجا سالما والنفس منه بشدقه ولم ينبج إلا جفن سيف ومثزر
أى بجفن سيف ومثزر (والنفس والدم) يقال سالت نفسه وفى الحديث مالا نفس له
سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه (والنفس الجسد) .
قال الشاعر :

نبئت أن بنى تميم أدخلوا أبناءهم تامور نفس المنذر

والتامور الدم (والنفس العين) يقال أصابت فلانا أى عين .
(قلت) ليس كما قال بل النفس هاهنا الروح ونسبة الإضافة الى العين توسع لأنها تكون
بواسطة النظر المصيب والذى أصابه انما هو نفس العائن كما تقدم .

(قلت) والنفس فى القرآن تطلق على الذات بجملتها كقوله تعالى (فصلوا على أنفسكم)
وقوله تعالى (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) وقوله تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة)
وتطلق على الروح وحدها كقوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة) وقوله تعالى (أخرجوا
أنفسكم) وقوله تعالى (ونهى النفس عن الهوى) وقوله تعالى (إن النفس لأمارة بالسوء) .
وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس ، وتطلق الروح على القرآن
الذى أوحاه الله تعالى إلى رسوله قال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) .
وعلى الوحى الذى يوحىه إلى أنبيائه ورسله قال تعالى (يلقى الروح من أمره على من

يشاء من عباده ليندر يوم التلاق) وقال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وسمى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة فان الحياة بدونها لاتنفع صاحبها البتة بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة .

وسميت الروح روحاً لأن بها حياة البدن وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة وهي من ذوات الوار ولهذا نجتمع على أرواح قال الشاعر :

إذا ذهبت الأرواح من نحو أروضكم وجسدت لمسرها على كبدى بردا

ومنها الروح والريحان والاستراحة . فسميت النفس روحاً لحصول الحياة بها ، سميت نفساً إما من الشيء النفيس لنفساتها وشرفها ، وإما من نفس الشيء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفساً ، ومنه النفس بالتحريك ، فان العبد كلما نام خرجت منه فإذا استيقظ رجعت إليه فإذا مات خرجت خروجاً كلياً فإذا دفن عادت إليه فإذا سئل خرجت فإذا بعث رجعت إليه .

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لافرق بالذات ، وإنما سمي الدم نفساً لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلزم خروج النفس وان الحياة لاتتم إلا به كما لاتتم إلا بالنفس فلهذا قال :

تسيل على حد الظبابة نفوسنا وليست على غير الظبابة تسيل

ويقال فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه كما يقال خرجت روحه وفارقت ولكن الفيض الاندفاع وهلة واحدة ومنه الإفاضة وهي الاندفاع بكثرة وسرعة لكونه أفاض إذا دفع باختياره وإرادته وفاض إذا اندفع قسراً وقهراً فأنه سبحانه هو الذي يفيضه عند الموت فتفيض هي .

فصل

(وقالت) فرقة أخرى من أهل الحديث والفقه والتصوف الروح غير النفس ، قال مقاتل بن سليمان للانسان حياة بروح ونفس فاذا نام خرجت نفسه التي يعقل بها الاشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كجبل عمده له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه وتبقى الحياة والروح في الجسد فيه يتقلب ويتنفس فاذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفه عين فاذا أراد الله عز وجل أن يمته في المنام امسك تلك النفس التي خرجت ، وقال أيضاً إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق فاذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح ويخبر الروح فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت .

(قال) أبو عبد الله بن منده ثم اختلفوا في معرفة الروح والنفس فقال بعضهم النفس طينية نارية والروح نورية روحانية .

(وقال) بعضهم الروح لاهوتية والنفس ناسوتية وان الخلق بها ابتلى .

(وقالت طائفة) وهم أهل الاثر أن الروح غير النفس والنفس غير الروح وقوام النفس بالروح ، والنفس صورة العبد ، والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها ولا عذر أعدى لابن آدم من نفسه . فانفس لا يراد إلا الدنيا ولا تحب إلا إياها . والروح تدعو إلى الآخرة وتؤثرها ، وجعل الهوى تبعاً للنفس ، والشيطان تبع النفس والهوى ، والملك مع العقل والروح ، والله تعالى يدمهما بالهامه وتوفيقه .

(وقال بعضهم) الأرواح من أمر الله أخفى حقيقةها وعلها على الخلق .

(وقال بعضهم) الأرواح نور من نور الله وحياة من حياة الله .

ثم اختلفوا في الأرواح هل تموت بموت الأبدان والأنفس أو لا تموت ؟

(فقالت طائفة) الأرواح لا تموت ولا تبلى .

(وقالت جماعة) الأرواح على صور الخلق لها أيد وأرجل وأعين وسمع وبصر ولسان .

(وقالت طائفة) للؤمن ثلاثة أرواح ، وللنافق والكافر روح واحدة .

(وقال بعضهم) للأنبياء والصدّيقين خمس أرواح .

(وقال بعضهم) الأرواح روحانية خلقت من الملكوت ؛ فإذا صفت رجعت إلى

الملكوت .

(قلت) أما الروح التي تتوفى وتقبض فهي روح واحدة ، وهي النفس .

وأما ما يؤيد الله به أوليائه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح كما قال تعالى (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) وكذلك الروح الذي أيد بها روحه المسيح ابن مريم كما قال تعالى (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدك بروح القدس) وكذلك الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن .

وأما القوى التي في البدن فانها تسمى أيضاً أرواحاً فيقال الروح الباصر والروح السامع والروح الشام ، فهذه الأرواح قوى مودعة في البدن تموت بموت الأبدان ، وهي غير الروح التي لا تموت بموت البدن ولا تبلى كما يبلى ، ويطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة

المعرفة باقته والإجابة اليه ومحبه وانبعثت الهمة إلى طلبه وإرادته . ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن ، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه ، وهي الروح التي يؤيد بها أهل ولايته وطاعته ، ولهذا يقول الناس فلان فيه روح ، وفلان مافيه روح وهو بو وهو قصبه فارغة ونحو ذلك .

فالمرواح ، والاحسان روح ، والالاخلاص روح ، وللمحبة والإجابة روح ، والتوكل والصدق روح ، والناس متفارتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت فتنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً ، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً . والله المستعان .

المسألة الحادية والعشرون

وهي هل النفس واحدة أم ثلاث ؟

فقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس ، نفس مطمئة ، ونفس لوامة ، ونفس أمارة ، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى ، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى (يا أيها النفس المطمئة) بقوله تعالى (لأقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة) بقوله تعالى (إن النفس لأماراة بالسوء) والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم فتسمى مطمئة باعتبار طمأننتها إلى ربها بعبوديته ومحبه والإجابة اليه والتوكل عليه والرضا به والسكون اليه ، فان سمة محبه وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه ، فيستغنى بمحبته عن حب ماسواه وبذكرة عن ذكر ماسواه والشوق اليه وإلى لقاءه عن الشوق إلى ماسواه ، فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجتمع عليه ، وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به ويبصر به ويتحرك به ويبطش به ، فتسرى تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله ، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه ، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكرة وهو كلامه الذي أنزله على رسوله كما قال تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فان طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه ، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره البتة ، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز قضى الله سبحانه وتعالى قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق

والانزعاج والاضطراب من جهته كائنا من كان ، بل لو اطمأن العبد إلى عله وحاله وعمله
سلبه وزايله ، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضها بسهام البلاء ليعلم
عباده وأولياؤه أن המתاع بغيره مقطوع والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده
مصدود وممنوع .

وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئة أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته
ونعوت كاله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله فتلقاه بالبول ،
والتسليم ، والاذعان ، وانشراح الصدر له ، وفرح القلب به ؛ فإنه معرف من معرفات
الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله ، فلا يزل القلب في أعظم القلق والاضطراب في
هذا الباب حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه ، وتكلمه
بالوحي بشاشة قلبه ، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش ، فيطمئن
إليه ، ويسكن إليه ، ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به
الرسول ، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رطوبة الشمس في الظهيرة لعينه فلو عالفه في ذلك من بين
شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم وقال إذا استرحش من الغربة قد كان الصديق
الأكبر مطمئناً بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض يخالفه وما نقص ذلك من طمأنينته شيئاً
فهذا أول درجات الطمأنينة ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه
وهذا أمر لانهاية له فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي قام عليه بناؤه ، ثم يطمئن إلى
خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك
كله عياناً وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال (وبالآخرة
هم يوقنون) فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها
طمأنينته إلى الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب ، فهذا هو المؤمن حقاً باليوم الآخر كما في
حديث حارثة أصبحت مؤمناً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن لكل حق حقيقة فإ
حقيقة إيمانك ؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا وأهلها وكأنني أنظر إلى عرش ربي بارزاً وإلى أهل
الجنة يتزاورون فيها وأهل النار يمدبون فيها ، فقال : عبد نور الله قلبه .

فصل

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها
وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجهه من آثار العبودية ، مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان
به يقتضى الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولاقدرة له على دفعها فيسلم

لها ويرضى بها ولا يسيخظ ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه فلا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما آتاه لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق كما قال تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وقال تعالى (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال غير واحد من السلف هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم ، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها ، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومرتعلقاتها كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة فهذه طمأنينة الإيمان .

وأما طمأنينة الاحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امثالاً وإخلاصاً ونصحاً فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليداً فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوسوس التي لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها ، فهذا كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم صريح الإيمان ، وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الامرين وباشر قلبه آثارهما فالتوبة طمأنينة تقابل مآتي المعصية من الانزعاج والقلق ولوقتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب وإنما يوارى عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة فإن اكل شهوة سكرأ يزيد على سكر الخمر ، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر ، وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والاعراض إلى سكون الاقبال على الله وحلاوة ذكره وتعلق الروح بحبه ومعرفته فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبداً ولو أنصفت نفسها لرأيتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب ولكن يوارىها السكر فإذا كثف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه .

فصل

وها هنا سر لطيف يجب التنبيه عليه والتنبه له والتوفيق له بيد من أزهة التوفيق بيده وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الانسان كالا إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كاله الذي جعل له مثاله كالعين بالبصير ، وكال الاذن بالسمع ، وكال اللسان بالنطق ، فإذا عذمت هذه الاعضاء القوي التي بها كاله حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك ؛ وجعل كال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه وإرادته ومحبه والانابة

اليه والاقبال عليه والشوق اليه والانس به ، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابا واضطر ابان العين التي فقدت النور والبصر ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق ، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال الابان يكون الله وحده هو محبوه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه وان يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك ، فحقيقة الامر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين ، وأقوال المفسرين في الطمأنينة ترجع إلى ذلك ، قال ابن عباس رضى الله عنهما المطمئنة المصدقة ، وقال قتادة هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله ، وقال الحسن المصدقة بما قال الله تعالى وقال مجاهد هي النفس التي أيقنت بأن الله ربها المسلمة لامر فما هو فاعل بها وروى منصور عنه قال النفس التي أيقنت ان الله ربها وخررت (١) جاشا لآمره وطاعته وقال ابن أبي نجيم عنه النفس المطمئنة الختة إلى الله ، وقال أيضا هي التي أيقنت ببقاء الله فكلام السلف في المطمئنة يدور على هذين الاصلين طمأنينة السلم والإيمان وطمأنينة الإرادة والعمل .

فصل

فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين ومن الجهل إلى العلم ومن الغفلة إلى الذكرو من الحيانة إلى التوبة ومن الرثاء إلى الاخلاص ومن الكذب إلى الصدق ومن العجز إلى الكيس ومن صولة العجب إلى ذلة الاخبات ومن التيه إلى التواضع ومن الفتور إلى العمل فقد باشرت روح الطمأنينة ، وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة فهي أول مفاتيح الخير فإن العاقل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعادته بمزلة النائم بل أسوأ حالا منه ؟ فان العاقل يعلم وعد الله ووعيده وماتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ويقعده عن الاستدراك سنة القلب وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده ، وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات فاشتد اخلاصه وركوده ، وانغمس في غمار الشهوات ، واستولت عليه العادات ومخالطة أهل البطالات ، ورضى بالتشبه بأهل اضاعة الاوقات ، فهو في رقاد مع النائمين ، وفيسكرته مع الخمورين ، ففتى انكشف عن قلبه سنة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق في قلبه استجاب فيها لواعد الله في قلب عبده المؤمن ، أو همة عليه أثارها معول الفكر في المحل القابل فضرب بمعول فكره وكبر تكبيرة اصنام له منها قصور الجنة فقال :

الا يا نفس ويحك ساعديني بسعى منك في ظلم الليالي
لعلك في القيامة أن تفوزي بطيب العيش في تلك العلالى

(١) هكذا ولعله سكنت أو بردت .

فانارت تلك الفكرة نورا رأى في ضوءه ما خلق له وما سيقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار ، ورأى سرعة انقضاء الدنيا وعدم وقاها لذبيها وقتلها لعشاقها وفعلها بهم أنواع المشلات فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلا (يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله) فاستقبل بقية عمره التي لا قيمة لها مستدركا بها ما فات ، مجيبا بها ما أمات ، مستقبلا بها ما تقدم له من العثرات ، منتهزا فرصة الامكان التي ان فانت فاته جميع الخيرات .

ثم يلحظ في نور تلك اليقظة وفور نعمة ربه عليه من حين استقر في الرحم إلى وقته وهو يتقلب فيها ظاهرا وباطنا ليلا ونهارا ويقظة ومناما سرا وعلاوية فلو اجتهد في احصاء أنواعها لما قدر ، ويكفي أن أدناها نعمة النفس والله عليه في كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة فاظنك بغيرها .

ثم يرى في ضوء ذلك النور أنه آيس من حصرها وإحصائها عاجز عن أداء حقها وان المنعم بها ان طالبه بمحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة واحدة منها فينتد أنه لا مطمع له في النجاة إلا بمغفو الله ورحمته وفضله .

ثم يرى في ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى حنوب عظيمة الرب تعالى وما يستحقه بجلال وجهه وعظم سلطانه هذا لو كانت أعماله منه فكيف وهى مجرد فضل الله ومنته وإحسانه حيث يسرها له وأعانها عليها وهياها لها وشاهها منه وكونها ، ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها ، لحيث لا يرى أعماله منه ، وان الله سبحانه لن يقبل عملا يراه صاحبه من نفسه حتى يرى عين توفيق الله له وفضله عليه ومنته وأنه من الله لا من نفسه وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسبابه ، وما به من زمة فمن الله وحده صدقة تصدق بها عليه وفضلا منه ساقه إليه من غير أن يستحقه بسبب ويستأله بوسيلة ، فيرى ربه ووليه ومعبوده أهلا لكل خير ويرى نفسه أهلا لكل شر ، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة والظاهرة والباطنة وهو الذى يرفعها ويجعلها في ديوان أصحاب العيين .

ثم يبرق له في نور اليقظة بارقة أخرى يرى في ضوءها عيوب نفسه وآفات عمله وما تقدم له من الجنائيات والاساءات وهتك الحرمات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه رأى ان حق النعم عليه في نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه فيطمئن قلبه وانكسرت نفسه وخشمت جوارحه وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جنائياته وعيوب نفسه وآفات عمله قائلا أبوء لك بنعمتك على وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فلا يرى لنفسه حسنة ولا يراها أهلا لخير فيوجب له أمرين عظيمين .

(أحدهما) استكثار ما من الله عليه .

(والثاني) استقلال مامته من الطاعة كائنة ما كانت . ثم تبرق له بارقة أخرى يرى في ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه وأنه رأس مال سعادته فيدخل به أن يضيعه فيما يقربه إلى ربه فإن في إضاعته الخسران والحسرة والندامة وفي حفظه وعمارته الربح والسعادة فيشح بأنفاسه أن يضيعبها فيما لا ينفعه يوم معاده .

فصل

ثم يلحظ في ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته من التوبة والمحاسبة والمراقبة والغفرة لربه أن يؤثر عليه غيره وعلى حظه من رضاه وقربه وكرامته ببيعه بثمان يحس في هوار سريعة الزوال وعلى نفسه أن يملك رقها لمعشوق أو فسكر في منتهى حسنه ورأى آخره بعين بصيرة لأنف لها من محبته .

فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها وهي أول منازل النفس المطمئنة التي نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة .

فصل

وأما النفس اللوامة وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله : (ولا أقسم بالنفس اللوامة) فاختلف فيها فقالت طائفة هي التي لا تثبت على حال واحدة . أخذوا اللفظة من التسليم وهو التردد فهي كثيرة الثقل والتلون وهي من أعظم آيات الله فانها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة فضلاً عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانا متلونة فتذكر وتغفل وتقبل وتعرض وتلطف وتكشف وتذيب وتجفو وتحب وتبغض وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتطع وتتق وتفجر . إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها فهي تلون كل وقت ألواناً كثيرة فهذا قول .

(وقالت) طائفة اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا فقالت فرقة هي نفس المؤمن وهذا من صفاتها المجردة ، قال الحسن البصري أن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائماً يقول ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى أو نحو هذا من الكلام .

(وقال) غيره هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه على ذنب بل يلومها لئلا تلومه على فواته

(وقالت) طائفة بل هذا اللوم للتوعين فإن كل أحد يلوم نفسه برأ كان أو فاجراً فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهوها .

(وقالت) فرقة أخرى هذا اللوم يوم القيامة فان كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئاً على إساءته وإن كان محسناً على تقصيره .

وهذه الأقوال كلها حق ، ولاتتافى بينها ، فان النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة ، ولكن اللوامة نوعان :

لوامة ملومة ، وهى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها الله وملائكته .

ولوامة غير ملومة ، وهى التى لاتزال تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة ؛ وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله واحتملت ملام اللاتمين فى مرضاته فلا تأخذها فيه لومة لائم فهذه قد تخلصت من لوم الله ، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل فى الله ملام اللوام ، فهى التى يلومها الله عز وجل .

فصل

وأما النفس الامارة هى المذمومة فانها التى تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا ما وقفها الله وثبتها وأعانها ، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له كما قال تعالى حاكياً عن امرأة العزيز (وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء إلا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم) وقال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً) وقال تعالى لاكرم خلقه عليه وأحبهم إليه (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً) وكان لنبى صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم خطبة الحاجة ، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، فالشر كامن فى النفس وهو يوجب سيئات الاعمال فان خلق الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الاعمال ، وان وفقه وأعانها نجاه من ذلك كله فنسأل الله العظيم أن يعيدنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين الامارة والوامة كما أكرمه بالمطمئنة فهى نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة مطمئنة وهى غاية كمالها وصلاحتها وأيد المطمئنة بخنود هديده لجمل الملك قرينها وصاحبها الذى يليها ويسدها ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويربها حسن صورته ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه ويربها قبح صورته ، وأمددها بما عليها من القرآن والاذكار وأعمال البر وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق تنزيها وتصل إليها من كل ناحية وكلما تلقتهما بالقبول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته فى ذلك كله ازداد مددها فتقوى على محاربة الامارة ، فنجندها وهو سلطان عساكرها وملكها الإيمان واليقين

فالجيش الإسلامي كلها تحت لوائه ناظرة إليه إن ثبت مثبت وإن انهزم ولت على أديارها ، ثم أمراء هذا الجيش ومقدمو عساكره شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح على اختلاف أنواعها كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصيحة الخلق والإحسان إليهم بأنواع الإحسان ، وشعبه الباطنة المتعلقة بالقلب كالإخلاص والتوكل والإيابة والتوبة والمراقبة والصبر والحلم والتواضع والمسكنة وامتلاء القلب من محبة الله ورسوله وتعظيم أوامر الله وحقوقه والغيرة لله وفي الله والشجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة ، وملاك ذلك كله الإخلاص والصدق فلا يتعب الصادق المخلص فقد أقيم على الصراط المستقيم فيساربه وهو راقد ، ولا يتعب من حرم الصدق والإخلاص فقد قطعت عليه الطريق واستهوته الشياطين في الأرض حيران فإن شاء فليعمل وإن شاء فليترك فلا يزيد عمله من الله إلا ببدأ ، وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من جند النفس المطمئنة .

وأما النفس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذي يليها فهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ويزينه لها ويظليل في الأمل ويربها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها ويمدها بأنواع الامداد الباطل من الاماني الكاذبة والشهوات المهلكة ويستعين عليها بهواها وإرادتها فته يدخل عليها كل مكروه فما استعان على النفوس بشيء هو أبلغ من هراها وإرادتها اليه وقد علم ذلك اخوانه من شياطين الإنس فلا يستعينون على الصور الممنوعة منهم بشيء أبلغ من هوامم وإرادتهم^(١) فاذا أعيتهم صورة طلبوا بجهدهم ما تجبه وتهواه ثم طلبوا بجهدهم تحصيله فاصطادوا تلك الصورة فاذا فتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجلسوا خلال الديار فعاثوا وأفسدوا وقتسكوا وسبوا وفعلوا ما يفعله العدو ببلاد عدوه إذا تحكم فيها فهدموا معالم الإيمان والقرآن والذكر والصلاة وخرّبوا المساجد وعمرّوا البيع والكنايس والحانات والواخير وقصدوا إلى الملك فأسروه وسلبوه ملكه ونقلوه من عبادة الرحمن إلى عبادة البغايا والأوثان ومن عز الطاعة إلى ذل للمعصية ، ومن السماع الرحمانى إلى السماع الشيطانى ومن الاستعداد للقاء رب العالمين إلى الاستعداد للقاء إخوان الشياطين فيينا هو يراعى حقوق الله وما أمره به إذ صار يراعى الخنازير ، وبيننا هو منتصب لخدمة العزيز الرحيم إذ صار منتصباً لخدمة كل شيطان رجيم .

والمقصود أن الملك قرين النفس المطمئنة ، والشيطان قرين الامارة ، وقد روى أبو الاحوص عن عطاء بن السائب عن مرة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه

(١) كذا في الظاهر من هواها وإرادتها ، أى الصور ، تدبر .

وآله وسلم أن للشيطان لمة بابن آدم ولللك لمة . فأما لمة الشيطان فايدها بالشر والتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايدها بالخير وتصديق بالحق . فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله ، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ (الشيطان يعدم الفقر ويأمركم الفحشاء) وقد رواه عمرو عن عطاء بن السائب وزاد فيه عمرو قال سمعنا في هذا الحديث أنه كان يقال إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئاً فليحمد الله وليسأله من فضله وإذا أحس من لمة الشيطان شيئاً فليستغفر الله وليتعوذ من الشيطان .

فصل

فالفنس المطمئنة والملك وجنده من الإيمان يقتضيان من النفس المطمئنة التوحيد والإحسان والبر والتقوى والصبر والتوكل والتوبة والإنابة والإقبال على الله وقصر الأمل والاستعداد للموت وما بعده ، والشيطان وجنده من الكفر يقتضيان من النفس الأمانة ضد ذلك وقد سلط الله سبحانه الشيطان على كل ما ليس له ولم يرد به وجهه ولا هو طاعة له وجعل ذلك إقطاعه فهو يستتبع النفس الأمانة على هذا العمل والإقطاع ويتقاضى أن تأخذ الأعمال من النفس المطمئنة فتجعلها قوة لها فهي أحرص شيء على تخلص الأعمال كلها وأن تصير من حظوظها ، فأصعب شيء على النفس المطمئنة تخلص الأعمال من الشيطان ومن الأمانة لله فلو وصل منها عمل واحد كما ينبغي لتجابه العبد ولكن ابت الأمانة والشيطان أن يدعا لها عملاً واحداً يصل إلى الله كما قال بعض العارفين بالله وبفسه والله لو أعلم أنى عملاً واحداً وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يقدم على أهله ، وقال عبد الله بن عمر لو أعلم أن الله قبل مني سجدة واحدة لم يكن غائب أحب إلى من الموت (إنما يتقبل الله من المتقين) .

فصل

وقد انتصبت الأمانة في مقابلة المطمئنة فكما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها فإذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقدح في الإيمان من الشرك والنفاق وما يقدح في التوحيد من الشرك وعجة غير الله وخوفه ورجائه ولا ترضى حتى تقدم حجة غيره وخوفه ورجائه على محبته سبحانه وخوفه ورجائه فيكون ماله عندهما هو المؤخر وما للخلق هو المقدم ، وهذا حال أكثر هذا الخلق ، وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم على الوحي وأنت من الشبه المضلة بما ينمها من كمال المتابعة وتحكيم السنة وعدم الالتفات إلى آراء الرجال

فتقوم الحرب بين هاتين النفسين والمنصور من نصره الله ، وإذا جاءت تلك بالاخلاص والصدق والتوكل والابانة والمراقبة جاءت هذه باضدادها وأخرجتها في عدة قوالب وتقسيم باقة ما مرادها الا الاحسان والتوفيق والله يعلم أنها كاذبة وما مرادها الا مجرد حظها واتباع هواها والتفقت من سجن المتابعة والتحكيم المحض للسنة إلى قضاء إرادتها وشهوتها وحظوظها ولعمرو الله ما تعلمت إلا من قضاء المتابعة والتسليم إلى سجن الهوى والإرادة وضيقه وظلمته ووحشته فهي مسجونة في هذا العالم وفي البرزخ في أضيق منه ويوم الميعاد الثاني في أضيق منهما .

ومن أعجب أمرها أنها تبحر العقل والقلب فتأتى إلى أشرف الاشياء وأفضلها وأجلها فتخرجه في صورة مذمومة وأكثر الخلق صبيان الدعول أطفال الاحلام لم يصلوا إلى حد الفطام الاول عن العوائد والمألوفات فضلا عن البلوغ الذى يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره وشر الشرين فيجتنبه فترى صورة تجريد التوحيد التى هى أبهى من صورة الشمس والقمر في صورة التقيص المدموم وهضم العطاء منازلهم وحطهم منها إلى مرتبة العبودية المحضة والمسكنة والذل والفقير المحض الذى لا مللعة لهم معه ولا إرادة ولا شفاعة إلا من بعد إذن الله فترهبهم النفس السحارة هذا القدر غاية تقيصهم وهضمهم ونزول أقدارهم وعدم تمييزهم عن المساكين الفقراء فتتفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد التفار ويقولون (أنجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) وترهبهم تجريد المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمه على آراء الرجال في صورة تقيص العلماء والرغبة عن أقوالهم وما فهموه عن الله ورسوله وإن هذا إساءة أدب عليهم وتقديم بين أيديهم وهو مفض إلى إساءة الظن بهم وإهم قد فاتهم الصواب وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظى بالصواب دونهم ، فتتفر من ذلك أشد التفار وتجعل كلامهم هو المحكم الواجب الاتباع وكلام الرسول هو المتشابه الذى يعرض على أقوالهم فما وافقها قبلناه وما خالفها رددناه أو أولناه أو فوضناه وتقسيم النفس السحارة بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم .

فصل

وتربه صورة الاخلاص في صورة ينفر منها وهى الخروج عن حكم العقل الممشى والمداراة والمداهنة التى بها اندراج حال صاحبها ومشيه بين الناس فتى أخلص أعماله ولم يعمل لأحد شيئاً تجنّبوا وتجنّبوا وأبغضوا وأبغضوا وعادوا وعادوا وسار على جادة فينفر من ذلك أشد التفار وغايته أن يخلص فى القدر اليسير من أعماله التى لا تتعلق بهم وسائر أعماله لغير الله .

فصل

وتربه صورة للصدق مع الله وجهاد من خرج عن دينه وأمره في قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذام وحرهم وأنه يعرض نفسه من البلاء لما لا يطيق وأنه يصير غرضاً لسهام الطاعين ، وأمثال ذلك من الشبه التي تقيمها النفس السحارة والخيالات التي تخيلها ، وتربه حقيقة الجهاد في صورة قتل فيها النفس وتمسك المرأة. ويصير الأولاد يتامى ويقدم المال ، وتربه حقيقة الزكاة والصدقة في صورة مفارقة المال ونقصه وخلو اليد منه واحتياجه إلى الناس ومساواته للفقير وعوده بمنزلته وتربه حقيقة إثبات صفات الكمال لله في صورة التشبيه والتشليل فينفر من التصديق بها وينفر غيره ، وتربه حقيقة التعطيل والاحاداد فيها في صورة التنزيه والتعظيم .

وأعجب من ذلك أنها تضاهى ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها ، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر ، ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر ، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمانة والمطمئنة فيقايين الفملان في البطلان^(١) ويشتهبان في الظاهر ، ولذلك أمثلة كثيرة منها المدارة والمداهنة فالأول من المطمئنة والثاني من الأمانة ، وخشوع الإيمان وخشوع النفاق ، وشرف النفس والتهب والحمية والجفاء . والتواضع والمهانة ، والقوة في أمر الله والعلو في الأرض والحمية لله والغضب له ، والحمية للنفس والغضب لها ، والجود والسرف ، والمهابة والكبر ، والهيانة والنكبر ، والشجاعة والجرأة ، والحزم والجبن ، والاقتصاد والفسح ، والاحترار وسوء الظن ، والفراصة والظن والنصيحة والغيبة ، والمهذبة والرشوة ، والصبر والقسوة ، والعفو والذل ، وسلامة القلب والبله والغفلة ، والثقة ، والفرقة والرجاء والتمنى ، والتحدث بنعم الله والفخر بها ، وفرح القلب وفرح النفس . ورقة القلب والجزع ، والموجدة والحقد ، والمنافسة والحسد ، وحب الرياسة وحب الامامة والدهوة إلى الله . والحب لله والحب مع الله . والتوكل والمعجز والاحتياط الوسوسة . وإلهام الملك ، وإلهام الشيطان ، والاناة والتسويق ، والاقتصاد والتقصير . والاجتهاد والعلو ، والنصيحة والتأنيب ، والمبادرة والعجلة ، والأخبار بالحال عند الحاجة والشكوى .

فالشيء الواحد تكون صورته واحدة وهو منقسم إلى محمود ومذموم كالفرح والحزن . والأسف والغضب . والغيرة والخيلاء . والطمع والتجمل . والخشوع والحسد والغبطة والجرأة

(١) كذا ولعله في الباطن .

والتحسر والحرص، والتنافس وإظهار النعمة، والحلف والمسكنة، والصمت والزهد، والورع والتخلي، والعزلة والأنفة، والحمية والغيبة، وفي الحديث أن من الغيرة ما يحبها الله ومنها ما يكرهه فالغيرة التي يحبها الله الغيرة في ريبة، والتي يكرهها الغيرة في غير ريبة، وأن من الخيلاء ما يحبه الله ومنها ما يكرهه، فالتى يحب الخيلاء في الحرب. وفي الصحيح أيضا لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويملها. وفي الصحيح أيضا أن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف. وفيه أيضا من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير فالرفق شيء والتواني والكسل شيء فان التواني يتناقل عن مصلحته بعد امكانها فيتقاعد عنها والرفيق يتلطف في تعصيلها بحسب الامكان مع المطاوعة. وكذلك المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المدارى يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق، وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته فجاءه الطبيب المدارى الرفيق فتعرف حالها ثم أخذ في تليينها حتى اذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فسادها ويقطع مادته ثم تابع عليها بالمرام التي تلبت اللحم ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما يذشف رطوبتها ثم يشد عليها الرباط ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت، والمداهن قال لصاحبها لا بأس عليك منها وهذه لاشيء فاسترهما عن العيوب بخرقه ثم اله عنها فلا تزال مدتها تقوى وتستحکم حتى عظم فسادها، وهذا المثل أيضا مطابق كل المطابقة لحال النفس الامارة مع المطمئنة فتأمله، فاذا كانت هذه حال قرحة بقدر الحصة فكيف بسقم هاج من نفس أمارة بالسوء، هي معدن الشهوات وماوى كل فسق وقد قارنها شيطان في غاية المكر والخداع يدها ويمنيها ويسحرها بجميع أنواع السحر حتى يخيل اليها النافع ضارا والضرار نافعا والحسن قبيحا والقيبح جميلا وهذا لعمر و الله من أعظم أنواع السحر ولهذا يقول سبحانه (فانى تسحرون) والذي نسبو اليه الرسل من كونهم مسحورين هو الذى أصابهم بعينه وهم أهله لا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما أنهم نسبوهم الى الضلال والفساد في الارض والجنون والسفه وما استعاذت ^(١) الانبياء والرسل وأمرأ الامم بالاستعاذة من شر النفس الامارة وصاحبها وقرينها الشيطان الا لانهما أصل كل شر وقاعدته ومنبعه وهما متساعدان عليه متعاونان :

رضيعى لبنان ندى أم تقاسميا بأحجم داج عوض لا نفرق

(١) كذا والظاهر. وما أمرت.

قال الله تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستمع باذنه من الشيطان الرجيم) وقال (وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستمع باذنه إنه سميع عليم) وقال (وقل رب أعوذ بك من همزات الهمياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد) فهذا استعاذة من شر النفس وقال (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) فهذا استعاذة من قرينها وصاحبها وبئس القرين والصاحب ، فأمر الله سبحانه نبيه وأتباعه بالاستعاذة بربوبيته التامة الكاملة من هذين الخلقين العظيم شأنهما في الشر والفساد ، والقلب بين هذين العدوين لا يزال شرهما يطرقه ويفتأبه وأول ما يدب فيه السقم من النفس الأمانة من الشهوة وما يتبعها من الحب والحرص والطلب والغضب ويتبعه من الكبر والحسد والظلم والتسلط فيعلم الطيب الغاش الخائن بمرضه فيموده ويصف له أنواع السموم والمؤذيات ويخيل إليه بسحره أن شفاه فيها ويتفق ضعف القلب بالمرض وقوة النفس الأمانة والشيطان وتتابع إمدادهما وأنه نقد حاضر ولذة عاجلة والداعي إليه يدعو من كل ناحية والهوى ينفذ والشهوة تهون والتأسي بالأكثر والتشبه بهم والرضا بأن يصيبه ما أصابهم فكيف يستجيب مع هذه القواطع وأضعافها لداعي الإيمان ومنادى الجنة إلا من أمده الله بامداد التوفيق وأيده برحمته وتولى حفظه وحمايته وفتح بصيرة قلبه فرأى سرعة انقطاع الدنيا وزوالها وتقلبها بأهلها وفعلها بهم وأنها في الحياة الدائمة كغرس أصبع في البحر بالنسبة إليه .

فصل

والفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء فينكسر القلب لله كسرة ملثمة من الوجع والنجس والحب والحياء وشهود نعم الله وجنباياته هو فيخشع القلب لاجالة فيتبعه خشوع الجوارح . وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً والقلب غير خاشع ، وكان بهض الصحابة يقول أعوذ بالله من خشوع النفاق قيل له وما خشوع النفاق ؟ قال أن يرى الجسد هاشماً والقلب غير خاشع . فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره فانجلي الصدر وأشرق فيه نور العظمة فانت شهوات النفس للحوف والوقار الذي حشى به وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه فصار محباً له والمحبت الملمن فان المحبت من الأرض ما اطمأن فاستقع فيه الماء ، فكذلك القلب المحبت قد خضع واطمأن كالقمة المطمئنة من الأرض التي يجرى إليها الماء فيستقر فيها وعلامته

أن يسجد بين يدي ربه لإجلاله وذلا وانكساراً بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه .
وأما القلب المتكبر فإنه قد اهتز بتكبره وربما فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها
الماء فهذا خشوع الإيمان .

وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراماة ونفسه
في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات فهو يتخشع في الظاهر وحية الوادى وأ . الغاية
رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة .

فصل

وأما شرف النفس فهو صيانتها عن الدنيا والرذائل والمطامع التي تقطع أعناق الرجال
فيربأ بنفسه عن أن يلقيها في ذلك ، بخلاف التيه فإنه خلق متولد بين أمرين إهجاباه بنفسه
وازدرائه بغيره فيتولد من بين هذين التيه والأول يتولد من بين خلقين كريمين إعراز النفس
وإكرامها وتعميم مالسكها وسيدها أن يكون عبده دنيا وضيعاً خسيساً فيتولد من بين هذين
الخلقين شرف النفس وصيانتها ، وأصل هذا كله استعداد النفس وتهيؤها وامداد وليها ومولاها
لها فإذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الخير كله .

فصل

وكذلك الفرق بين الحمية والجفاء فالحمية فالحمية فطام النفس عن رضاع اللوم من تدى هو مصب
الخبائث والرذائل والدنيا ولو غزر لبنه وتمالك الناس عليه فان لهم فطاماً تنقطع معه الأكباد
حشرات فلا بد من الفطام . فإن شئت عجل وأنت محمود مشكور وإن شئت أخر وأنت غير
سأجور . بخلاف الجفاء فإنه غلظة في النفس وقساوة في القلب وكثافة في الطبع يتولد عنها خلق
يسمى الجفاء .

فصل

والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه
وصفاته ونعوت جلاله وتعميمه ومحبه وإجلاله ، ومن معرفته بنفسه وتقاصيلها وعبوب
عملها وآفاتنا ، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع وهو انكسار القلب لله وخفض
جناح الذل والرحمة بعباده فلا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقاً بل يرى الفضل
لناس عليه والحقوق لهم قبله ، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه .

(وأما المهانة) فهي المدانة والخسة وبذل النفس وابتدائها في نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السفلى في نيل شهواتهم وتواضع المفعول به للفاعل وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه فهذا كله ضعة لا تواضع والله سبحانه يحب التواضع ويبغض التضعه والمهانة . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم وأوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد والتواضع المحمود على نوعين .

(النوع الأول) تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً وعند نهيه اجتناباً فإن النفس لطلب الراحة تتلصقاً في أمره فيبدو منها نوع إباء وشرادهر بأمن العبودية وتثبت عند نهيها طلباً للظفر بما منع منه فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيها فقد تواضع للعبودية .

(والنوع الثاني) تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه فكلما شمخه نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرد به بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه واطمأن لهيبته وأخبت لسلطانه ، فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس والتواضع حقيقة من رزق الأمرين والله المستعان .

فصل

وكذلك القوة في أمر الله هي من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها الله والعلو في الأرض هو من تعظيم نفسه وطلب تفرد بها بالرياسة ونفاذ الكلمة سواء عز أمر الله وأهانه بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته في طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك وأهذره وأماته في تحصيل علوه .

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والأمر والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لغوات حظوظها فالحمية لله أن يحمي قلبه له من تعظيم حقوقه وهي حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله فامتلاً قلبه بذلك النور فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذي ألقى على قلبه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه وبدا بين عينيه عرق يدره الغضب ولم يغم لغضبه شيء حتى ينتقم لله، وروى زيد بن أسلم عن أبيه أن موسى بن عمران صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا غضب اشتعلت قلبه ناراً وهذا بخلاف الحمية للنفس فإنها حرارة تهيج من نفسه لغوات حظها أو طلبه فان الفتنة في النفس والفتنة هي الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب فأنماها حرارتان تظهران على الأركان حرارة من قبل النفس المطمئنة أثارها تعظيم حق الله وحرارة من قبل النفس الإمارة أثارها استشعار فوت الحظ .

فصل

والفرق بين الجرد والسرف أن الجواد حكيم يضع العطاء مواضعه والمسرف مبذر وقد يصادف عطاؤه موضعه وكثيراً لا يصادفه وإيضاح ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل في المال حقوقاً وهي نوعان حقوق موظفة وحقوق ثانية (فالحقوق الموظفة) كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته .

والثانية كحق الضيف ومكافأة المهدي وماوق به عرضه ونحو ذلك فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه السكال طيبة بذلك نفسه راضية مؤملة للخلف في الدنيا والثواب في العقبى فهو يخرج ذلك بسماحة قلب وسخاوة نفس وانشراح صدر بخلاف المبذر فإنه يبسط يده في ماله بحكم هواه وشهوته جزافاً لا على تقدير ولا مراعاة مصلحة وإن انفق له فالأول بمنزلة من بذر حبة في الأرض تبت وتوخى ببذره مواضع المغل والإنبات فهذا لا يعد مبذراً ولا سفياً والثاني بمنزلة من بذر حبة في سبأخ وعزاز من الأرض وإن اتفق بذره في محل للنبات بذر بذراً متراكماً بعضه على بعض ، فذلك المكان البذر فيه ضائع معطل وهذا المكان بذر بذراً متراكماً بعضه على بعض ، فلذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقي وتلا تضعف الأرض عن تربيته . والله سبحانه هو الجواد على الإطلاق بل كل جود في العالم العلوى والسفلى بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة في بحار الدنيا وهي من جوده ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء وجوده لا يناقض حكمته ويضع عطاءه مواضعه وإن خفي على أكثر الناس أن تلك مواضعه فأنه يعلم حيث يضع فضله وأى المحال أولى به .

فصل

والفرق بين المهابة والكبر (أن المهابة) أثر من آثار امتلاء القلب بمغظمة الله ومحبتة وإجلاله فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور ونزلت عليه السكينة وألبس رداء الهيبة فاكسى وجهه الحلوة والمهابة فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة فحث إليه الأفتدة وقرت به العيون وأنست به القلوب فكلامه نور ومدخله نور ومخرجه نور وعمله نور وإن سكت علاه الوقار وإن تكلم أخذ بالقلوب والاسماع .

(وأما الكبر) فأثر من آثار العجب والبغى من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم ترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت فظفره إلى الناس شزر ومشيه بينهم تبختر ومعاملته لهم معاملة الاستتار لا الإيثار ولا الإنصاف ذاهب بنفسه تهاً لا يبدأ من لقيه بالسلام وإن رد عليه

رأى أنه قد بالغ في الانعام عليه لا ينطلق لهم وجهه ولا يسمهم خلقه ولا يرى لأحد عليه حقاً ويرى حقوقه على الناس ولا يرى فضلهم عليه ويرى فضله عليهم لا يزداد من الله إلا بعداً ومن الناس إلا صفاراً أو بفضاً .

فصل

والفرق بين الصيانة والتكبر أن الصائت لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوباً جديداً نقي البياض ذا ثمن فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار لإبقاء على بياضه ونقاؤه فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التي يخشى منها عليه التلوث فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه وإن أصابه شيء من ذلك على غرة يادر إلى قلعه وإزالته ومحو أثره وهكذا الصائت لقلبه ودينه تراه يجتنب طبوع الذرْب وآثارها فان لها في القلب طبوعاً وآثاراً أعظم من الطبوع الفاحشة في الثوب النقي البياض ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع ، فتراه يهرب من مظان التلوث ويحترس من الخلق ويتباعد من تخالطهم مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذي يخالط الدباغين والدباخين والطباخين ونحوهم .

بخلاف صاحب العلو فإنه وإن شابه هذا في تحرزه وتجنبه فهو يقصد أن يعنو رقابهم ويحطهم تحت قدمه ، فهذا لون وذاك لون .

فصل

والفرق بين الشجاعة والجرأة (أن الشجاعة) من القلب وهي ثباته واستقراره عند المخاوف وهو خلق يتولد من الصبر وحسن الظن فإنه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت ، كما أن الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر وأصل الجبن من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء وهو ينشأ من الرثة فإذا ساء الظن ووسوست النفس بالسوء انتفخت الرثة فزاحت القلب في مكانه وضيقت عليه حتى أزعجته عن مستقره فأصابه الزلازل والاضطراب لإزعاج الرثة له وتضييقها عليه ولهذا جاء في حديث عمرو بن العاص الذي رواه أحمد وغيره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شرماني المرء جبن خالغ وشح مالغ فسمى الجبن خالماً لأنه يخلع القلب عن مكانه لاتنفاخ السحر وهو الرثة كما قال أبو جهل لعتبة بن ربيعة يوم بدر انتفخ سحرك ، فإذا زال القلب عن مكانه ضاع تدبير العقل فظهر الفساد على الجوارح فوضعت الأمور على غير مواضعها فالشجاعة حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته فإذا رأته الاعضاء كذلك أعانته فانها خدم له وجنود كما أنه إذا ولي وقت سائر جنوده .

وأما الجراة فهي إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر في العاقبة بل تقدم النفس و
موضع الإقدام معرضة عن ملاحظة المعارض فيما عليها وإما لها .

فصل

وأما الفرق بين الحزم والجبن فالحازم هو الذي قد جمع عليه همه وإرادته وعقله ووزن
الأمور بعضها ببعض فأعد لكل منها قرنه ، ولفظة الحزم تدل على القوة والإجماع ومنه
حزمة الحطب فحازم الرأي هو الذي اجتمعت له شئون رأيه وعرف منها خيرا والخيرين وشر
الشرين فأحجم في موضع الاحجام رأيا وعقلا لاجبنا ولاضعفاً :
العاجز الرأي مضايح لفرسته حتى إذا فات أمر هاتب القدرا (١)

فصل

وأما الفرق بين الاقتصاد والشح أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين عدل وحكمة
فبالعدل يعتدل في المنع والبذل بالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذي يليق به فيتولد
من بينهما الاقتصاد وهو وسط بين طرفين مذمومين كما قال تعالى (ولا تجعل يدك موله إلى
عقك ولا تبسطها كل البسط فتععد ملوما محسوراً) وقال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا
ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) وقال تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) .

وأما الشح فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس ويمده وعد الشيطان حتى
يصير هلعاً والهلع شدة الحرص على الشيء والثروة به فتولد عنه المنع لبذله والجور لفقده
كما قال تعالى (إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) .

فصل

والفرق بين الاحتراز وسوء الظن أن المحترز بمنزلة رجل قد خرج بماله ومركوبه
مسافراً فهو محترز بحمده من كل قاطع للطريق وكل مكان يتوقع منه الشر وكذلك يكون مع
التأهب والاستعداد وأخذ الأسباب التي بها ينجو من المكروه ، فالمحترز كالمستباح المتدوع
الذي قد تأهب لقاء عدوه وأعدله عدته فبهمه في تهيئة أسباب النجاة ومحاربة عدوه قد أشغلته
عن سوء الظن به وكلما ساء به الظن أخذ في أنواع العدة والتأهب .

(١) لم يذكر تفسير الجبن كأنه اكتفى بما تقدم في الفصل الذي قبل هذا .

وأما سوء الظن فهو امتلاء قلبه بالظنون السيئة بالناس حتى يطفح على لسانه وجوارحه ، فهم معه أبدا في الهمز واللمز والظن والعيب والبغض يبغضهم ويبغضونه ، ويلعنهم ويلعنونه ويحذروهم ويحذرون منه ، فالأول يخالطهم ويحترز منهم ، والثاني يتجنبهم ويلحقه أذاهم ، الأول داخل فيهم بالنصيحة والاحسان مع الاحتراز والثاني خارج منهم مع العش والدغل والبغض .

فصل

والفرق بين الفراسة والظن أن الظن يخطيء ويصيب وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته ولهذا أمر تعالى باجتنب كثير منه وأخبر أن بعضه اثم .

وأما الفراسة فأتى على أهلها ومدحهم في قوله تعالى (إن في ذلك لآيات للتوسمين) قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أي للفرسين وقال تعالى (يحسبم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم) وقال تعالى (ولو نشاء لآرينا لكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول) فالفراسة الصادقة لقب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه وفي الترمذى وغيره من حديث أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله . وهذه الفراسة نشأت له من قرب به من الله فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قرب به منه وأضاء له النور بقدر قرب به فرأى في ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب كما ثبت في الصحيح من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال ما تقرب إلى عبدى بمثل ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيد بحبته له فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله فسمع به وأبصر به وبطش به ومشى به فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هي عليه فلا تسكاد تخطيء له فراسة فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه فإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه ، وليس هذا من علم الغيب بل علام الغيوب قدف الحق في قلب قريب مستبشر بنوره غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التى تمنعه من حصول صور الحقائق فيه وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب إلى العين فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى أصحابه في الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه ، ورأى بيت المقدس عيانا وهو

بمكة ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق ، ورأى
امراه بموته وقد أصيبوا وهو بالمدينة ، ورأى النجاشى بالحبشة لما مات وهو بالمدينة فخرج
إلى المصل فصلى عليه . ورأى عمر مارية بناوند من أرض فارس ^(١) هو وعساكر المسلمين
وهم يقاتلون عدوهم فناداه ياسارية الجبل ، ودخل عليه نفر من مذبح فيهم الأشتر النخعي
فصعد فيه البصر وصوبه وقال أيهم هذا ؟ قالوا مالك بن الحارث فقال ماله قاتله الله إنى
لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً .

ودخل عمرو بن عبيد على الحسن فقال هذا سيد الفتيان إن لم يحدث . وقيل أن الشافعى
ومحمد بن الحسن جلسا فى المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد أنقرس أنه نجار ، فقال
الشافعى أنقرس أنه حداد ، فسألاه فقال كنت حداداً وأنا اليوم أنجر ودخل أبو الحسن
البوشنجى والحسن الحداد على أبى القاسم المناوى يعودانه فاشترى فى طريقهما بنصف درهم
تفاحاً نسيته فلما دخلا عليه قال ماهذه الظللة ؟ فخرجا وقالوا ماعلنا لعل هذا من قبل من
التفاح فأعطيا الثمن ثم عادا اليه ووقع بصره عليهما فقال يمكن الانسان أن يخرج من الظللة
بهذه السرعة ؟ أخبرانى عن شأنكما فأخبراه بالقصة فقال نعم كان كل واحد منك يعتمد على
صاحبه فى إعطاء الثمن والرجل مستح منك فى التقاضى . وكان بين أبى زكريا النخشبى وبين
امراة سبب قبل توبته فكان يوماً واقفا على رأس ابن عثمان الخيرى فتفكر فى شأنها فرفع
أبو عثمان إليه رأسه وقال ألا تستحى . وكان شاه الكرمانى جيد الفراسة لا تخطئه فراسته
وكان يقول من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بدوام
المراقبة وظاهره باتباع السنة وتعود أكل الحلال لم تخطئه فراسته . وكان شاب يصحب
الجنيد يتكلم على الخواطر فذكر للجنيد فقال إيش هذا الذى ذكر لى عنك ؟ فقال له اعتقد
شيئاً ، فقال له الجنيد اعتقدت فقال الشاب اعتقدت كذا وكذا فقال الجنيد لا ، فقال
فاعتقد ثانياً قال اعتقدت فقال الشاب اعتقدت كذا وكذا فقال الجنيد لا ، قال فاعتقد
ثالثاً قال اعتقدت قال الشاب هو كذا وكذا قال لا ، فقال الشاب هذا عجب وأنت صدوق
وأنا أعرف قلبى . فقال الجنيد صدقت فى الأولى والثانية والثالثة لكن أردت أن أمتحنك
هل يتغير قلبك ؟ وقال أبو سعيد الخراز دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان
يسأل شيئاً فقلت فى نفسى مثل هذا كل هلى الناس ، فنظر لى وقال (اعلموا أن الله يعلم
مافى أنفسكم فاحذروه) قال فاستغفرت فى سرى فنادانى وقال (وهو الذى يقبل التوبة عن
عباده) وقال إبراهيم الخواص كنت فى الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه حسن

(١) وكان عمر رضى الله عنه إذ ذاك بالمدينة المشرفة .

الحرمة فقلت لأصحابنا يقع على أنه يهودى فكلهم كره ذلك فخرجت وخرج الشاب ثم رجعت إليهم فقال إيش قال الشيخ في ؟ فاحتشموه فأخ عليهم فقالوا قال إنك يهودى فجاء فأكب على يدي فأسلم فقلت ما السبب ؟ فقال نجد في كتابنا أن الصديق لا تخطيء فراسته فقلت امتحن المسلمين فتأملتهم فقلت إن كان فيهم صديق ففي هذه الطائفة فلبست عليكم فلما اطلع هذا الشيخ على وتفرضنى علت أنه صديق . وهذا عثمان بن عفان دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة في الطريق فتأمل محاسنها فقال له عثمان يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه فقلت أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال لا ولكن تبصرة وبرهان وفراصة صادقة .

فهذا شأن الفراسة وهي نور يقذفه الله في القلب فيخطر له الشيء فيكون كما خطر له وينفذ إلى العين فيرى ما لا يراه غيرها .

فصل

والفرق بين النصيحة والغبية أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فنان أو غاش أو مضد فتذكر ما فيه إذا استشارك في محبته ومعاملته والتعلق به كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبى جهنم فقال : أما معاوية فصملوك ، وأما أبو جهنم فلا يضيع عصاه عن عاتقه ، وقال بعض أصحابه لمن سافر معه إذا هبطت عن بلاد قومه فأحذره .

فاذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهي قريبة إلى الله من جملة الحسنات ، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتسكك بلحمه والنقض منه لتضع منزلته من قلوب الناس فهي الداء العضال ونار الحسنات التي تأكلها كما تأكل النار الحطب .

فصل

والفرق بين الهدية والرشوة وإن اشتبها في الصورة القصد فإن الراشي قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل فهذا الراشي الملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشى وحده باللعنة .
وأما الهدى قصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان فان قصد المكافأة فهو معاوض وإن قصد الربح فهو مستكثر .

فصل

والفرق بين الصبر والقسوة أن الصبر خلق كسبي يتخلق به العبد وهو حبس النفس عن الجرع والهلع والتشكي فيحبس النفس عن التسخط واللسان عن الشكوى والجوارح عما لا ينبغي فعله وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية .

وأما القسوة فيبس في القلب يمنع من الانفعال وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله .

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة :

(قلب قاس) غليظ بمنزلة اليد اليابسة . (وقلب مائع) رقيق جداً .

(فالاول) لايفعل بمنزلة الحجر . والثاني بمنزلة الماء وكلاهما ناقص وأصح القلوب (القلب الرقيق) الصافي الصلب فهو يرى الحق من الباطل بصفاائه ويقبله ^(١) ويؤثره برقته ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته . وفي الأثر : القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها ، وهذا القلب الزجاجي فإن الزجاجية جمعت الأوصاف الثلاثة ، وأبعض القلوب إلى الله القلب القاسي قال تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) وقال تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) وقال تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنه للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم) فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال هذا بمرضه وهذا بقسوته وجعل إلقاء الشيطان فتنه لأصحاب هذين القلبين ورحمة لأصحاب القلب الثالث وهو القلب الصافي الذي ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفاائه وقبل الحق بإخباره ورقته وحارب النفوس المبطللة بصلابته وقوته فقال تعالى عقيب ذلك (وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم)

فصل

والفرق بين العفو والذل ان العفو اسقاط حقه جودا وكرما واحسانا مع قدرتك على الانتقام فتؤثر الترك رغبة في الاحسان ومكارم الاخلاق بخلاف الذل فإن صاحبه يترك

(١) أي الحق ، كما يأتي .

الاتقام مجزا وخوفاً ومهانة نفس ، فهذا مذموم غير محمود ولعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه قال تعالى (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) .

فدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وقاضيهب منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغي عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه نديهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح فقال (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين) فذكر المقامات الثلاثة العدل وأباحه ، والفضل وندب إليه ، والظلم وحرمه .

(فإن قيل) فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متافيان .

(قيل) لم يمدحهم على الاستيفاء والاتقام وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم فلما قدروا نديهم إلى العفو قال بعض السلف في هذه الآية كانوا يكرهون أن يستدلوا فإذا قدروا عفوا ، فدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجز ومهانة وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله (وكان الله عفواً قديراً) (والله غفور رحيم) وفي أثر معروف : حملة العرش أربعة إثنان يقولان سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حبلك بعد علك . وإثنان يقولان سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، ولهذا قال المسيح صلوات الله وسلامه عليه (إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) أى ان غفرت لهم غفرت عن عزة وهى كمال القدرة، وحكمة وهى كمال العلم فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك إذ الخلق قد يففر بعجزه عن الاتقام وجهله بحقيقة ما صدر من المسيء والعفو من الخلق ظاهره ضم وذل وباطنه عز ومهانة واتقام ظاهره عز وباطنه ذل فإزاد الله بعفو إلا عزاً لا اتقم أحد لنفسه إلا ذل ولولم يكن إلا بفوات عز العفو ولهذا ما اتقم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه قط ، وتأمل قوله سبحانه (وهم ينتصرون) كيف يفهم منه أن فيهب من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم لأن غيرهم هو الذى ينصرهم ، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً بل لا بد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المائلة والمساواة وحرم الزيادة وندب إلى العفو .

والمقصود أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة والذل من أخلاق الامارة ونسكة المسألة أن الاتقام شىء والاتصار شىء فالانتصار أن ينتصر لحق الله ومن أجله ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواه فإنه حينئذ ينال حظاً من العز الذى قسم الله المؤمنين فاذا بغي عليه انتصر من الباغى من أجل عز الله الذى أعزه به غيره على ذلك العز

أن يستنصم ويقهر وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستدل ، فهو يقول للباغي عليه أنا مملوك من لا يذل مملوكه ولا يجب أن يذله أحد ، وإذا كانت نفسه الامارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغي تشقيا فيه وإذلاله وأما النفس التي خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عز توحيدها وانابتها إلى ربها فإذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعزيز الذي أعزها الله به ونالته منه وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها وقد ضرب لذلك مثلا بمدين من عبيد الغلة حرائين ضرب أحدهما صاحبه ففزا المضروب عن الضارب نصحا منه لسيدته وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد فلم يحشم سيده خلقه ^(١) عقوبته وافساده بالضرب فشكر العاقى على عفوه ووقع منه بموقع . وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمله وألبسه ثيابا يقف بها بين يديه فعمد بعض سواس الدواب وأضراهم ولطخ تلك الثياب بالعدرة أو مزقها فلو عفا عن فعله به ذلك لم يوافق عفوه رأى سيده ولا محبته وكان الانتصار أحب إليه ووافق لمرضاته كأنه يقول إنما فعل هذا بك جرأة على واستخفافا بسلطاني فإذا أمكنه من عقوبته فاذله وقهره ولم يبق إلا أن يطش به فذل وانكسر قلبه فإن سيده يجب منه أن لا يعاقبه لحظة وأن يأخذ منه حق السيد فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لالنفسه كما روى عن علي رضي الله عنه أنه مر برجل فاستغاث به وقال هذا منعني حتى ولم يعطني إياه فقال أعطه حقه فلما جاوزهما لج الظالم ولطم صاحب الحق فاستغاث بعلي فرجع وقال أذاك الغرث فقال له استقدمته فقال قد عفوت بأمر المؤمنين فضربه على تسع درر وقال قد عفا عنك من لطمته وهذا حق السلطان فعاقبه على لما اجترأ على سلطان الله ولم يدعه ويشبه هذا قصة الرجل الذي جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال احملني فوالله لانا أفرس منك ومن ابنك ^(١) وعنده المغيرة بن شعبه فحسر عن ذراعه وصك بها أنف الرجل فسال الدم فجاء قومه إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا أقدنا من المغيرة ، فقال أنا أقيدكم من وزعة الله ؟ لا أقيدكم منه فرأى أبو بكر أن ذلك انتصار من المغير وحمية لله وللعز الذي أعزبه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليمكن بذلك العزم من حسن خلافته وإقامة دينه فترك قوده لاجترأه على عز الله وسلطانه الذي أعز به رسوله ودينه وخليفته فهذا لون والضرب حمية للنفس الامارة لون .

فصل

والفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل ان سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر

بعد معرفته فيسلم قلبه من إرادته وقصده لامن معرفته والعلم به ، وهذا بخلاف البله والغفلة فانها جهل وقلة معرفة وهذا لا يحمد إذ هو نقص وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه . والكمال أن يكون القلب عارفا بتفاصيل الشر سليما من إرادته قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لست بحب ولا يخذعنى الحب وكان عمر أعقل من أن يخذع وأورع من أن يخذع وقال تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) فهذا هو السليم من الآفات التي تعترى القلوب المريضة من مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الانفس فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا .

فصل

والفرق بين الثقة والغرة أن الثقة سكون يستند إلى أدلة وأمارات يسكن القلب إليها فكلما قويت تلك الامارات قويت الثقة واستحكمت ولا سيما على كثرة التجارب وصدق الفراسة واللفظة كأنها والله أعلم من الوثاق وهو الرباط فالقلب قد ارتبط بمن وثق به توكلأ عليه وحسن ظن به فصار في وثاق محبته ومعاملته والاستناد إليه والاعتماد عليه فهو في وثاقه بقلبه وروحه وبدنه فإذا صار القلب إلى الله واقطع إليه تعيد بحبه وصار في وثاق العبودية فلم يبق له مفزع في النوائب ولا ملجأ غيره ويصير عدته وشدته وذخيرته في نوائبه وملجأه في نوازله ومستعانه في حوائجه وضروراته .

وأما الغرة فهي حال المغتر الذي غرته نفسه وشيطانه وهواه وأمله الخائب الكاذب يبربه حتى أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان ، والغرور فتتك بمن لا يوثق به وسكونك إلى من لا يسكن إليه ورجاؤك النفع من المحل الذي لا يأتي بخير كحال المغتر بالسراب قال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عهده فرجاه حسابه والله سريع الحساب) وقال تعالى في وصف المغترين (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شيء (وبدأهم من الله ما لم يكونوا يحسبون) وفي أثر معروف إذا رأيت الله سبحانه يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره فانما هو استدراج يستدرجك به . وشاهد هذا في القرآن في قوله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبسورون) وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره فالشيطان وكل بالغرور ، وطبع النفس الامارة الاغترار فإذا اجتمع الرأي والبغى والرأى

المحتاج (١) والشيطان الغرور والنفس المغتره لم يقع هناك خلاف . فالشياطين غرروا المغترين بالله وأطمعهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويفضسه في عفوه وتجاوزه وحدثهم بالتوبة لتسكن قلوبهم ثم دافعهم بالتسوية حتى هجم الاجل فأخذوا على أسوأ أحوالهم وقال تعالى (وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وقرم بالله الغرور) وقال تعالى (يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور) وأعظم الناس غروراً بربه من إذا مسه الله برحمته منه وفضل (قال هذا لي) أى أنا أهله وجدير به ومستحق له ثم قال (وما أظن الساعة قائمة) فظن انه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله ثم زاد في غروره فقال (ولئن رجعت إلى ربي ان لي عنده للحسنى) يعنى الجنة والكرامة وهكذا تكون الغرة بالله فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك .

فصل

والفرق بين الرجاء والتمنى أن (الرجاء) يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز (والتمنى) حديث النفس بمحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه قال تعالى (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) فطوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء وقال المغترون إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ما أسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمة ، وليس هذا يبدع من غرور النفس والشيطان لهم فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر فقل بين عينيه ما وعده الله تعالى من كرامته وجنته امتد القلب ما مثلاً إلى ذلك شوقاً إليه وحرصاً عليه فهو شبيه بالمداد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه . وعلامة الرجاء الصحيح أن الراجى يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها فثله مثل رجل خطب امرأة كريمة في منصب وشرف إلى أهلها فلما آن وقت العقد واجتماع الأشراف والأكابر وإتيان الرجل إلى الحضور علم عشية ذلك اليوم ليتأهب للحضور فتراه المرأة وأكابر الناس فأخذ في التأهب والتزين والتجميل فأخذ من فضول شعره وتظف وتطيب ولبس أجمل ثيابه وأتى إلى تلك الدار متقياً في طريقه كل وسخ وذنس وأثر يصيبه أشد تقوى حتى الغبار والدخان وما هو ودن ذلك فلما وصل إلى الباب رحب به ربهها ومكن له في صدر الدار على الفرش والوسائد ورمقته العيون وقصد بالكرامة من كل ناحية فلما ذهب بعد أخذ

هذه الزينة تجلس في المزابل وتمرغ عليها وتملك بها وتلطخ في بدنه وثيابه بما عليها من عذرة
وقدر ودخل ذلك في شعره وبشره وثيابه لجاء على ذلك الحال إلى تلك النار وقصد دخولها
للوعد الذي سبق له لتمام إليه البواب بالضرب والطرود والسياح عليه والإبعاد له من بابها
وطريقها فرجع متحيراً غاسماً . فالأول حال الراجي وهذا حال المتمني ، وإن شئت مثلت
حال الرجلين بملك هو من غير الناس وأعظمهم أمانة . وأحسنهم معاملة لا يضيع لديه حق
أحد وهو يعامل الناس من وراء سترا يراه أحد وبضائعه وأمواله وتجاراته وعبيده وإماؤه
ظاهر بارز في داره للمعاملين فدخل عليه رجلان فكان أحدهما يعامله بالصدق والأمانة
والنصيحة لم يجرب عليه غشاً ولا خيانة ولا مكرراً فباعه بضائعه كلها واعتمد مع بماليكه
وجواريه مما يجب أن يعتمد معهم فكان إذا دخل إليه ببضاعة تخير له أحسن البضائع وأحبها
إليه وإن صنعها بيده بذل جهده في تحسينها وتجميلها وجعل ما خفي منها أحسن ما ظهر ويستلم
المؤنة من أمره أن يستلها منه وامتل ما أمره به السفير بينه وبينه في مقدار ما يعمله ،
صفته وهيبته وشكله ورقته وسائر شئونه ، وكان الآخر إذا دخل دخل بأخس بضاعة
يوجد هام تخلصها من الغش ولا نصح فيها ولا اعتمد في أمرها ما قاله المترجم عن الملك والسفير
بينه وبين الصناع والنجار . بل كان يعملها على ما يهواه ومع ذلك فكان يخون الملك في داره
إذ هو غائب عن عينه فلا يلوح له طمع إلا خانه ولا حرمة للملك إلا مد بصره إليها وحرص
على إفسادها ولا شيء يسخط الملك إلا ارتكبه إذا قدر عليه فضياعاً على ذلك مدة ثم قيل إن
الملك يبرز اليوم لمعامله حتى يحاسبهم ويعطيهم حقوقهم فوقف الرجلان بين يديه فعامل
كل واحد منهما بما يستحقه . فتأمل هذين المثليين فإن الواقع مطابق لهما فالراجي على الحقيقة
لما صارت الجنة نصب عينه ورجاهه وأمله امتد إليها قلبه وسعى لها سعيها فان الرجاء هو
امتداد القلب وميله ، وحق رجاءه كمال التأهب وخوف الفوت والاختذ بالحذر . وأصله
من التنحر ورجا البئر ناحيته وإرجاء السماء نواحيها وامتداد القلب إلى المحبوب منقطعاً
عما يقطعه عنه هو تنح عن النفس الأهارة وأسبابها وما تدعو إليه وهذا الامتداد والميل
والخوف من شأن النفس المطمئنة فان القلب إذا انفتحت بصيرته فرأى الآخرة وما أعد
الله فيها لأهل طاعته وأهل معصيته خاف وخف مرتحلاً إلى الله والدار الآخرة وكان قبل
ذلك مطمئناً إلى النفس ، والنفس إلى الشهوات والدنيا فلما انكشف عنه غطاء النفس خف
وارتحل عن جوارها طالباً جوار العزيز الرحيم في جنات النعيم ، ومن هنا صار كل خائف
راجياً وكل راج خائفاً فأطلق اسم أحدهما على الآخر فان الراجي قلبه قريب الصفة من
قلت الخائف هذا الراجي قد نحى قلبه عن مجاورة النفس والدييطان مرتحلاً إلى الله
قد رفع له من الجنة علم فشمير إليه وله ماداً إليه قلبه كله ، وهذا الخائف فار من

جوارهما ملتجئاً إلى الله من حيبه في سجنها في الدنيا فيحبس معها بعد الموت ويوم القيامة فإن المرء مع قرينه في الدنيا والآخرة فلما سمع الوعيد ارتحل من مجاورة جار السوء في الدارين فأعطى اسم الخائف ، ولما سمع الوعد امتد واستطار شوقاً إليه وفرحاً بالظفر به فأعطى اسم الراجي وحاله متلازمان لا ينفك عنهما فكل راج خائف من فوات ما يرجوه كما أن كل خائف راج أمنه مما يخاف ، فلذلك تداول الاسمان عليه قال تعالى (ما لكم لا ترجون لله وقاراً) قالوا في تفسيرها لا تخافون لله عظمة . وقد تقدم أن سبحانه طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا وقد فرس النبي صلى الله عليه وآله وسلم الإيمان بأنه ذر شعب وأعمال ظاهرة وباطنة وفسر الهجرة بأنها هجر ما نهى الله عنه ، والجهاد بأنه جهاد النفس في ذات الله فقال المهاجر من هجر ما نهى الله عنه والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله والمقتصد أن الله سبحانه جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من سواهم من هذه الأمم .

وأما الأمانى فإنها رهوس أموال المفاليس أخرجوها في قالب الرجاء وتلك أمانهم وهي تصدر من قلب تراحت عليه وسواس النفس فأظلم من دخانها فهو يستعمل قلبه في شبهاتها وكذا فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة واحالته على العفو والمغفرة والفضل وإن الكريم لا يستوفى حقه ولا ينصره الذنوب ولا تنقصه المغفرة ويسمى ذلك رجاء وإلما هو وسواس وأمانى باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل فيستريح إليها قال تعالى (ليس بأمانكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزيه ولا يجند له من دون الله ولياً ولا نصيراً) فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته ولم يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ، وإذا ترك ولايته ونصرته تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له ووكلاً إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلاً من نصرته الله ورسوله فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه وبنصرته نصرته نفسه وهواه فلم يدع للرجاء موضعاً . فإذا قالت لك النفس أنا في مقام الرجاء فطالها بالبرهان رقل هذه أمنية فها تورا برهانكم إن كنتم صادقين ، فالكيس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء والأحق العاجز يعطل أعمال البر ويتسكل على الأمانى التي يسميها رجاء . والله الموفق .

فصل

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات ولها ومحض جوده وإحسانه فهو ممن عليه باظهارها والتحدث بها شاكر آ له ناشراً لجميع ما أولاه مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء وبعث النفس على الطلب منه دون غيره وعلى محبته ورجائه فيسكون راغباً إلى الله باظهار نعمه ونشرها والتحدث بها .

وأما الفخر بانعم فهو أن يستطيل بها على الناس ويريمهم أنه أعز منهم وأكبر ، فيركب
أهناقم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة قال الثعمان بن بشير إن للشيطان
مصالي^(١) وغوخاً وإن من مصاليه وغوخه البطش بنعم الله والكبر على عباد الله والفخر
بعطية الله والهون في غير ذات الله .

فصل

والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر فإن الفرح بالله ومعرفة ومحبة وكلامه من
القلب قال تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) فإذا كان أهل الكتاب
يفرحون بالوحي فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به وقال تعالى (وإذا ما أنزلت
سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون)
وقال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) قال أبو سعيد
الحدرى فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله وقال هلال بن يساف فضل الله ورحمته
الإسلام الذي هداكم إليه والقرآن الذي علمكم هو خير من الذهب والفضة الذي تجمعون .
وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين فضل الله الإسلام ورحمته القرآن ، فهذا
فرح القلب وهو من الإيمان ويثاب عليه العبد فان فرحه به يدل على رضاه به بل هو فوق
الرضا فالفرح بذلك على قدر محبته فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحجوب وعلى قدر محبته
يفرح بمصولة له فالفرح باقه وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته
ولبه وله عبودية دجبية وأثر في القلب لا يبر عنه فإبتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه
وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أنضل ما يعطاه بل هو جل عطاياه ، والفرح في الآخرة بالله
ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا ، فالفرح بالوصول إلى المحجوب يكون على حسب
قوة المحبة وضعفها ، فهذا شأن فرح القلب ، وله فرح آخر وهو فرحه بما من الله به عليه من
معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به وكلما تمكن في ذلك قوى
فرحه وابتهاجه ، وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن وهي الفرحة التي تحصل له
بالتوبة فإن لها فرحة عجيبة لانسبة لفرحة المعصية إليها البتة ، فلو علم العاصي أن لذة التوبة
وفرحتها يزيد على لذة المعصية^(٢) وفرحتها أضغافاً مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى
لذة المعصية .

(١) جمع مصلاه أى شرك وفتحتين، كما فى النهاية .

(٢) هذه هى لذة النفس التى تقابل لذة القلب .

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر ،
ولقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم
منه وهو فرح رجل قد خرج براحلته التي عليها طعامه وشرابه في سفر ففقدتها في أرض هوية
مهلكة فاجتهد في طلبها فلم يجدها فيئس منها فجلس ينتظر الموت حتى إذا طلع البدر رأى في
ضوئه راحلته وقد تعلق زمامها بشجرة فقال من شدة فرحه اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ
من شدة الفرح فآله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته .

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة ولكن ها هنا أمر يجب التنبيه
عليه وهو أن لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن لا تثبت لها الجبال فإن صبر
لها ظفر بلذة الفرح وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء وآخر أمره فوات ما آثره
من فرصة المعصية ولذتها فيفوته الأمان ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود
المؤذى وفوت المحبوب فالحكيم لله العلى الكبير .

فصل

وها هنا فرحة أعظم من هذا كله وهى فرحته عند مفارقتة الدنيا إلى الله إذا أرسل إليه
الملائكة فبشروه بلفائه وقال له ملك الموت أخرجى أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب
أبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان ، اخرجى راضية مرضيا عنك (يا أيتها النفس
المطمئنة أرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى في عبادى وادخلى جنتى) فلو لم يكن
بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بإثارها فكيف ومن بعدها
أنواع من الفرح منها الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه ، ومنها فتح ابواب السماء
لها وصلاة ملائكة السماء عليها وتشيع مقربها لها إلى السماء الثانية فتفتح ويصل عليها أهلها
ويشيعها مقربوها هكذا إلى السماء السابعة فكيف يقدر فرحها وقد استؤذن لها على ربها وولها
وحبيبها فوقت بين يديه واذن لها بالسجود فسجدت ثم سمعته سبحانه يقول اكتبوا كتابه
في عابدين ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعدته فيها وما أعد الله له ويلقى أصحابه وأهله فيستبشرون
به ويفرحون به ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله فيجدم على أحسن حال ويقدم عليهم
بخير ما قدم به مسافر هذا كله قبل الفرح الأكبر يوم حشر الأجساد مجلوسه في ظل العرش
وشربه من الخوض وأخذه كتابه بيمينه وثقل ميزانه وبياض وجهه واعطاه النور التام
والناس في الظلة وقطعه جسر جهنم بلا تعويق وانتهاه إلى باب الجنة وقد أزلقت له في
لموقف وتلقى خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة وقدمه على منازله وقصوره
وأزواجه وسراريه .

وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه تتلاشى هذه الافراح كلها عنده وإنما يكون هذا لاهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه اياهم ومحاضرتهم لهم :

ولست هذه الفرحات الا	لذى الترحات فى دار الرزايا
فشمرا استطعت الساق واجهد	لملك أن تفوز بذى العطايا
وصم عن لذة حشيت بلاء	المذات خلصن من البلايا
ودع أمنية إن لم تنلها	تعذب أو تنل كانت منايا
ولا تستبط وعدا من رسول	أتى بالحق من رب البرايا
فهذا الوعد أدنى من نعيم	مضى بالامس لو وفقت رايا

فصل

والفرق بين رقة القلب والجزع أن الجزع ضعف فى النفس وخوف فى القلب بمدته شدة الطمع والحرص ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر وإلا فتى علم أن المقدر كائن ولا بد كان الجزع عناء محضا ومصيبة ثانية قال تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) فتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدره فى الحاضر والغائب لم يجزع ولم يفرح. ولا يئس هذا رقة القلب فانها ناشئة من صفة الرحمة التى هى كمال والله سبحانه وإنما يرحم من عباده الرحاء وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرق الناس قلبا وأبعدهم من الجزع ، فرقة القلب رافة ورحمة ، وجزعه مرض وضعف ، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الامارة فأخذ بأنفاسه وضيق عليه مسالك الآخرة وصار فى بحن الهوى والنفس وهو يحزن ضيق الأرجاء مظلم المسلك فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحمته فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعدوا متلا من محبة الله واجلاله رق وصارت فيه الرافة والرحمة فتراه رحما رفيق القلب بكل ذى قرينى ومسلم يرحم الغلظة فى جرحها والطير فى وكره فضلا عن بنى جنسه فهذا أقرب القلوب من الله قال أنس كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرحم الناس بالعيال . والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبداً أسكن فى قلبه الرافة والرحمة وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرافة وأبدله بهما الغلظة والقسوة وفى الحديث للثابت لا تنزع الرحمة إلا من شقى ، وفيه من لا يرحم لا يرحم ، وفيه ارحموا من فى الأرض

يرحمكم من في السماء ، وفيه أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط . تصدق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قرى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال . والصديق رضى الله عنه إنما فضل الامة بما كان في قلبه من الرحمة العامة زيادة على الصديقية ولهذا أظهر أثرها في جميع مقدماته حتى في الاسارى يوم بدر واستقر الأمر على ما أشار به وضرب له صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً بعيسى وإبراهيم ، والرب تعالى هو الرؤوف الرحيم وأقرب الخلق إليه وأعظمهم رافة ورحمة كما أن أبعدهم منه من اتصف بصد صفاته وهذا باب لا يليج إلا الأفراد في العالم .

فصل

والفرق بين الموجدة والحقد أن الوجد الاحساس بالمؤلم والعلم به وتحرك النفس في رفعه فهو كال . وأما الحقد فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت فيمن وجدت عليه فلا يزال القلب أثره .

و فرق آخر وهو أن الموجدة لما ينالك منه ، والحقد لما يناله منك ؛ فالموجدة وجود مانالك من أذاه ، والحقد توقع وجود ما يناله من المقابلة ؛ فالموجدة سريعة الزوال والحقد بطيء الزوال ، والحقد يجيء مع ضيق القلب واستيلاء ظلمة النفس ودخانها عليه ، بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته وصلابته وقوة نوره وإحساسه .

فصل

والفرق بين المنافسة والحسد أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذى تشاهد من غيرك فتنافس فيه حتى تلحقه أو تجاوزه فهى من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر قال تعالى (وفي ذلك فيلتنافس المتنافسون) وأصلها من الشيء النفيس الذى تتعلق به النفوس طلباً ورغبة فينافس فيه كل من النفسين الأخرى وربما فرحت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه بل يحض بعضهم بعضاً عليه مع تنافسهم فيه وهى نوع من المسابقة وقد قال تعالى (فاستبقوا الخيرات) وقال تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء) وكان عمر بن الخطاب يسابق أبابكر رضى الله عنهما فلم يظفر بسبقه أبداً فلما علم أنه قد استولى على الإمامة قال والله لأسبقك إلى شيء أبداً وقال والله ماسبقته إلى خير إلا وجدته قد سبقني إليه . والمتنافسان كعبد بن بين يدي سيدها يتباريان ويتنافسان في مرضاته ويتسابقان إلى محابه ، فسيدها يعجبه ذلك منهما ويحبها عليه وكل منهما يحب الآخر ويمرضه على مرضاة سيده .

والحسد خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ليس فيها حرص على الخير فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والحامد ويفوز بها دونها وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها في العدم كما قال تعالى (ودوا لو تكفروا كما ~~كفروا~~ فتكفرون سواء) وقال تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو والمنافس مسابق للنعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويجب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل والحسود يجب انحطاط غيره حتى يساويه في التقصان وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة فمن جعل نصب عينيه شخصاً من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيراً فإنه يتشبه به ويطلب الحاق به والتقدم عليه وهذا لانذمه ، وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاحسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار ورجل آتاه الله مالا فسلطه على مملكته في الحق ، فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل .

فصل

والفرق بين حب الرياسة وحب الإمامة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها فإن الناصح لله المعظم له المحب له يجب أن يطاع ربه فلا يعصى وأن تكون كلمته هي العليا وأن يكون الدين كله لله وأن يكون العباد بمثلين أو امره مجتنبين نواهيه فقد ناصح الله في عبوديته وناصح خلقه في الدعوة إلى الله فهو يجب الإمامة في الدين بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين أما ما يقتدى به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً وفي قلوبهم مهيباً واليهم حبيبا وأن يكون فيهم مطاعاً لكي يأتمروا به ويقتفوا أثر الرسول على يده لم يضره ذلك بل يحمده عليه لأنه داع إلى الله يجب أن يطاع ويمد ويوحده فهو يجب ما يكون عوناً على ذلك موصلاً إليه ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم في تزييله وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ثم قال (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماماً) فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة فإنما سألوهم ما يعانون به المتقين على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين كما قال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا

بآياتنا يوقنون) وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم وين عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهراً وباطناً التي لا تتم إلا بالإمامة إليها ، ونأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جلاله ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته ، ونأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الفرف وهي المنازل العالية في الجنة لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة يطاها العبد في الدين كان جزاؤه عليها العرفه السالية في الجنة .

وهذا بخلاف طلب الرياسة فان طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم فترتب على هذا المطلب من المفساد ما لا يعلمه إلا الله من البغى والحسد والطغيان والحقد والظلم والقتة والحمية للنفس دون حق الله وتعظيم من حقره الله واحتقار من أكرمه الله ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ولا تنال إلا به وبأصنافه من المفساد والرؤساء في عمى عن هذا فاذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه ولا سيما إذا حشروا في صور النمر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده .

فصل

والفرق بين الحب في الله والحب مع الله وهذا من أهم الفروق وكل أحد محتاج بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا ، فالحب في الله هو من كمال الإيمان والحب مع الله هو عين الشرك والفرق بينهما أن الحب في الله تابع لمحبة الله فاذا تمكنت محبته من قلب العبد أوجبت تلك المحبة الله يجب ما يحبه الله فاذا أحب ما أحبه ربه ووليه كان ذلك الحب له وفيه كما يجب رسله وأنبياءه وملائكته وأوليائه لكونه تعالى يحبهم ، ويبغض من يبغضهم لكونه تعالى يبغضهم وعلامة هذا الحب والبغض في الله أنه لا يتقلب بغضه لبغض الله حباً لإحسانه إليه وخدمته له وقضاء حوائجه ، ولا يتقلب حبه لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليه من جهته ما يكرهه ويؤله إما خطأ وإما عمداً مطيعاً لله فيه أو متأولاً أو مجتهداً أو باغياً نازعاً تائباً والدين كله يدور على أربع قواعد حب وبغض ويترتب عليهما فعل وترك فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله فقد استكمل الإيمان بحيث إذا أحب أحب الله وإذا أبغض أبغض الله وإذا فعل فعل الله وإذا ترك ترك الله ، وما نقص من أصنافه هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه . وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان يقدح في أصل التوحيد وهو شرك ونوع يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يخرج من الإسلام .

(فالأول) كحبة المشركين لاوثانهم وأناداهم قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله كما يحبون الله فهذه محبة تأله وموالاته يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله . ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ومعاداتهم ومحاربتهم وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه وفي مرضاته فكل من عبد شيئاً من لدن عرشه إلى قرار أرضه فقد اتخذ من دون الله إلهاً وولياً وأشرك به كأننا ذلك المعبود ما كان ولا بد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه .

(والنوع الثاني) محبة مازينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحراث فيحبها محبة شهوة كحبة الجائع للطعام والظمان للماء فهذه المحبة ثلاثة أنواع فإن أحبها لله توصلها اليه واستعانته على مرضاته وطاعته أثير عليها وكانت من قسم الحب لله توصلها اليه ويلتذ بالتمتع بها وهذا حاله أكمل الخلق الذي حبب اليه من الدنيا النساء والطيب وكانت محبته لهما عوناً له على محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره، وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه وإرادته ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه بل نالها بحكم الميل الطبيعي كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه وإن كانت هي مقصوده ومراده وسمعه في تحصيلها والظفر بها وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالمًا لنفسه متبعاً لهواه .

(فالأولى) محبة السابقين .

(والثانية) محبة المقتصدین .

(والثالثة) محبة الظالمين .

فتأمل هذا الموضوع وما فيه من الجمع والفرق فانه معترك النفس الامارة والمطمئنة .
والمهدي من هداه الله .

فصل

والفرق بين التوكل والعجز أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله وثقة به والتجاء إليه وتفويضاً إليه ورضا بما يقضيه له لعله بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعمده إذا فوض إليه مع قيامه بالاسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها فقد كان رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم أعظم المتوكلين وكان يلبس لامته ودرعه بل ظاهر يوم أحد بين درعين واختمني في الغار ثلاثاً فكان متوكلاً في السبب لا على السبب .

وأما العجز فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما فإما أن يعطل السبب عجزاً منه ويزعم أن ذلك توكل ولعمرك أنه لعجز وتفریط وإما أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر ولم يعلق قلبه به تعلقاً تاماً بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب فهذا توكله عجز وعجزه توكل .

وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطا (فأحد الطرفين) عطل الاسباب محافظة على التوكل .

(والثاني) عطل التوكل محافظة على السبب (والوسط) علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب فتوكل على الله في نفس السبب ، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متعن كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل في حصول الولد ، وعطل الحرث والبذر وتوكل في حصول الزرع ، وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول انتشع والرى فالتوكل نظير الرجاء ، والعجز نظير التمني حقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلا له قدفوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله للأمام بكفايته نهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتياط وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه وأخبره أنه سبحانه الملى بالوكالة الوفي بالكفالة فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره وقعد كسلان طالباً للراحة مؤثراً للدعة يقول الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله وسيأتي ما قدر لي على ضعفي ولن أنال ما لم يقدر لي مع قوتي ولو أتى هربت من رزقي كما هربت من الموت للحقني فيقال له نعم هذا كله حتى وقد علمت أن الرزق مقدر فما يدريك كيف قدر لك ، بسعيك أم بسعي غيرك ، وإذا كان بسعيك فبأي سبب ومن أي وجه ، وإذا خفي عليك هذا كله فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوا بلاسعى ولاكد فكفم من شيء سمعت فيه فقدر لغيرك وكفم من شيء سمع فيه غيرك فقدر لك رزقا ! فإذا رأيت هذا عياناً فكيف علمت أن رزقك كله بسعي غيرك ؟ وأيضا فهذا الذي أوردته عليك النفس يجب عليك طرده في جميع الاسباب مع مسيبتها حتى في أسباب دخول الجنة والنجاة من النار فهل تعطلها اعتماداً على التوكل أم تقرم بها مع التوكل ؟ بل لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله وملا قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الاسباب فسكن قلبه إلى الله واطمأن

إليه ووثق به وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه فلم يعطل السبب وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه فكان توكله أوثق الأسباب عنده ، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنع من ذلك أو من كماله فلم يتسع قلبه للأميرين فأعرض أحدهما إلى الآخر ولا يرب أن هذا أكل حالاً من امتلاء قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه وأكمل منهما من جمع الأمرين وهي حال الرسل والصحابة فقد كان زكريا نجاراً وقد أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتماداً على التوكل بل كانوا أقوم الناس بالأميرين ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل وعمروا أمورهم وأصلحوها وأعدوا لاهليهم كفائتهم من القوت اقتداءً بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله .

فصل

والفرق بين الاحتياط والوسوسة ان الاحتياط الاستقصاء والمبالغة في اتباع السنة وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من غير غلو ومجاوزة ولا تقصير ولا تفریط فهذا هو الاحتياط الذي يرضاه الله ورسوله ، وأما الوسوسة فهي ابتداء ما لم تأت به السنة ولم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أحد من الصحابة زاعماً أنه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضبطه كمن يحتاط بزعمه ويفضل أعضائه في الوضوء فوق الثلاثة فيسرف في صب الماء في وضوئه وغسله ويصرح باللفظ بنية الصلاة مراراً أو مرة واحدة ويفسّل ثيابه عما لا يتيقن نجاسته احتياطاً ويرغب عن الصلاة في نعله احتياطاً إلى أضعاف أضغاف هذا مما اتخذهُ الموسوسون ديناً وزعموا أنه احتياط وقد كان الاحتياط باتباع هدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما كان عليه أولى بهم فإنه الاحتياط الذي من خرج عنه فقد فارق الاحتياط وعدل عن سواء الصراط والاحتياط كل الاحتياط الخروج عن خلاف السنة ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم .

فصل

والفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه (منها) أن ما كان لله موافقاً لمرضاته وما جاء به رسوله فهو من الملك وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان (ومنها) أن ما أئمر إقبالاً على الله وإذابة إليه وذكر آله وهمة صاعدة إليه فهو من إلقاء الملك وما أئمر ضد ذلك فهو من إلقاء الشيطان (ومنها) أن ما أورث أنساً ونوراً في القلب وانشراحاً في الصدر فهو من الملك وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان (ومنها) أن ما أورث

سكينة وطمأنينة فهو من الملك وما أورث تلقاً وانزعاجاً واضطراباً فهو من الشيطان (فالإلهام الملكي) يكثر في القلوب الطاهرة النقية التي قد استنارت بنور الله فللملك بها اتصال وبينه وبها مناسبة فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلباً يناسبه فتكون لمة الملك بهذا القاب أكثر من لمة الشيطان ، وأما القلب المظلم الذي قد اسود بدخان الشهوات والشبهات فالتقاء الشيطان والله به أكثر من لمة الملك .

فصل

والفرق بين الاقتصاد والتقصير أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط وله طرفان هما صدان له تقصير ومجازة فالمتصد قد أخذ بالتوسط وعدل عن الطرفين قال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) وقال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وقال تعالى (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) والدين كله بين هذين الطرفين بل الإسلام قصد بين الملل والسنة قصد بين البدع ودين الله بين العالی فيه والجافي عنه وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر ، والغلو مجاوزته وتمديه وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان فاما إلى غلو ومجازة وإما إلى تفريط وتقصير وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به لا من ترك ما جاء به لاقوالهم وآرائهم وهذا أن المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بني آدم ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير وخوفوا من بلي بأحدهما بالهلاك وقد يجتمعان في الشخص الواحد كما هو حال أكثر الخلق. يكون مقصراً مفرطاً في بعض دينه غالباً متجاوزاً في بعضه والمهدى من هداة الله .

فصل

والفرق بين النصيحة والتأنيب أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعابه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه فيتلطف في بذلها غاية التلطف ويحتمل أذى المنصوح ولا يمتنه ويماءله معاملة الطبيب العالم المشفق المريض المشع مرضاً وهو يحتمل سوء خلقه وشرامته ونفرتة ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل يمكن فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب فهو رجل قصده التعبير والإهانة وذم من أنبه وشتمه في صورة النصح فهو يقول له يا فاعل كذا وكذا يا مستحقاً للذم والاهانة في صورة ناصح مشفق ، وتلامه هذا أنه

لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له ولم يقل له شيئاً ويطلب له وجوه المعاذير فإن غلب قال وإني ضمننت له العصمة والإنسان عرضة للخطأ ومحاسنه أكثر من مساويه والله غفور رحيم ونحو ذلك فيا عجبا كيف كان هذا المنيح يحبه دون من يبغضه وكيف كان حظ ذلك منك التأنيب في صورة النصح وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير .

ومن الفروق بين الناصح والمؤنب أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته وقال قد وقع أجرى على الله قلت أو لم تقبل ويدعوك بظهر الغيب ولا يذكر عيوبك ولا يبينها في الناس، والمؤنب بعد ذلك .

فصل

والفرق بين المبادرة والعجلة أن المبادرة انتهاز الفرصة في وقتها ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبها فهو لا يطلب الأمور في أدبارها ولا قبل وقتها بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها ووثب الأسد على فريسته فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة وقت كمال نضالها وإدراكها .

والعجلة طلب أخذ الشيء قبل وقته فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها فالمبادرة وسط بين خفتين مذمومين أحدهما التفريط والإضاعة والثاني الاستعجال قبل الوقت . ولهذا كانت العجلة من الشيطان فإنها خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها وتجلب عليه أنواعا من الشرور وتمنعه أنواعا من الخير وهي قرين الندامة فقل من استعجل إلا ندم كما أن الكسل قرين القوت والإضاعة .

فصل

والفرق بين الاخبار بالحال وبين المكوى وإن اشتبهت صورتها أن الاخبار بالحال يقصد المخبر به قصداً صحيحاً من علم سبب إدانته أو الاعتذار لآخيه من أمر طلبه منه أو يحذره من الوقوع في مثل ما وقع فيه فيكون ناصحاً بإخباره له أو حمله على الصبر بالتأسي به كما يذكر عن الأحنف أنه شكاً إليه رجل شكوى فقال يا ابن أخي لقد ذهب ضوء عيني من كذا وكذا سنة فما أعلنت به أحداً فني ضمن هذا الاخبار من حل الشاكي على التأسي والصبر حائثاب عليه الخير وصورته صورة الشكوى ولكن القصد ميز بينهما، ولعل من هذا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما قالت عائشة وأرأساه فقال بل أنا وأرأساه أي الراجع القوي بي

أنا دونك فتأسي بنى فلا تشكى ، ويلوح لى فيه معنى آخر وهو أنها كانت حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق فلما اشتكت إليه رأسها أخبرها أن بمحبها من الألم مثل الذى بها وهذا غاية الموافقة من المحب ومحبوبه يتألم بتألمه ويسر بسروره حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة فالمعنى الأول يفهم انك لا تشكى واصبرى فى من الموضع مثل ما بك فتأسى بنى فى الصبر وعدم الشكوى . والمعنى الثانى يفهم اعلامها بصدق محبته لها أى انظرى قوة محبتي لك كيف واسيتك فى ألمك ووجع رأسك فلم تكونى متوجعة وأنا سليم من الوجع بل يؤمنى ها يؤملك كما يسرنى ما يسرك كما قيل :

وان أول البرايا أن توأسيه عند السرور الذى واساك فى الحزن

وأما الشكوى فالأخبار العارى عن القصد الصحيح بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلى إلى غيره فان شكاً إليه سبحانه وتعالى لم يكن ذلك شكوى بل استعطاف وتملق واسترحام له كقول أيوب (ربى أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) وقول يعقوب (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) وقول موسى : اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك ، وقول سيد ولد آدم اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى غير أن عافيتك أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك أو ينزل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك فالشكوى إلى الله سبحانه لاتنافى الصبر بوجه فإن الله تعالى قال عن أيوب (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) مع اخباره عنه بالشكوى إليه فى قوله (مسنى الضر) وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعده من نفسه بالصبر الجميل والنبي إذا قال وفى مع قوله (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) ولم يجعل ذلك نقصاً لصبره . ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم كما قال بعضهم لما قال (مسنى الضر) قال تعالى (إنا وجدناه صابراً) ولم يقل صبوراً حيث قال مسنى الضر ، وقال بعضهم لم يقل ارحمنى وإنما قال أنت أرحم الراحمين فلم يزد على الأخبار بحاله ووصف ربه ، وقال بعضهم إنما شكنا مس الضر حين ضعف لسانه عن الذكر فشكنا مس ضر ضعف الذكر لاضر المرض والألم ، وقال بعضهم استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة ، وكان هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافى الصبر وغلط أقبح الغلط فالمنافى للصبر شكواه لا الشكوى إليه فافهه يبلى عبده ليسمع تضرعه ودعائه والشكوى إليه ولا يجب التجلد عليه

وأحب ما إليه انكسار قلب عبده. بين يديه وتذلل له واظهار ضعفه وفاقته وعجزه وقلة صبره
فاحذر كل الحذر من إظهار التجلده عليه وعليك بالتضرع والتمسك وإبداء العجز والفاقة والذل
والضعف فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم .

فصل

وهذا باب من الفروق مطول ولعل إن ساعد القدر أن نفرده فيه كتابا كبيرا وإنما نهينا بما
ذكرنا على أصوله والليبي يكتبني ببعض ذلك والدين كله فرق وكتاب الله فرقان ومحمد صلى
الله عليه وآله وسلم فرق بين الناس ومن اتقى الله جعل له فرقانا (يا أيها الذين آمنوا إن
تقوا الله يجعل لكم فرقانا) وسمى يوم بدر يوم الفرقان لأنه فرق بين أولياء الله وأعدائه
فألهدى كله فرقان ، والضلال أصله الجمع كما جمع المشركون بين عبادة الله وعبادة الأوثان ومحبه
وحبة الأوثان وبين ما يحبه ويرضاه وبين ما قدره وقضاه لجمعوا الأمر واحد واستدلوا بقضائه
وقدره على محبه ورضاه وجمعوا بين الربا والبيع فقالوا (إنما البيع مثل الربا) وجمعوا بين
المذكي والميتة وقالوا كيف نأكل ما قتلنا ولأننا كل ما قتل الله ، وجمع المسلمون عن الشرائع
بين الحلال والحرام فقالوا هذه المرأة خلقها الله وهذه خلقها وهذا الحيوان خلقه وهذا خلقه
فكيف يحل هذا ويحرم هذا ؟ وجمعوا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وجمعت طائفة
الاتحادية فطموا الوادي على القرى وجمعوا الكل في ذات واحدة وقالوا هي الله الذي لا إله
إلا هو وقال صاحب فصوصهم وواضع نصوصهم واعلم أن الأمر قرآنا لا فرقانا :

ما الأمر الا نسق واحد ما فيه من مدح ولا ذم
وإنما العادة قد خصصت والطبع والشارع بالحكم

والمقصود أن أرباب البصائر هم أصحاب الفرقان فأعظم الناس فرقانا بين المشتبهات أعظم
الناس بصيرة . والتشابه يقع في الأقوال والأعمال والأحوال والأموال والرجال وإنما أتى
أكثر أهل العلم من التشابهات في ذلك كله ولا يحصل الفرقان إلا بنور يقذفه الله في قلب من
يشاء من عباده يرى في ضوئه حقائق الأمور ويميز بين حقها وباطلها وصحيحها وسقيمها (ومن
لم يجعل الله له نورا فإنه من نور) ولا تستطل هذا الفصل فلمله من أنفع فصول الكتاب
والحاجة إليه شديدة فان رزقك الله فيه بصيرة خرجت منه إلى فرقان أعظم منه وهو الفرق بين
توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين والفرق بين تزيه الرسل وتزيه أهل التعطيل ، والفرق بين
إثبات الصفات والعلو والتكلم والتكليم حقيقة وبين التشبيه والتشليل ، والفرق بين تهميد

للتوحيد العملي الإرادى وبين هضم أرباب المراتب مراتبهم التي أنزلهم الله إياها ، والفرق بين تجريد متابعة المعصوم وبين إهدار أقوال العلماء وإلغائها وعدم الإلتفات إليها ، والفرق بين تقليد العالم وبين الاستضاءة بنور علمه والاستعانة بفهمه والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، والفرق بين الحال الإيماني الرحاني والحال الشيطاني الكفري والحال النفساني ، والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع على كل واحد والحكم المؤول الذي نهايته أن يكون جائز الإلتناع عند الضرورة ولادرك على مخالفه .

فصل

ونحن نختم الكتاب بإشارة لطيفة إلى الفروق بين هذه الأمور إذ كل فرق منها يستدعى بسطه كتاباً كبيراً فالفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين أن توحيد الرسل إثبات صفات الكمال لله على وجه التفصيل وعبادته وحده لاشريك له فلا يجعل له نداً في قصد ولا حب ولا خوف ولا رجاء ولا لفظ ولا حلف ولا نذر بل يرفع العبد الانداد له من قلبه وقصدته ولسانه وعبادته كما أنها معدومة في نفس الأمر لا وجود لها البتة فلا يجعل لها وجوداً في قلبه ولسانه .

وأما توحيد المعطلين فنفي حقائق أسمائه وصفاته وتعطيلها ومن أمكنه منهم تعطيلها من لسانه عطيلها فلا يذكرها ولا يذكر آية تتضمنها ولا حديثاً يصرح بشيء منها ومن لم يمكنه تعطيل ذكرها سطها عليها بالتحريف ونفي حقيقتها وجعلها اسماً فارغاً لا معنى له أو معناه من جنس الألتغاز والاحاجي على أن من طرد تعطيله منهم على أنه يلزمه في ما حرف اليه النص من المعنى نظير ما فر منه سواء فإن لزم تمثيل أو تشبيه أو حدوث في الحقيقة لزم في المعنى الذي حمل عليه النص وإن لا يلزم في هذا فهو أولى أن لا يلزم في الحقيقة فلما علم هذا لم يمكنه إلا تعطيل الجميع فهذا طرد لأصل التعطيل والفرق أقرب منه ولكنه مناقض يتحكم بالباطل حيث أثبت لله بعض ما أثبتة لنفسه ونفي عنه البعض الآخر واللازم الباطل فيهما واحد واللازم الحق لا يفرق بينهما .

والمقصود أنهم سمو هذا التعطيل توحيداً وإنما هو إلحاد في أسماء الرب تعالى وصفاته وتعطيل لحقائقها .

فصل

والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة أن الرسل زهروه سبحانه عن النقائص والعيوب التي نزه نفسه عنها وهي المنافية لكماله وكال ربوبيته وعظمته كالسنة والنوم والعفلة والمرت

واللقوب والظلم وإرادته والتسمي به والشريك والخاصة والظهير والولد والشفيع بدون إذنه وأن يترك عباده سدى هملا وأن يكون خلقهم عبثاً وأن يكون خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً لا ثواب ولا عقاب ولا أمر ولا نهى وأن يسوى بين أوليائه وأعدائه وبين الأبرار والفجار وبين الكفار والمؤمنين وأن يكون في ملكه ما لا يشاء وأن يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه وأن يكون لغیره معه من الأمر شيء وأن يعرض له غفلة أو سهو أو نسيان وأن يخلف وعده أو تبدل كلماته أو يضاف إليه الشر اسماً أو وصفاً أو فعلاً بل أسماءه كلها حسنى وصفاته كلها كمال وأفعاله كلها خير وحكمة ومصلحة ، فهذا تنزيه الرسل لربهم .

وأما المعطلون فنزهوه عما وصف به نفسه من الكمال فنزهوه عن أن يتكلم أو يكلم أحداً ونزهوه عن استوائه على عرشه وأن ترفع إليه الأيدي وأن يصعد إليه السلم الطيب وأن ينزل من عنده شيء أو تخرج إليه الملائكة والروح وأن يكون فوق عباده وفوق جميع مخلوقاته عالياً عليها ، ونزهوه أن يقبض السموات بيده والأرض باليد الأخرى وأن يمسك السموات على أصبع والأرض على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع ونزهوه أن يكون له وجه وأن يراه المؤمنون بأبصارهم في الجنة وأن يكلمهم ويسلم عليهم ويتجلى لهم ضاحكاً وأن ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول من يستغفرني فأغفر له من يسألني فأعطيه فلا نزول عندهم ولا قول ، ونزهوه أن يفعل شيئاً لشيء بل أفعاله لا لحكمة ولا لغرض مقصود ، ونزهوه أن يكون تام المشيئة نافذ الإرادة بل يشاء الشيء ويشاء عباده خلافه فيكون ماشاء العبد دون ماشاء الرب ، ولا يشاء الشيء فيكون ما لا يشاء ويشاء ما لا يكون ، وسما هذا عدلاً كما سوا ذلك التنزيه توحيداً ، ونزهوه عن أن يحب أو يوجب ونزهوه عن الرأفة والرحمة والفضب والرضا ، ونزهه آخرون عن السمع والبصر ، وآخرون عن العلم . ونزهه آخرون عن الوجود فقالوا الذي فر إليه هؤلاء المنزهون من التشبيه والتمثيل يلزمنا في الوجود فيجب علينا أن ننزهه عنه فهذا تنزيه الملحدين والاول تنزيه المرسلين .

فصل

والفرق بين إثبات حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل ما قاله الإمام أحمد ومن وافقه من أئمة الهدى أن التشبيه والتمثيل أن تقول يد كيدى أو سمع كسمعى أو بصر كبصرى ونحو ذلك ، وأما إذا قلت سمع وبصر ويد ووجه واستواء لا يماثل شيئاً من صفات المخلوقين بل بين الصفة والصفة من الفرق كما بين الموصوف والموصوف فأى تمثيل ههنا وأى تشبيهه لولا تلبس الملحدين فدار الحق الذى اتفقت عليه الرسل على أن يوصف الله بما وصف

به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل ، إثبات الصفات ونفي مشابهة المخلوقات فمن شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد حقائق ما وصف الله به نفسه فقد كفر ومن أثبت له حقائق الأسماء والصفات ونفى عنه مشابهة المخلوقات فقد هدى إلى صراط مستقيم .

فصل

والفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب أن تجريد التوحيد أن لا يعطى المخلوق شيئاً من حق الخالق وخصائصه فلا يعبد ولا يصلى له ولا يسجد ولا يحلف باسمه ولا ينسب له ولا يتوكل عليه ولا يؤله ولا يقسم به على الله ولا يعبد ليقرب إلى الله زلفى ولا يساوى برب العالمين في قول القائل ماشاء الله وشئت وهذا منك ومن الله وأنا بالله وبك وأنا متوكل على الله وعليك والله لى فى السماء وأنت فى الأرض وهذا من صدقاتك وصدقات الله وأنا تائب إلى الله وإليك وأنا فى حسب الله وحسبك فيسجد للمخلوق كما يسجد المشركون لشييوخهم ، يحلق رأسه له ويحلف باسمه وينذر له ويسجد لقبره بعد موته ويستغيث به فى حوائجه ومهماتہ ويرضيه بسخط الله ولا يسخطه فى رضا الله ويتقرب إليه أعظم مما يتقرب إلى الله ويحبه ويخافه ويرجوه أكثر مما يحب الله ويخافه ويرجوه أو يساويه . فإذا هضم المخلوق خصائص الربوبية وأنزله منزلة العبد المحض الذى لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً لم يكن هذا تنقصاً له ولا حظاً من مرتبته ولو رغم المشركون وقد صح عن سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال لو نظر نبي كما أطرت الثنارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله . وقال أيها الناس ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي ؛ وقال لا تتخذوا قبري عيداً . وقال اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد وقال لا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد وقال له رجل ماشاء الله وشئت فقال أ جعلتني لله ندا ؟ وقال له رجل قد أذنب اللهم إني أتوب اليك ولأتوب إلى محمد ؛ فقال عرف الحق لأهله وقد قال الله له (ليس لك من الأمر شيء) وقال (قل إنا لأمركا لله) وقال (قل لأملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله) وقال (قل إني لأملك لنفسى ضراً ولا رشداً قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من هونه ملتحداً) أى لن أجد من دونه من النجىء إليه وأعتمد عليه وقال لابنته فاطمة وعمه العباس وعمته صفية لأملك لكم من الله شيئاً وفى لفظ فى الصحيح لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، فعظم ذلك على المشركين بشيوخهم وآلهم وأبوا ذلك كله وادعوا لشييوخهم ومعبودهم خلاف هذا كله وزعموا أن من ألهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم وتقصمهم ، وقد هضموا جانب الإلهية

تأية المضم وتنقصوه فلم نصيب وافر من قوله تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب
الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) .

فصل

والفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم وإهدار أقوال العلماء واللغائها
أن تجريد المتابعة أن لا تقدم على ما جاء به قول أحد ولا رأيه كما أن كان بل تنظر في صحة
الحديث أولاً فإذا صح لك نظرت في معناه ثانياً فإذا تبين لك لم تعدل عنه ولو خالفتك من
بين الشرق المغرب ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيا بل لا بد أن يكون في
الأمة من قال به ولو لم تعلمه فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله بل اذهب إلى
النص ولا تضعف واعلم أنه قد قال به قائل قطعاً ولكن لم يصل إليك ، هذا مع حفظ مراتب
العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه فهم دائرون
بين الأجر والأجرين والمغفرة ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد
عنهم عليها بشبهة أنه أعلم بها منك فإن كان كذلك فن ذهب إلى النص أعلم به منك فهلا وافقته
إن كنت صادقاً فن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف
النص لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم فأنهم كلهم أمروا بذلك فمتبهم حقاً من أمثال
ما أوصوا به لامن خالفهم بخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في
التقاعدة السكوية التي أمروا ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم ، ومن هنا يتبين الفرق
بين تقليد العالم في كل ما قال وبين الاستعانة بفهمه والاستضاء بنور علمه ، فالأول يأخذ
قوله من غير نظر فيه ولا طالب لدليله من الكتاب والسنة بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في
عقده يقلده به ولذلك سمي تقليداً بخلاف ما استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول
إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول فإذا وصل
إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره فن استدلل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق
لاستدلاله بالنجم معنى . قال الشافعي أجمع الناس على أن من استبان له سنة رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم لم يكن له أن يدها لقول أحد .

فصل

والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أن أولياء الرحمن (لاخوف عليهم ولا هم
يخزونون) هم (الذين آمنوا وكانوا يتقون) وهم المذكورون في أول سورة البقرة إلى قوله
(هم المفلحون) وفي وسطها في قوله (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) إلى قوله

(أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وفي أول الإنفال إلى قوله (لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) وفي أول سورة المؤمنين إلى قوله (هم فيها خالدون) وفي آخر سورة الفرقان ، وفي قوله (إن المسلمين والمسلمات) إلى آخر الآية وفي قوله (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون) وفي قوله (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) وفي قوله (إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) إلى قوله (في جنات مكرمون) وفي قوله (الثابتون العابدون الحامدون) إلى آخر الآية .

فأولياء الرحمن هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله في الحرم والحل الذين يخالفون غيره سنته ولا يخالفون سنته لغيرها فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه ولا يتخذون دينهم هواً ولعباً ولا يستجوبون سماع الشيطان على سماع القرآن ولا يؤثرون صحة الاقتان على مرضاة الرحمن ولا الممازف والمثاني على السبع المثاني :

برئنا إلى الله من معشر	هم مرض مورد الضنا
وكم قلت يا قوم أتم على	شفا حرف من سماع الضنا
فلما استهانوا بتنبئنا	تركنا هويها وما قد جنا
وهل يستجيب لداعي الهدى	غوى اصار الضنا ديدنا ؟
فمشنا على ملة المصطفى	وماتوا على تاتنا تلتنا

ولا يشبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقده البصيرة والإيمان وأن يكون المعرضون عن كتابه وهدى رسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه وقد ضربوا لمخالفته جاشاً وعدلوا عن هدى نبيه وطريقته (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكنه أكثرهم لا يعلمون)

فأولياء الرحمن المتلبسون بما يحبه وليهم الداعون إليه المحاربون لمن خرج منه وأولياء الشيطان المتلبسون بما يحبه وليهم قولاً وعملاً يدهون إليه ويحاربون من نهام عنه . فإذا رأيت الرجل يحب السباح الشيطاني ومؤذن الشيطان وإخوان الشياطين ويدهو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور هلكت أنه من أولياءه ، فإن اشتبه عليك فاكشفه في ثلاثة مواطن في صلاته وبعبته السنة وأهلها ونفرته منهم ودهوته إلى الله ورسوله ونهجيه التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة فزنه بذلك لاتزنه بحال ولا تكشف ولا خارق ولو مشى على الماء وطار في الهواء .

فصل

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيماني والحال الشيطاني فإن الحال الإيماني ثمرة المتابعة للرسول والإخلاص في العمل وتجريد التوحيد ونتيجته منفعة المسلمين في دينهم ودنياهم وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهي .

والحال الشيطاني نسبه إما شرك أو فجور وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهم وهذا الحال يكون لعباد الأصنام والصلبان والثيران والشيطان فإن صاحبه لما عبد الشيطان خلع عليه حالاً يصطاد به ضعف العقول والإيمان ولا إله إلا الله كم هلك بهؤلاء من الخلق (ليردوم وليلبسا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه) فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب وما جاء به الرسول فهو شيطاني كائناً ما كان ، وقد سمعت بأحوال السحرة وعباد النار وعباد الصليب وكثير ممن ينتسب إلى الإسلام ظاهراً وهو برئ منه في الباطن له نصيب من هذا الحال بحسب موالاته للشيطان ومعاداته للرحمن ، وقد يكون الرجل صادقاً ولكن يكون ملبوساً عليه يجهله فيكون حاله شيطانياً مع زهد وعبادة وإخلاص لكن لبس عليه الأمر لقلة علمه بأمور الشياطين والملائكة وجهله بحقائق الإيمان ، وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من ليس منهم بل هو مثبته صاحب مخايل ومخاريق ووقع الناس في البلاء بسبب عدم التمييز بين هؤلاء وهؤلاء فحسبوا كل سوداء ثمرة وكل بيضاء شحمة ، والفرقان أعز ما في هذا العالم وهو نور يقذفه الله في القلب يفرق به بين الحق والباطل ويزن به حقائق الأمور خيرها وشرها وصالحها وفاسدها فمن عدم الفرقان وقع ولا بد في إشرارك الشيطان فاته المستعان وعليه التكلان .

فصل

والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذي غايته أن يكون جائز الاتباع أن الحكم المنزل هو الذي أنزله الله على رسوله وحكم به بين عباده وهو حكمه الذي لاحكم له سواء .

وأما الحكم المؤول فهو أقوال المجتهدين المختلفة التي لا يجب اتباعها ولا يكفر ولا يفسق من خالفها فإن أصحابها لم يقولوا هذا حكم الله ورسوله بل قالوا اجتهدنا برأينا فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله ، ولم يلزموا به الأمة بل قال أبو حنيفة هذا رأيي فمن جاءني بخبر من قبلنا . ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبي يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه ، وكذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على ماني الموطأ فتمعه من ذلك وقال قد تفرق أصحاب رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم في البلاد وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين وهذا الشافعي ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه ، وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها ويقول لا تقلدني ولا تقلد فلاناً ولا فلاناً وخذ من حيث أخذوا ولو علوا رضى الله عنهم أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموها على أصحابهم مخالفتهم ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم في شيء ، ولما كان أحدهم يقول القول ثم يفتى بخلافه فيروى عنه في المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك فالرأى والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه ، والحكم المنزل لا يحل لمسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه .

وأما الحكم المبدل وهو الحكم بغير ما أنزل الله فلا يحل تنفيذه ولا العمل به ولا يسوغ اتباعه وصاحبه بين الكفر والفسوق والظلم .

والمقصود التنبيه على بعض أحوال النفس المطمئنة واللوامة والامارة وما تشترك فيه النفوس الثلاثة وما يتميز به بعضها من بعض وأفعال كل واحدة منها واختلافها ومقاصدها ونياتها وفي ذلك تنبيه على ما وراءه ، وهى نفس واحدة تكون أمانة تارة ولوامة أخرى ومطمئنة أخرى ، وأكثر الناس الغالب عليهم الامارة ، وأما المطمئنة فهى أقل النفوس البشرية عدداً وأعظمها عند الله قدراً وهى التى يقال لها (ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى في عبادى وادخلى جنتى) .

والله سبحانه وتعالى المسئول المرجو الإجابة أن يجعل نفوسنا مطمئنة إليه عاكفة بهمتها عليه راهبة منه راغبة فيما لديه وأن يعيدنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وأن لا يجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره وأتبع هواه وكان أمره فرطاً ولا يجعلنا من (الآخرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) انه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

تم الكتاب

تم طبع كتاب [الروح لابن القيم] وذلك في يوم السبت ١١ من رمضان
المعظم سنة ١٣٨٦ هجرية (الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦ ميلادية)

طبعة تحت إشراف الشيخ محمد بن عبد الوهاب

مفرد

كتاب الروح لابن القيم

الموضوع

الصفحة

خطبة الكتاب	٣
المسألة الأولى في معرفة الاموات بزيارة الاحياء وسلامهم	٥
ما يقول الطير يوم الجمعة	٦
تواطؤ رؤيا المؤمنين كتواطؤ روايتهم	٩
الميت يستأنس بالمشيعين	٩
القراءة عند دفن الميت	١٠
القراءة عند القبور عقب الدفن	١١
فصل في أن الموتى يسألون عن الاحياء ويعرفون أقوالهم وأفعالهم	١٢
فصل في الاستدلال على سماع الموتى من اجراء العمل على تلقين الميت في القبر	١٣
أخبار الاموات بما حدث في أهلهم بعدهم وبما يحدث	١٤
قصة وصية ثابت بن قيس رضى الله عنه بعد موته	١٥
أنفذ أبو بكر رضى الله عنه وصية ثابت بن قيس التي أوصى بها في المنام بعد المهاد	١٥
المسألة الثانية في أن أرواح الموتى هل تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا	١٧
ذكر الدجال ويأجوج وماجوج	١٧
الأحاديث الدالة على تلاقى أرواح الموتى وتعارفهم	١٩
المسألة الثالثة هل تتلاقى أرواح الاحياء وأرواح الاموات أم لا	٢٠
قصة وفاة مالك بن دينار رحمه الله تعالى	٢٢
قصة رؤية رجاء بن حيوة بعد موته	٢٣
قصة رؤيا رابعة رحمه الله بعد موتها	٢٣
رؤيا بعض أهل عاصم الجعدي بعد مماته إياه	٢٤
قصة رؤيا مره الحمداني رحمه الله تعالى	٢٤
قصة رؤيا أويس القرني بعد وفاته رحمه الله تعالى	٢٤

الموضوع	الصفحة
ذكر عرض الحسنات والسيئات كلها على الأرواح	٢٥
رؤيا عمر بن عبد العزيز رحمه الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه الأربعة في المنام	٢٥
ذكر رؤية معاذ بن جبل رضى الله عنه وما كان عليه من النعم	٢٦
ذكر منزلة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في الآخرة	٢٨
رؤية بشر الحافي رحمه الله تعالى بعد موته	٢٨
اتباع الآثار وصحبة الأخيار ينجيان من النار ويقربان من العزيز الغفار	٢٨
الدلائل العقلية على ملاقات الأرواح	٢٩
الرؤيا على ثلاثة أنواع منها الرؤيا الصحيحة ولها أقسام	٢٩
الاسئلة الثلاثة العجيبة عن على كرم الله وجهه مع جواباتها	٣٠
يعرج بروح النائم إلى العرش ويؤذن لها بالسجود إن كان طاهر	٣١
كيف تلتقي روح النائم وروح اليقظان	٣١
ذكر الحكم والمصالح من الله تعالى للعباد في الرؤيا	٣٢
نوادير رؤيا أبي محمد البغانشى	٣٣
جلوس العفريت على المال	٣٣
المسألة الرابعة أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده	٣٤
بحث في معنى موت النفوس	٣٤
ذكر نفي الصور والصعق ومن هو مستثنى عنه	٣٥
بيان حديث الناس يصمقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق الخ	٣٧
بحث في معنى الموت ماهو	٣٧
المسألة الخامسة أن الأرواح كيف تتميز بعد مفارقة الأبدان بعضها من بعض	٣٨
الروح ذات قائمة بنفسها على أصول أهل السنة	٤٠
المسألة السادسة هل تعاد الروح في قبره وقت السؤال أم لا	٤١
الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق	٤٣
رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم الأنبياء ليلة الإسراء	٤٤
تحقيق سماع الموقى	٤٦
ذكر حالة النزوع لروح المؤمن ولروح الكافر وما يمتضى عليهما في القبر مفصلا	٤٦

الموضوع	الصفحة
فصل في أن هل عذاب القبر على النفس والبدن أو على النفس دون البدن أو على البدن دون النفس وهل يشارك البدن النفس في النعيم والعذاب أم لا	٥١
فصل في أن مذهب السلف أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب مع الروح والبدن	٥٢
فصل في ذكر أحاديث عذاب القبر ومسألة منكر ونكير	٥٢
عذاب القبر تسمعه بهائم	٥٤
حكاية عجيبة لاستماع الدابة عذاب القبر برأى من الناس	٥٥
تمثل الاعمال في القبر لوقاية صاحبها	٥٦
تمثل الشمس في القبر كأنها تغرب	٥٦
أحاديث ضغطة القبر	٥٦
فصل في أن عذاب القبر حق باتفاق أهل السنة	٥٧
فصل في أن عذاب القبر ينال من هو مستحق له قبر أو لم يقبر ولو أكلته السباع	٥٨
ذكر عذاب القبر لمن يحدث بالكذب	٥٨
ذكر عذاب الزناة وآكلى الربا	٥٨
عذاب من صلى بغير طهور أو مر على مظلوم فلم ينصره	٥٩
ذكر قصة الإسراء	٥٩
عذاب المتهاون بالصلاة	٦٠
عذاب مانع الزكاة	٦١
المسألة السابعة في جواب الملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر ونيمة وما يتعلق بهما	٦١
ذكر الامور التي يعلم بها الجواب للملاحدة والزنادقة	٦١
الامر الاول	٦٢
الامر الثاني	٦٢
الامر الثالث	٦٣
توجيه لطيف في إثبات عذاب القبر	٦٤
الامر الرابع	٦٤
قصة سلام الملائكة على المحتضر وجوابه	٦٤

الموضوع	الصفحة
قصة خير الفساج رحمه الله تعالى	٦٥
قصة وفاة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى	٦٥
الامر الخامس والسادس	٦٦
ذكر الحكمة في ستر العذاب من الناس دون البهائم	٦٧
عذاب القبر يظهر أحيانا إذا شاء الله تعالى	٦٧
عذاب تأخير الصلاة والصلاة بغير طهور	٦٧
عذاب المشى بتخترا	٦٧
عذاب سوء الأدب في شأن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين	٧٠
الامر السابع	٧١
عدم كشف عذاب القبر رحمة للعباد	٧١
الامر الثامن	٧٢
تفسير آية وإن من شيء إلا يسبح بحمده الخ	٧٢
إذا وقع الشعور للأشجار والأحجار فالأجسام ذات الأرواح أول بذلك	٧٢
الامر التاسع	٧٣
عذاب القبر هو عذاب البرزخ	٧٣
الامر العاشر	٧٤
ذكر القيامة الصغرى والقيامة الكبرى	٧٤
البرزخ أول دار الجزاء	٧٤
المسألة الثامنة في أن ما الحكمة في عدم ذكر عذاب القبر في القرآن مع شدة الحاجة إليه	٧٥
الحكمة هي السنة بالإجماع	٧٥
المسألة التاسعة وهي قول السائل ما الأسباب التي تعذب بها أصحاب القبور	٧٧
المسألة العاشرة في الأسباب المنجية من عذاب القبر	٧٩
ذكر محاسبة النفس عند النوم	٧٩
ذكر فضائل الشهداء	٨٠
فضيلة سورة الملك	٨٠
من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة أجبر من عذاب القبر	٨١

الموضوع	الصفحة
ذكر مدافعة أنواع العذاب بأنواع الاعمال مفصلاً	٨٢
رؤيا الانبياء وحى	٨٣
المسألة الحادية عشرة أن السؤال في القبر هل هو عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق	٨٣
اسم الفاجر يعم الكافر قطعاً في القرآن	٨٥
المسألة الثانية عشرة في أن سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الامة أو يكون لها وتغيرها	٨٦
المسألة الثالثة عشرة أن الاطفال هل يمتحنون في قبورهم	٨٧
المسألة الرابعة عشرة وهي قوله هل عذاب القبر دائم أو منقطع	٨٩
المسألة الخامسة عشرة في أنه أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة الخ	٩٠
الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام	٩٠
فصل في بيان قول من قال إن الأرواح في الجنة	٩٣
فصل في بيان قول مجاهد إن الأرواح ليست في الجنة	٩٩
فصل في بيان قول من قال إن الأرواح على أفنية قبورها	١٠٠
روح النائم تصعد فتسجد بين يدي العرش	١٠١
فصل في أن شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف والكبر والصغر	١٠٢
فصل في بيان قول من قال إن أرواح المؤمنين عند الله تعالى	١٠٤
بيان سدرة المنتهى وسجين وعليين	١٠٥
قصة قبض روح إدريس عليه السلام في السماء الرابعة	١٠٥
وجه تسمية سدرة المنتهى	١٠٥
فصل في بيان قول أن أرواح المؤمنين بالجالية وأرواح الكفار بحضرموت ببرهوت	١٠٦
فصل في بيان قول أن الأرواح تجتمع في الأرض التي قال الله فيها يرثها عبادي الصالحون	١٠٧
فصل في بيان قول من قال مستقر أرواح المؤمنين في عليين والكفار في جهنم	١٠٧

الموضوع	الصفحة
فصل في إبطال كون الأرواح في برزخ	١٠٨
فصل في بيان قول أن أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار عن يساره	١٠٨
فصل في بيان قول أن أرواح المؤمنين عن يمين آدم عليه السلام	١٠٨
فصل في بيان قول ابن حزم أن مستقر الأرواح حيث كانت قبل خلق أجسادها	١٠٩
فصل في بيان قول من قال إن مستقر الأرواح العدم المحض	١١٠
فصل في بيان قول من قال إن للأرواح بعد الموت أبدان آخر غير هذه الأبدان	١١٢
القول الراجح في مستقر الأرواح	١١٣
النفس أربع دور كل دار منها أعظم من التي قبلها	١١٦
المسألة السادسة عشرة هل تنفع أرواح الموتى من سمي الأحياء أم لا	١١٧
الدليل على انتفاع الميت بما تسبب إليه في حياته	١١٨
فصل في الدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه	١١٨
فصل في إثبات وصول ثواب الصدقة إلى الميت	١١٩
د د وصول ثواب الصوم والحج	١٢٠
د د د الحج	١٢١
العبادات قسمان مالية وبدنية	١٢٣
دلائل المانعين من وصول ثواب العبادات إلى الأموات	١٢٤
ذكر سبع يجرى على الميت أجرهن في قبره	١٢٤
دلائل المقتصرين على وصول ثواب العبادات التي تدخلها النيابة	١٢٦
وجوه الجواب	١٢٨
فصل في نفي عقوبة العبد بعمل غيره	١٢٩
د د أن الاستدلال بحديث إذا مات العبد ساقط	١٢٩
د د جواب قولهم الإهداء حوالة الخ	١٢٩
د د الإيثار بسبب الثواب مكروه	١٢٩
د د لو ساغ الإهداء إلى الميت لساغ إلى الحي	١٣٠
د د ذلك لساغ إهداء نصف الثواب وربعه إلى الميت	١٣٢
د د ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمل له لنفسه	١٣٢

الموضوع	الصفحة
فصل في جواب قولهم لوساخ الإهداء لساخ إهداء ثواب الواجبات التي تجب على الحي	١٢٣
د د د أن التكليف امتحان وابتلاء لا تقبل البذل	١٢٣
قراءة الإمام قراءة لمن خلفه	١٢٤
فصل في جواب قولهم أنه لو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه وإسلامه عنه	١٢٤
د د د العبادات نوعان الخ	١٢٥
فصل في الجواب عن رد حديث من مات وعليه صيام الخ	١٢٦
فصل في جواب ما قالوا إن ابن عباس هو راوى حديث الصوم عن الميت الخ	١٢٧
فصل في جواب ما قالوا إنه حديث اختلف في إسناده الخ	١٢٧
د د د تغليظ راوى حديث ابن عباس أن نذر أم سعد كان صوما الخ	١٢٩
فصل في ذكر أقوال أهل العلم في الصوم عن الميت	١٤٠
فصل في جواب من فرق بين ثواب النفقة وبين ثواب الحج	١٤٠
فصل هل يشترط في إيصال الثواب التلفظ بالإهداء أم يكفي مجرد النية	١٤١
هل يتعين في إهداء الثواب تعليق العمل بالقبول أم لا	١٤١
أى الأعمال أفضل في إهداء الثواب إلى الميت	١٤٢
بيان وصول ثواب قراءة القرآن وما يتعلق به	١٤٣
إهداء ثواب الأعمال إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	١٤٣
المسألة السابعة عشرة وهى هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة	١٤٤
اختلاف الأقوال في الروح هل ما نقله الحافظ ابن منده	١٤٤
الروح تموت أم لا	١٤٥
فصل في بيان الدلائل على خلق الأرواح	١٤٦
ذكر الاختلاف في معنى الروح في الآية الكريمة بين السلف والخلف	١٥١
بيان اختلاف الروايات عن ابن عباس في تفسير آية ريسلونك عن الروح	١٥٢
بيان أن معنى الروح في القرآن على عدة أوجه	١٥٣
فصل في بيان إضافات الصفات إلى الله تعالى	١٥٤
المسألة الثامنة عشرة وهى تقدم خلق الأرواح على الاجساد أو تأخر خلقها عنها	١٥٦
دلائل من يقول بتقدم خلق الأرواح على خلق الأبدان	١٥٦

الموضوع	الصفحة
فصل في ذكر الدليل على أن الأرواح خلقت بعد خلق الأبدان والجواب عما استدل به القائلون بتقدم خلق الأرواح	١٦٠
تفسير آية وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم إلخ	١٦٣
فصل في القول الآخر في تفسير الآية	١٦٣
• على كل تقدير لاتدل الآية على خلق الأرواح قبل الأجساد خلقاً مستقراً	١٧١
• في الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها	١٧٢
المسألة التاسعة عشرة وهي ما حقيقة النفس	١٧٥
القول الصواب في حقيقة الروح الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل وذكر دلائله	١٧٩
فصل	١٨٢
•	١٨٢
•	١٨٤
•	١٨٥
•	١٨٨
قصة ذبح الراضى الذى كان يسب الشيخين رضى الله عنهما في المنام	١٨٩
قصة سواد الوجه لساب على كرم الله وجهه في المنام	١٨٩
حكاية تسويد نصف الوجه لساب الشيخين رضى الله عنهما	١٩٠
قصة ذبح ساب للشيخين رضى الله عنهما	١٩١
قصة سواد الوجه لتأخير الافطار خلاف أمره صلى الله عليه وآله وسلم	١٩١
دواء رد البصر	١٩٢
علاج وجع الورك	١٩٢
• وجع المعدة من روح جالينوس الحكيم	١٩٢
فصل	١٩٢
•	١٩٢
• في بيان أدلة المنازحين في جسمية الروح وتجهدها	١٩٧
• جواب الشبهة الأولى لمنازعى جسمية الروح والنفس	٢٠٤
• • • الثانية	٢٠٤

الموضوع	الصفحة
فصل في جواب الشبهة الثالثة	٢٠٤
الرابعة	٢٠٥
الخامسة	٢٠٦
السادسة	٢٠٧
السابعة	٢٠٧
الثامنة	٢٠٨
التاسعة	٢٠٩
العاشر	٢١٠
الحادية عشرة	٢١٠
الثانية عشرة	٢١٠
الثالثة عشرة	٢١١
الرابعة عشرة	٢١١
الخامسة عشرة	٢١١
السادسة عشرة	٢١٢
السابعة عشرة	٢١٢
الثامنة عشرة	٢١٣
عمل دفع ضرر العين	٢١٤
فصل في جواب الشبهة التاسعة عشرة	٢١٥
العشرين	٢١٥
الحادية والعشرين	٢١٦
تكفير منكرى الجن والملائكة	٢١٦
فصل في جواب الشبهة الثانية والعشرين	٢١٦
دخول الجن في المصروع	٢١٦
المسألة المشروون وهى هل النفس والروح شئ واحد أو شيئان	٢١٧
وجه تسمية الروح والنفس والفرق بينهما	٢١٧
فصل في قول من قال أن الروح غير النفس	٢١٨
المسألة الحادية والعشرون هل النفس واحدة أم ثلاث	١٢٠

الموضوع	الصفحة
فصل في أن الطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان	٢٢١
د أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كلالاً إلخ	٢٢٢
د مباشرة الروح الطمأنينة	٢٢٣
د الحاسبة والمراقبة	٢٢٥
د النفس اللوامة وأحوالها	٢٢٥
د ذكر النفس الأمانة وأحوالها	٢٢٦
د أن النفس الأمانة في مقابلة النفس المطمئنة	٢٢٨
د إرادة النفس الأمانة للاخلاق في صورة ينفر منها	٢٢٩
د إراداتها صورة الصدق والجهاد وغيرها في صورة متضادة	٢٣٠
د الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق	٢٣٢
د الفرق بين شرف النفس والتبئ	٢٣٣
د الحمية والجهاد	٢٣٣
د التواضع والمهانة	٢٣٣
د القوة في أمر الله والعلو في الأرض وفي الحمية لله والحمية للنفس	٢٣٤
د الجود والسرف	٢٣٥
د المهابة والتكبر	٢٣٥
د الصيانة والتكبر	٢٣٦
د الشجاعة والجرأة	٢٣٦
د الحزم والجبين	٢٣٧
د الاقتصاد والشح	٢٣٧
د الاحتراس وسوء الظن	٢٣٧
د الفراسة والظن	٢٣٨
حكايات تفرس أمير المؤمنين عمر وعثمان رضي الله عنهما وغيرهما من أكابر الدين	٢٣٩
فصل في الفرق بين النصيحة والغيبة	٢٤٠
د الهدية والرشوة	٢٤٠
إعطاء الرشوة لدفع الظلم	٢٤٠
فصل في الفرق بين الصبر والقسوة	٢٤١

الموضوع	الصفحة
القلوب ثلاثة	٢٤١
فصل في الفرق بين العفو والذل	٢٤١
تسييح حملة العرش وهم أربعة	٢٤١
الفرق بين الانتصار والانتقام	٢٤٢
فصل في الفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل	٢٤٣
د د د د الثقة والفرقة	٢٤٤
د د د د الرجاء والتبني	٢٤٥
د د د د "تحدث بنعم الله والفخر بها	٢٤٧
د د د د فرح القلب وفرح النفس	٢٤٨
د د د د بيان أعظم الفرح	٢٤٩
د د د د الفرق بين رقة القلب والجزع	٢٥٠
د د د د الموجدة والحقد	٢٥١
د د د د المنافسة والحسد	٢٥١
د د د د حب الرياسة وحب الامارة	٢٥٢
د د د د الحب في الله والحب مع الله	٢٥٣
د د د د التوكل والعجز	٢٥٤
د د د د الاحتياط والوسوسة	٢٥٦
د د د د الهام الملك والقاء الشيطان	٢٥٦
د د د د الاقتصاد والتقصير	٢٥٧
د د د د النصيحة والتأنيب	٢٥٧
د د د د المبادرة والعجلة	٢٥٨
د د د د الاخبار بالحال وبين الشكوى	٢٥٨
د د د د الدين كله فرق والضلال كله جمع	٢٦٠
الرد على الطائفة الاتحادية في مقولة الاتحاد وذكر قصوصهم وواضع نصوصهم	٢٦٠
فصل في بيان الإشارة اللطيفة إلى الفروق بين هذه الامور المذكورة انفا	٢٦١
د في الفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة	٢٦١

الموضوع	الصفحة
فصل في الفرق بين حقائق الاسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل	٢٦٢
فصل في الفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب	٢٦٣
متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم وإمداد أقوال العلماء والفتاها	٢٦٤
فصل في الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان	٢٦٤
فصل في الفرق بين الحال الإيماني والحال الشيطاني	٢٦٦
فصل في الفرق بين الحكم المنزول الواجب الاتباع والحكم المؤول الذي غايته أن يكون جائزا الاتباع والحكم المبدل	٢٦٦

تم الفهرس